أندريه مالرو

المذكّرات المضادّة

André Malraux
Antimémoires

روائع الأدب والفكر منقولة إلى العربية

أَندريه مَالـرو

المذكّراتُ المضَادَّة

مـرآة اليـمْبُس

•

نُقِلَ إلى العَرَبيّة
بإشراف
هنري زغيب

عويدات

Editions Gallimard

5, rue Sébastien-Bottin
75341 Paris Cedex 07
Téléphone 544-39-19
Télex GALLIM 204121 F
Adresse télégraphique :
ENEREFENE Paris 044
Société anonyme au capital
de 8 737 300 F
572206755 R.C. Paris

Les EDITIONS GALLIMARD
ont cédé par contrat en date du
17 septembre 1981 aux EDITIONS OUEIDAT
à Beyrouth, pour la collection "Marianne"
les droits exclusifs de traduction,
publication et diffusion en langue arabe
dans le monde entier de l'ouvrage

André MALRAUX : Le Miroir des Limbes
tome 1 : Antimémoires.

EDITIONS GALLIMARD
par délégation du
Président Directeur G

© منشورات عويدات - بيروت
جميع حقوق الطبعة العربية في العالم وفي البلدان العربية
خاصة محفوظة لدار منشورات عويدات - بيروت ، بموجب
اتفاق خاص مع دار غاليمار Gallimard - باريس

الطبعة الأولى ١٩٨٣

الفيل أحكم الحيوانات ، وهو القادر من دونها جميعاً على أن يتذكر حيواته السالفة ، ولهذا فهو يطيل التروي متفكراً فيها .

نص بوذي

١٩٦٥

في عرض بحر كريت

هربت ،عام ١٩٤٠، مع القس الذي أصبح فيما بعد راعياً لمنطقة الفركور . والتقينا بعد الهرب بوقت قليل في قرية من اقليم « دروم » كان هو قسيسها وكان يمنح اليهود ، عن يمين وعن يسار ، شهادات تعميد بمختلف التواريخ ولا يشترط إلا أن يعمدهم فعلاً ويقول : « لا بد ان يبقى من ذلك شيء . . . » ولم يزر باريس قط ، فقد أنهى دراساته اللاهوتية في ليون . وكنا نتابع الحديث الذي لا ينتهي ، حديث الذين يلتقون في شذا القرية ليلاً

- منذ متى تتلقى الاعتراف ؟
- نحو خمسة عشر عاماً . . .
- ماذا علمك الاعتراف عن البشر ؟
- انت تعرف أن الاعتراف لا يعلمنا شيئاً ، فما ان أبدأ في تلقي الاعتراف حتى أصبح شخصاً آخر . إنها النعمة . ولكني . . . أقول لك أولاً : ان الناس أتعس كثيراً مما نظن . . . ثم . . .

ورفع ذراعيه الشبيهتين بذراعي حطاب في الليل المرصع

بالنجوم :

- ثم ان خلاصة كل شيء ، ان ليس هناك أشخاص كبار . وقد مات في مذبحة جلير .

●

قد لا يكون تأمل الانسان للحياة ـ الحياة في مواجهة الموت ـ إلا تعميقاً لاستفهامه . لا أقصد ان يقع الانسان قتيلاً فهذا ليس بسؤال أمام كل من قدر له أن يكون شجاعاً ، وهو قدر مألوف ، لكنني أقصد الموت الذي يرف رفيفاً حول كل ما هو أقوى من الانسان ، في الشيخوخة بل في تحول صور الأرض (فالأرض يوحي بالموت خودها الألفي كما يوحي به ما يطرأ عليها من تحول ولو كان من صنع الانسان) ، وأقصد بالأخص ما لا سبيل إلى علاجه ، مثل فولهم : لن تعرف أبداً ما معنى هذا . فأمام هذه المسألة ماذا يهمني مما لا يهم غيري أنا ؟ كل الكتّاب الذين عرفتهم تقريباً يحبون طفولتهم ، وأنا أكره طفولتي . وإذا كان خلق النفس هو ان نرتاح إلى هذا النزل الذي يلا طريق والذي يدعى الحياة ، فما أقل وأسوأ ما تعلمت أن أخلق نفسي . لقد عرفت أحياناً كيف أعمل ، لكن أهمية العمل ، إلا إذا ارتفع إلى مصف التاريخ ، تكمن في ما يفعله الانسان لا فيما يقوله . أنا لا يتملكني الاهتمام . فالصداقة التي لعبت دوراً كبيراً في حياتي لم تتفق قط مع الفضول . وأنا على وفاق مع قسيس جلير ـ أما هو ، فاذا كان يؤثر الا يكون هناك أشخاص كبار ، فلأن الأطفال قد كُتب لهم الخلاص . . .

لماذا أتذكر ؟

لأني ، وقد عشت في المجال الفلق ، مجال الذهن والتخيل ، مجال الفنانين ، ثم في القتال ثم التاريخ ، وقد عرفت وأنا في العشرين ، آسيا التي كان احتضارها ما زال يبرز ، ما يعنيه الغرب ، قد لاقيت مراراً ـ تارة متواضعة وطوراً متألقة ـ هذه اللحظات التي يتبدى فيها لغز الحياة الأساسي لكل منا ، كما يتبدى لكل النساء تقريباً أمام وجه طفل ، ولكل الرجال تقريباً أمام وجه ميت . وفي كل ما يجتذبنا ، بمختلف أشكاله ، وفي كل ما رأيته يصارع ضد الاذلال ، وحتى فيك ، أنت أيتها العذوبة التي يتساءل المرء ماذا تراك تفعلين على الأرض ، تبدو لي الحياة ، الشبيهة بآلهة ديانات منقرضة ، تبدو لي مرات مثل كتاب موسيقى مجهولة .

ورغم اني كنت في شبابي عرفت الشرق شبيهاً بعربي عجوز يسير على حماره ، بينما يغط العالم الاسلامي في نومه الذي لا يقهر ، فقد أصبح المئتا الف من سكان القاهرة أربعة ملايين ، وبغداد تستبدل الزوارق البخارية بقفف القصب والقار التي كان فلاحوها البابليون يصطادون بها ، وتاهت أبواب طهران المطعمة بالفسيفساء في غمار المدينة ، كما تاهت بوابة سان دوني . أميركا تعرف منذ زمن بعيد المدن التي أطلقوا عليها اسم الفطريات [1] ، ولكن هذه المدن لم تكن تمحو حضارة أخرى ولم تكن ترمز إلى تحول صور الانسان . الكل يعرف ان الأرض لم تتغير في مدى قرن واحد ، مثلما

(١) المدن التي يتكاثر عدد سكانها بنسبة ١٠٠ ٪ أو يزيد كل عام .

تغيرت في هذا القرن (إلا بالتخريب والدمار) . لقد عرفت عصافير الدوري التي كانت تسطر « الاومنيبوس » عند « الباليه رويال » ، ورأيت القومندان غلين الخجول الجذاب بعد عودته من رحلة الفضاء ، وعرفت مدينة موسكو التربة ورأيت برج جامعتها يرتفع مثل ناطحة سحاب مدنية . وكل ما يخطر في البال من صورة أميركا القديمة حين نرى قطارها الصغير المصقول بمدخنته كزهرة التوليب ، على رصيف محطة بسيلفانيا ، ثم كل ما يتداعى إلى الذهن من أميركا الجديدة ، لدى ناطحة سحاب « البان أميركا » .

كم من القرون مضت لم تهز العالم فيها ديانة كبرى ؟ هذه أول حضارة تستطيع أن تعم الأرض كلها ، ولكنها لا تستطيع أن تبتكر لنفسها المعابد والقبور .

●

كان الذهاب إلى آسيا يعني ، في ما مضى ، التغلغل البطيء في المكان والزمان متزاوجين . الهند بعد الاسلام ، والصين بعد الهند ، والشرق الأقصى بعد الشرق ، وسفن السندباد مهجورة في مأى من مرفأ هندي عند هبوط المساء ، وبعد سنغافورة ، عند مدخل بحر الصين ، قوارب الجونك الأولى ، مثل الديدبان .

وأعود الآن ، بأمر من الأطباء ، إلى هذا التغلغل البطيء ، وأتطلع إلى الاضطراب الذي ملأ حياتي الدامية والباطلة مثلما ملأ حياة آسيا ، قبل أن ألتقي من جديد ، وراء المحيط ، طوكيو حيث أرسلت يوماً تمثال فينوس ، وكيوتو التي لا يمكن التعرف عليها ،

« ونارا » سليمة تقريباً رغم معبدها المحروق - في الماضي وصلت إليها كلها بعد يوم بالطائرة - والصين التي لم أرها من جديد . « على امتداد الأفق ، ترامي المحيط ، يغطيه الثلج ، بلا أخاديد . . . » لقد استرجعت أمام البحر الجملة الأولى من روايتي الأولى ، وعثرت في المركب على لوحة البرقيات التي ألصق عليها منذ أربعين عاماً ، نبأ عودة آسيا إلى التاريخ : « تقرر اعلان الاضراب العام في كانتون » .

●

بماذا تجيب حياتي ان هذه الآلهة التي تغرب ، وهذه المدن التي تنهض ، ومن ضجيج العمل الذي يلطم الباخرة وكأنه هدير البحر الخالد ، ومن آمال راحت عبثاً وأصدقاء قتلوا ؟ هذا هو الوقت الذي بدأ فيه أبناء عصري يروون حكاياتهم الصغيرة .

عام ١٩٣٤ ، وفي شارع « فيوكولومبيه » ، كان بول فاليري يحدثني عرضاً عن اندريه جيد ، فسألته : « لماذا ، ما دمت لا تبالي بالتاجه ، ترفع كتابه « حديث مع رجل المانيا » إلى هذه المكانة العالية ؟ » قال : « ماذا ؟ » وأعدت تذكيره . . . « نعم ، آه ! لا بد أن فيه توفيقاً في حذلقات تصريف الفعل الماضي ! . . . » ثم أردف بالوقار النسبي الذي كان يمزج به هجته ولكنة الأعياد : « أنا أحب جيد . ولكن كيف يستطيع المرء أن يتخذ من بعض الشباب حكماً على أفكاره ؟ ثم ماذا ؟ أنا أهتم بالاستثارة ولا أهتم بالصدق . وعلى كل حال ، ماذا يهمنا الصدق؟ » وهكذا كانت تنتهي في

كثير من الأحيان ، الآراء التي يراها ـ وفقاً لعبارة أوسكار وايلد ـ صالحة للحديث .

ولكن ما يسميه جيداً الشباب ، لم يقتصر دائماً على الشبان ، كما ان سواد المسيحية لم يقتصر دائماً على المؤمنين . الشيطان يحب الجماعات ، ويحب التجمعات أكثر ، والعظمة أيضاً . لقد عشت حتى الثلاثين من عمري بين أناس كان الصدق وسواسهم ، لأنهم يرون فيه عكس الكذب ، ولأن الصدق (وهم من الكتاب) قد أصبح ، منذ روسو مادة ممتازة للأدب . ويجب أن نضيف إلى ذلك ، التبرير العدواني الذي يتمثل في قول بودلير : « يا أيها القارىء المرائي ، يا شبيهي ، يا أخي . . . » فالأمر لا يتعلق بمعرفة الانسان ، أيا كانت هذه المعرفة ، بل لا بد أبداً من كشف النقاب عن سر من الأسرار ، لا بد من الاعتراف . لقد كان الاعتراف المسيحي فدية الغفران وسبيل التوبة . والموهبة غير الغفران ولكن مفعولها لا يقل عمقاً . لو فرضنا أن « اعتراف ستافروغين » هو في الحقيقة اعتراف دستويفسكي ، لتحولت الحادثة الشنيعة إلى تراجيديا ، وتحول دستويفسكي إلى ستافروغين ، إلى بطل من اختراع الخيال ـ وهذا التحول تعبر عنه أروع تعبير ، كلمة : بطل . ليس من الضروري تحوير الوقائع : فالمذنب يتم خلاصه ، لا لأنه يفرض علينا قبول أكذوبة ، ولكن لأن مجال الفن غير مجال الحياة . ان عار روسو ، مهما كان عاراً متكبراً ، لا يقضي على عار « جان جاك » المثير للرثاء ، إلا أن العار الأول يحمل إلى العار الآخر وعداً بالخلود . هذا التحول ، وهو من أعمق التحولات التي يمكن

للانسان أن يبدعها ، هو التحول من مصير يخضع له إلى مصير يتحكم هو به .

أن أعجب بالاعترافات التي تسميها مذكرات ، لكنها لا تشد كل انتباهي . بقي أن تحليل الفرد ، فوق ما يحدثه في نفوسنا عندما يصدر من فنان عظيم ، يغذي فعلاً من أفعال الذهن كنت شديد الاهتمام به أيام حديثي مع فاليري : أن يختصر الانسان إلى أدنى حد ممكن نصيبه من الكوميديا . عندئذ ينبغي لكل إنسان أن ينتصر على دنيا رومانسية يسبح فيها ولا يتملكها ، ويشتد هياجه كلما طرحت للبحث والتساؤل ، دنيا يقوم عليها جانب من المسرح الكوميدي هو الذي نرى فيه شخصيات من لايبش تخلف شخصيات من موليير ، واخطيب الساخط عند فكتور هوغو ، الذي يقدم باسلاً على مصارحة الملك بحقيقته ـ وهو شخص لعب دوراً ثابتاً ونافلاً في سياسة أمم البحر المتوسط ولكن الكفاح ضد الكوميديا يبدو كأنه كفاح ضد النقائص ، في حين أن وسواس الصدق يبدو كأنه يطارد سراً .

لقد تبوأ الفرد في المذكرات المكانة التي نعرفها ، منذ أن أصبحت اعترافات . والمذكرات التي كتبها القديس أوغسطينوس ليست اعترافات البتة ، وهي تنتهي برسالة في الميتافيزياء . ولا يمكن أن يفكر أحد في أن يطلق صفة الاعترافات على مذكرات سان سيمون ، فهو يتحدث عن نفسه ليثير الاعجاب . وقديماً بحثوا عن الانسان في الأعمال العظيمة التي يأتيها الرجال العظام ، ثم بحثوا عنه في الأعمال السرية التي يأتيها الأفراد . (خاصة وأن

الأعمال العظيمة كانت عنيفة في كثير من الأحيان ، والحوادث اليومية قد ابتذلت العنف) . ومذكرات القرن العشرين ذات طبيعتين . فهي ، من ناحية ، شهادة عن الأحداث ، مثل مذكرات الجنرال ديغول عن الحرب ، و« أعمدة الحكمة السبعة » ، حيث نقرأ تأرجحاً للسعي وراء هدف كبير . وهي من ناحية أخرى ، الاستبطان الذي يراد به دراسة الانسان ، وكان جيد آخر ممثليه المشهورين . ولكن مؤلف « أوليس » ومؤلف « البحث عن الزمن المفقود » قد استخدما شكل الرواية . ان « المستبطنين المعترفين » قد غيروا من طبيعة أعمالهم . ذلك أن اعترافات كاتب المذكرات مهما بلغت قدرته على التحدي والاستفزاز تبدو الآن واهية طفلية ، أمام المسوخ التي طلعت بها علينا استكشافات التحليل النفسي ، حتى عند أولئك الذين ينازعون في نتائجها . ان مرض العصاب يعود من مطاردة الأسرار بصيد أوفر عدداً وأوقع نبرة . ان « اعتراف ستافروغين » يدهشنا أقل مما يدهشنا « الرجل ذو الفئران » لفرويد ، ولا يفضله إلا بنبوغ العبقرية .

إذا لم يعد هناك من يعتقد أن الصورة الذاتية ، بل الصورة ، لم يكن من همها إلا أن تحاكي نموذجها ، منذ تماثيل النحاتين المصريين حتى اللوحات التكعيبية ، فما زلنا نعتقد أن « البورتريه » الأدبي أفضل كلما ازداد شبهاً ويزيد شبهاً بنسبة ما يبتعد عن أن يكون تقليدياً . هذا هو التعريف الذي يقترحه أصحاب المذاهب الواقعية التي بنيت في معظم الأحيان لمواجهة المذاهب التي تدعو إلى ابتغاء المثل الأعلى . ولكن إذا كانت المذاهب المثالية قد أنتجت في اليونان

وفي عصر النهضة فناً من أعظم فنون أوروبا ، فان المذهب الأدبي الذي يدعو إلى المثل الأعلى ذاته ليس بينه وبين ليوناردو دافنشي أو ميكل انجيلو ، صلة قربى إلا في شخصيات المسرح التراجيدي . غير أن « حياة القديس لويس » لجوانفيل « وبورتريات » بوسويه ، تضارع ، بلا أدنى شك ، الشخصيات الواردة في يوميات الأخوين غونكور ، رغم أن الأخوين غونكور أرادا شخصياتهما نموذجية . الحقيقة أولاً ؟ أشك في أن يكون المنشور الركيك الذي حرره ميشليه عن نابوليون أقرب إلى الحقيقة من الرثاء الرائع الذي جاء في كتابه عن « جان دارك » . نحن نعرف لستندال حساسيته الشديدة وتأثره بـ « الوقائع الصغيرة الحقيقية » ، لم لا يكون التأثر بالكبيرة ، أفلا يعدل التعبير عن نابوليون بطل أوسترليتز ، الحديث عن ولوعه بتلطيخ وجه ملك روما بالمرين ؟ وقد يكون لانتصاره في مارينغو أسباب تختلف طبيعتها عن خيانة جوزفين . ما لهم يظهرون الوقائع الكبيرة ، ثم يلفظونها احتقاراً للعرف ، ثم لا يعترفون إلا بالوقائع الصغيرة ؟ من المتفق عليه أن حقيقة إنسان ما ، هي أولاً ما يخبئه . لقد نُسبت إلى جملة جاءت على لسان بعض شخصياتي : « الانسان هو ما يفعله ! » . هو بالتأكيد ليس ما يفعله فقط ، لقد كانت هذه الشخصية ترد على أخرى تقول : « ما هو الانسان ؟ إنه دومة صغيرة باثسة من الأسرار . . . » إن القيل والقال يعطيانا بأرخص الأثمان ، البروز الذي نتوقعه من اللامعقول ، واعتماداً على دراسة اللاشعور ومجاراة لعلم النفس التحليلي خلطنا بين ما يخبئه الانسان ، وليس في الغالب إلا داعياً للرثاء ، وبين ما يجهله عن نفسه . ولكن جوانفيل لم يكن

يزعم أنه يعرف كل شيء عن القديس لويس ، ولا عن نفسه أيضاً . وكان بوسويه يعرف الكثير عن كونديه الأكبر ، فربما كان قد تلقى اعترافه ، ولكنه عندما تحدث عنه أمام الموت ، علق قليلاً من الأهمية على ما كان يسمى حينذاك بالنقائص . وبالمثل فعل غوركي في حديثه عن تولستوي .

كان غوركي يشعر في شبابه بالحاجة إلى أن يتبع بعض الناس سراً ، ليجعل منهم شخصيات في رواياته (وكذلك بلزاك) . وهكذا تبع تولستوي في غابة ياسنايا بوليانا . « توقف العجوز عند فسحة من الأرض أمام صخرة ملساء ، عليها سحلية تنظر إليه . قال تولستوي : « قلبك ينبض بالحياة والشمس جميلة . أنت سعيدة . . . » . وبعد فترة من الصمت ، قال جادا : « . . . أما أنا ، فلا . . . » .

كنا قطعنا شجرة صغيرة . هذه العادة الغريبة كانت تسبق وجبة الغداء عند غوركي . واستبانت طلعته ، وقد غطى رأسه بطاقيته التترية الصغيرة ، على اتساع خلفية البحر الأسود ، واستمر في ذكر الشيخ العجوز « عبقري الأرض الروسية » ، في غابته ، أمام الدواب تنصت إليه ، وكأنه اورفيوس في الثمانين .

إن الشعور بالغربة عن الأرض ، او بالعودة إلى الأرض ، الذي نجده هنا غير مرة ، يبدو أنه يولد ، في الغالب ، من حوار مع الموت . عندما يتعرض المرء لعملية إعدام صُوَري فان ذلك لا يترك فيه خبرة عادية . إلا أني ، مع ذلك ، مَدين بهذا الشعور ، في المقام الأول ، للتأثير الغريب ـ بل الحسي الفيزيكي مرّات ـ الذي يمارسه

علىّ وعي العصور الأسير . وهو وعي زادته حدّة انشغالاتي حول الفن ، ذلك بأن كل « متحف خيالي » يحمل ، في وقت واحد ، موت الحضارات وانبعاث آثارها . ما زلت أؤمن بأني أكتب لأناس سيقرأونني فيما بعد . لا ثقة مني بهذا الكتاب ، ولا بدافع هاجس الموت أو التاريخ بصفتهما قدراً بشرياً ، وإنما تحت وطأة شعور عنيف بانحراف اعتباطي ويتعذر استبداله ، كانحراف السحاب . لماذا سجّلتُ محادثاتي مع رؤساء الدول وليس مع سواهم ؟ لأن المحادثة مع أي صديق هندوسيّ كان ، حتى لو كان واحداً من آخر حكماء الهندوسية ، لا يمكن أن تجعل لي الزمن حساساً كما يجعله نهرو عندما يقول لي : « كان عائلتي يعتقد كذا . . . » . وإذا كنت أحرج هؤلاء الرجال ، والمعابد والمدافن ، فلأنها جميعاً تعبّر « عما يجري » بالطريقة نفسها . يوم كنت أصغي إلى الجنرال ديغول ، أثناء غداء ولا أكثر منه عادية في شقته الخاصة في قصر الاليزه ، كنت أفكر : اليوم ، نحو العام ١٩٦٠ . . . أثناء الاستقبالات الرسمية ، كنت أفكر في استقبالات فرساي ، والكرملين ، وفيينا أواخر عهد الهابسبورغ . في مكتب لينين المتواضع حيث تؤلف القوامس القاعدة لـ « انسان جاوه » الصغير المصنوع من البرونز والذي اهداه إلى لينين أحد الداروينيين الاميركيين ، لم أكن أفكر في حقبة ما قبل التاريخ ، إنما في الصباحات التي فتح فيها لينين هذا الباب ، وفي اليوم الذي راح يرقص ، تحت ، في فناء الدار ، يرقص على الثلج وهو يصيح في تروتسكي : « اليوم عشنا يوماً واحداً أكثر من « عامية » باريس ! » . اليوم . . . أمام انتفاضة قرننا كما أمام

قاعدة تمثال « إنسان حاوه » البروسري ، ان ما سحرني هي العصور ، هي الشمس المرجعة والمتعبرة فوق مجرى النهر . . . أمام لافتة تاجر الفخارات في « بول » عندما كنت عائداً من مشواري الأول نحو الموت ، كما في « غرامـا » عندما أخلوني على حالة ليتظاهروا بأنهم سيرموني بالرصاص ، كما تسائل حر تسللا خفيا ، كم مرة خطر في بالي ما خطر يوم كنت في الهند : عام ١٩٣٨ ، أو عام ١٩٤٤ ، أو عام ١٩٦٨ ، قبل المسيح . . .

لم يكن الصدق دائما هدفا لذاته .

وقد سبق لكل من الديانات العظمى ان جعلت من الانسان شيئا « معطى » . تتكاثر المذكرات عندما يبتعد الاعتراف . شاتوبريان يجري حواراً مع الموت ، وربما مع الله ، أما مع المسيح ، فكلا بالتأكيد . وما أن يغدو « الانسان » موضع بحث لا موضع كشف وإلهام ـ ذلك لأن كل نبي يكشف عن الاله إنما يكشف في الوقت نفسه عن « انسان » ـ حتى يزيد الاغراء باستهلاكه : والرأي إذ ذاك ان معرفتنا بالانسان تكون أفضل كلما زادت المذكرات أو اليوميات من عدد صفحاتها . لكن الانسان لا يبلغ الى قرارة الانسان . هو لا يصيب صورته في متسع المعارف التي يكتسبها ، بل يصيب صورة من نفسه في المسائل والقضايا التي يطرحها . والانسان الذي سنجده هنا هو ذلك الانسان الذي يتآلف مع المسائل التي يطرحها الموت عن معنى العالم .

وهذا المعنى لا يواجهني بالسؤال في أي مكان ، بالح مما يواجهني امام بلاد تتغير ، مثل مصر والهند ، عند مقابلتهما بالمدن

المهدمة . لقد رأيت المدن الالمانية تغطيها الأعلام البيضاء (ملاءات معلقة في النوافذ) أو رأيتها مدكوكة بالتمام ، وشاهدت القاهرة وقد انتقل تعداد سكانها من ٢٠٠٫٠٠٠ نسمة إلى ٤ ملايين ، بمساجدها وقلعتها ومدينة الموتى وأهرامها في البعيد ، وشاهدت نورمبرغ خراباً حتى أنه يتعذر على الانسان أن يهتدي إلى ميدانها الكبير . الحرب تنسحب ببلاهة ، والسلام بالغاز . وقد يكون الانسان في مجال القدر والمصير ، أكبر بتعميق أسئلته منه بالأجوبة عنها .

في الابداع الروائي ، وفي الحرب ، وفي المتاحف الحقيقية والخيالية ، وفي الثقافة ، وربما في التاريخ ، وقعت على لغز أساسي ، صادفته تبعاً لأهواء الذاكرة التي لا تبعث الحياة في تسلسلها الأول . هي كواكب تظهر في المسلك ، تضيئها شمس خفيّة ، فتبدو كأنها تعد لتكوين مجرة جديدة . بعضها ينتمي إلى المخيلة ، وكثير منها إلى تذكار ماض يبزغ من الظلمات مثل ومضات البرق ، أو يكون عليّ أن أجمعه صابراً : ان أعمق لحظات حياتي لا تسكن فيّ ولكنها تساورني تارة وتفر أخرى . لا يهم . إن بعض أحلامنا لا يقل معنى أمام المجهول عن ذكرياتنا . فأنا أستعيد هنا بعض المشاهد التي حولتها في ما مضى الى رواياتي . كثيراً ما تكون مرتبطة بالذكرى روابط متشابكة ، وربما تشابكت في المستقبل بطريقة أدعى إلى الحيرة والاضطراب . لقد نقلت المشهد الآتي من « أشجار التنبرغ » وكان مطلع رواية أتلف الغستابو من صفحاتها أكثر مما أستطيع معه أن أعيد كتابتها . وكان عنوانها « الصراع مع

الملاك » . وهل أذاب الآن في عز هذا ؟ الانتحار هنا هو انتحار أبي ، وهذا الجد جندي . وبالطبع عبر الفولكلور العائلي من ملامحه . كان تاجر سفن ، وقد أخذت منه ملامح لتصوير جد البطل في رواية « الطريق الملكي » ، وقبل ذلك أيضاً . استعرت مشهد موته من قبل شبح من شيوخ الفايكنغ . ورغم أنه كان أشد افتخاراً بشهادته كمعلم في صناعة البراميل ، منه بأسطوله الذي فقده كله تقريباً في البحر ، فقد كان متمسكاً بشعائر شبابه ، كذلك فتح جمجمته بضربة بلطة ، وهو ينهي وفقاً للتقاليد تمثال مقدم مركبه الأخير . وهذا الفلامنكي من أبناء دنكيرك أصبح الزاسياً ، ولأن أول غارات الألمان بالغاز حدثت على نهر الفستول فكانت تفرض عليّ شخصية خدمت في الجيش الألماني عام ١٩١٤ . وهذه المعابر التي يعبر فيها البهلوانات بين جذوع أشجار الصنوبر ، هي المعابر التي كانت تنشر فيها القلاع لتحف ، وقد احتلت الغابة مكان البحر .

ولم أكن أعرف شيئاً عن الألزاس . لقد عملت ، لخمسة أو ستة أسابيع ، جندياً خيالاً في ستراسبورغ ، في ثكنات نابوليون الثالث الصفراء ، فتولدت غاباتي من الذكرى المبهمة التي بقيت لي من غابة سانت أوديل أو مرتفعات كوينسبرج ، وشخصيات الرواية تدعى « بيرجيه » لأن هذا الاسم ، تبعاً لنطقه ، فرنسي أو جرماني . ولكنه أصبح اسمي لمدة سنتين . استخدمه بعض الأصدقاء في المقاومة لتسميتي ، فبقي لي . وقد دعاني الألزاسيون لأقود لواء الألزاس - لورين ، وخضت معارك دانماري بعد أيام من وفاة زوجتي الثانية في عيادة كائنة في شارع الألزاس - لورين في مدينة

بريف . وزوجتي الثالثة كانت تقطن في شارع الألزاس - لورين في تولوز . ولا أستطرد . فهناك شوارع كثيرة بهذا الاسم في فرنسا .

لم ينتظرني الناس ليعلموا أن فكتور هوغو كتب مسرحية « ماريون ديلورم » من قبل أن يلتقي جولييت دروويه . ولا شك أن الأسباب التي حملت فكتور هوغو على كتابة « ماريون » قد جعلته أشد تعاطفاً وإحساساً بحياة جولييت دروويه . ولكن هل يمكن تفسير هذه الأعمال الخلاقة التي تحمل الارهاصات ، بأن فيروس الحلم عند « الحالمين في عز النهار » يدفع أيضاً إلى العمل ، كما يؤكد ت . أ . لورانس ؟ فماذا لو انتفى العمل ولم نجد غير هذه الأبيات المتنبئة التي كان كلوديل يلتقطها جزعاً .

أفكر في شارل بيغي ، الذي ذهبت مع الجنرال ديغول لزيارة ضريحه في حقول « المارن » : « طوبى للذين ماتوا في حرب عادلة . . . » في ديدرو الذي ، عند عودته من روسيا ، كتب يقول : « لم يبق لي في قعر الكيس سوى عشر سنين » ، وهو ما صح مع فارق شهر واحد . أفكر في الأب تيار دو شاردان الذي ، في آذار ١٩٤٥ ، أجاب عن سؤال « متى تريد أن تموت ؟ » بقوله : « يوم عيد الفصح » ، والذي مات يوم عيد الفصح عام ١٩٥٥ . أفكر أيضاً في ألبير كامو الذي كتب قبل عشر سنين من موته بحادث سيارة : « يبدو لنا طيران العصافير في النهار بلا هدف ، إلا أن العصافير في المساء تبدو كأنها وجدت لنفسها مقصداً . فهي تطير صوب شيء معين . وهكذا ، ربما ، في مساء الحياة . . . » .

ترى ، هل ثمة مساء للحياة ؟

والتي أنذر فيها بودلير وفرلين بما وقع لهما من كوارث ؟

« أبحرت روحي إلى أهوال الغرق . . . » .

إن لواء الالزاس ـ لورين هو الذي استعاد سانت أوديل ، والكولونيل بيرجيه هو الذي ذهب ليسترجع ، في ألمية كوينسبرغ ، هيكل جرونوالد . . . والمركب الذي أكتب فيه هذه الكلمات يدعى « كمبوديا » ، وألم الاسنان الذي تحس به شخصية « زمن الاحتقار » أثناء هربها ، يشبه الألم الذي سببه لي صغر حذائي عندما هربت بعد ذلك بسبع سنوات . لقد كتبت كثيراً عن التعذيب ، أيام كان لا يلقى الاهتمام ، ومررت بعد ذلك قريباً منه . ان هنغواي ، عبر المنحى الذي يمضي من شاب يعشق المرأة التي تكبره سناً ، ثم المرأة التي تصغره ، حتى الكولونيل السنيلي الذي يصاحب صبية ، ان هنغواي ، عبر ضروب شتى من العجز والانتحار ـ لم ينقطع عن استشفاف مصيره . وماذا عن شامفور ؟ وموباسان ؟ وبلزاك ؟ كتب نيتشه السطر الأخير في « المعرفة المرحة » : « هنا تبدأ المأساة » ، بضعة أشهر قبل أن يلتقي لوسالومي ـ وزرادشت .

رأيت لو سالومي ذات يوم . كانت قد صارت عجوزاً وتلبس كيساً . سألتها مدام هاليفي : « شاي أم بورتو ؟ » فأجابتها : « لم أجيء لأهتم بهذا ! » . وجدتني نفسي معها ، وحدنا ، في زاوية من الصالون ، وحدثتها في كتابها عن نيتشه ، ثم عن نيتشه نفسه . أجابتني ، وقد فقدت مغناطيسية نظراتها واحتفظت بفكها الشبيه بفك طبيب أسنان أمريكي : « أريد أن أتذكر ، على الأقل ، إذا كنت قد قبّلته أم لا على هذا الطريق . تعرف أي طريق أقصد .

فوق بحيرة كوم . . . » .

إن ما يهمني في أي إنسان كان ، هو الحال الانسانية . ويهمني في الانسان العظيم وسائل عظمته وطبيعتها ، وفي القديس طابع قداسته . وبعض الملامح التي تعبر عن صلة خاصة بالعالم ، أكثر مما تعبر عن الطابع الفردي .

كان نيتشه يقول : « ثمة اثنان علماني شيئاً في علم النفس : ستندال ودوستويفسكي » . دوستويفسكي ؟ حسناً ! كان لا بد لهذا الوارث الكبير ، في حزبه ، لجان جاك روسو ، أن يؤثر في أكبر لا عقلاني في عصره (كم كان نيتشه يكون أفضل مما هو لو لم تخترع شقيقته الحمقاء عبارة « إرادة القوة » عنواناً لآخر كُتُب ذلك الرجل الذي كتب « المسافر وظله » !) ولكن ستندال ؟ ماذا يقصدون بعلم النفس عنده ؟ إلا إذا كانوا يقصدون ذكاء شفافاً ودقيقاً مثل البلّور .

عندما كان اندريه جيد في السبعين كانوا يكتبون عنه أنه أكبر الكتّاب الفرنسيين . ماذا تخبرنا مؤلفاته الحميمة ، بما فيها يومياته ، عن الفرد بالذات فيه ؟ لقد حدث ، ذلك الحين ، ربط عكر بين علم النفس والأدب . لقد روى لي جيد كيف زاره برنار لازار مصمماً على خوض غمار المعركة التي أصبحت في ما بعد « قضية دريفوس » . قال لي : « أحزنني . كان هذا الرجل يضع شيئاً ما فوق الأدب . . . » . ان مظهر جيد يكمن في أن التاريخ لم يكن موجوداً بالنسبة إليه . والتاريخ لم يذكر بنفسه اخواني (وسواهم كثيرين) سائلاً إياهم ماذا يكون في نظرهم ـ هذا النظر الذي هو نفسه أغمض له عينيه .

كان الادريون يعتقدون ان الملائكة تلقي على كل ميت هذا السؤال : من أين جئت ؟ ؛ سيجد القارئ هنا ما كتب له البقاء . وان كان علينا أحياناً . كما قلت ، أن نذهب للبحث عنه . لا تستريح الآلهة من المأساة إلا بالهزل ، ان الصلة التي تربط بين « الالياذة » و « الأوديسة » وبين « ماكبث » و « حلم ليلة صيف » هي الصلة التي تربط بين الفاجع ومجال حي أسطوري . أذهاننا تبتكر شخصية القط الذي يلبس الحذاء والرجل الحوذي الذي يتحول عند السحر إلى ثمرة من ثمار القرع . لأنه لا المتدين ولا الملحد يرضيان تماما بالمظهر . وأسمى هذا الكتاب « المذكرات المضادة » لأنه يجيب عن سؤال لا تطرحه المذكرات ، ولا يجيب عن الأسئلة التي تطرحها ، ثم لأنك تلقى فيه وجوداً مرتبطاً بالفاجع في كثير من الأحيان ، وجوداً لا يمكن رفضه ، مثلاً مثل قط يعبر في الظل : وجود الشاذ Farfelu [1] وهي كلمة بعثتها دون أن أعلم .

كان يونغ ، عالم التحليل النفساني ، في بعثة عند هنود المكسيك الجديدة ، وسألوه عن حيوان عشيرته . أجابهم بأن سويسرا ليس لها عشائر ولا طواطم . وبعد ما انتهى الحديث غادر الهنود القاعة عن طريق سلم خشبية نزلوا عليها كما نهبط الدرج : وظهرهم إلى السلم . ونزل يونغ مثلنا ، ووجهه إلى السلم . ووقف الزعيم الهندي يشير في صمت إلى « دب بيرن » المطرز على سترة زائرة : الدب هو الحيوان الوحيد الذي ينزل ووجهه إلى جذع الشجرة أو إلى السلم . . .

---

(١) يستخدم مالرو هذه الكلمة ومشتقاتها في هذا الكتاب بمعنى : العجيب ، والمستغرب ، وتقارن الضدف .

أشجار التنبورغ

٤

لوحة بالألوان للفنان للكاتب لرواية أشجار التنوع

١

الرابس ١٩١٣

كان والدي قد عاد من القسطنطينية منذ أقل من أسبوع. وعلى رنين الجرس قبل البكور، وغش الظلام يسود الغرفة التي لم ترفع ستائرها بعد، سمع والدي خطوات الخادمة تتجه نحو الباب، ثم تقف. ودون ان ينبس الشخص الذي دق الجرس بكلمة، أخذت الخادمة تردد في صوت حزين: «مسكينة يا جان!... مسكينة يا جان!....».

كانت جان تخدم عند جدي.

سادت فترة من الصمت تعانقت خلالها المرآتان، وأصغى والدي الى صوت عربة يتلاشى في الفجر، وقد أدرك ما حدث. ودفعت جان الباب في بطء، كأنها أصبحت فجأة تتخوف من كل الغرف.

وسألها والدي:

- لم يمت؟

- لقد نقل الى المستشفى ياسيدي.

●

وصف لي والدي لحاد ريجباخ وقد غاص في الحفرة إلى

منتصف قوامه ، وهو ينصت برأسه المرفوع ، في راحة الحجر الرملي المتوهج في حمأة الشمس ، إلى أحد أعمامي يقول له : « هيا يا فرانز ، بسرعة ! فهو واحد من العائلة !» .

وكان لنا في الناحية ما يقرب العشرين من أبناء الأعمام ، وكان الشبه مذهلاً بين هذا اللحّاد وجدي الميت .

كان والدي يقول :

ـ سمعت كثيراً من السخافات حول موضوع الانتحار . لكنني لم أجد قط أمام رجل قتل نفسه في ثبات ، شعوراً آخر غير الاحترام . هل الانتحار من أعمال الشجاعة أم لا ؟ سؤال لا يطرح إلا على الذين لم يقتلوا أنفسهم .

كان معظم أعمامي وآباء أعمامي لم يتقابلوا منذ سنوات ، فقد فرقهم أكثر من صروف الحياة : التعارض القائم بين الذين تقبلوا السيطرة الألمانية والذين رفضوها ـ على ان هذا التعارض لم يصل إلى حد القطيعة . وقد أصبح الكثير منهم يقطنون فرنسا . ويتلاقى الجميع عند عمي متياس الذي كان يعاون جدي في إدارة مصنعه . ومن دون الجميع ، لم يحضر والتر ، عم والدي . هل كان حقاً في الخارج ليضعة أشهر ؟ كان على شقاق مع أخيه ديتريش منذ خمسة عشر عاماً . ومهما قيل عن قسوته وعناده فلم تكن تقاليده لتقبل له ان يحمل الضغينة بعد الموت . ولكنه تغيب ، وكان هذا الغياب يقوي من الهيبة العدائية التي أحاطت بشخصه دائماً وما زالت . وقد ذكره جدي بتحامل أشد ـ وبالحاح أشد أيضاً ـ من سائر أخوته . ولكنه عينه (كما عين والدي) ليقوم على تنفيذ

وصيته .

●

كان والدي لا يعرفه . وكان والتر لا يستطيع ان يتقبل أي فرد في عائلته لا يتفاد له الانقياد الواجب لمشيخة القبيلة ، فلم يكن مكروهاً إلا أنه كان محاطاً بالاحترام الذي يرتبط بشهوة السلطة عندما تمارس هذه السلطة بلا كلل على مدى أربعين عاماً . ولم ينجب ، فقرب اليه أحد أبناء عمومتي ، وتعلق به ولكن في تقشف وصرامة : قبل أن يبلغ الولد سن الثانية عشرة ، كان يحرر له كل صباح ورقات قصيرة يملأها بارشادات أشبه بالأوامر ، ويلزمه بالرد عليها قبل أوان الذهاب إلى المدرسة . في سن العشرين قرر ابن عمي ، بعد مناقشة حول احدى الفتيات ، ان يرحل . ولم يرق هذا العم والتر ، رغم توسلات زوجته ، ولم يرد على رسائله . وأصبح ابن العم الذي كان والتر يحلم بأن يجعل منه خليفته ، ملاحظ عمال . ولم يكن والتر يتحدث عنه وكان اخوته يجدون في حزنه الذي لا يخفى عليهم ما يكفي من الانسانية ليروا لزاماً عليهم ان يعجبوا بافتقاد والتر إلى كل انسانية سواها .

والحق انهم كانوا جميعاً على استعداد ، إذا تجاوزت تصرفات أخيهم ما يمكن احتماله ، ان يقولوا : « المعجزة في ألا يكون أسوأ من ذلك ، مع المرض الذي أصيب به ! » فقد كان يبدو في كل صوره واقفاً يخفي عكازيه وراء معطف طويل : كانت قدماه مشلولتين .

توالت كبد الالزاس الدسمة بعد « السلاطعين » والسمك ومعها رحيق التوت حتى أوشكت وجبة المأتم ان تنقلب مهرجاناً . ان الآلاف المؤلفة من السنين لم تكف الانسان ليتعلم النظر في الموت . كانت رائحة الصنوبر والصمغ التي تتدفق عبر النوافذ الصيفية ، ومئات الأشياء من الخشب المصقول ، تجمع في ماض واحد من الذكريات والأسرار أيام الطفولة التي قضاها الحاضرون في مزرعة العائلة وبين غاباتها . وكانوا ، كلما عادوا إلى الحديث عن جدي ، غرقوا في الاحترام الودود الذي أتاح لهم الموت أن يبدوه بلا تحفظ نحو العجوز البرجوازي الثائر الذي جاء انتحاره المستعصي على التفسير كأنما هو تتويج خفي لحياته .

كان جدي متقدماً في السن ، عندما سمحت الكنيسة في مقابل تعويض عادل ، ببعض التيسيرات في قواعد الصيام ، فثار ثورة ضارية واحتج لدى الخوري الذي كان جدي يشير عليه بخيانته لأنه عمدة رِجْناخ : ثمة أمر راسخ لا يتزعزع : في هذه المنطقة التي تغطيها كلها آثار « الغابة المقدسة » من العصور الوسطى ، لا تزال البلدة تمتلك ضياعاً عمومية واسعة . ويدخل منها في زمام رِجْناخ أربعة آلاف هكتار تأتي بمعظم موارد بلديتها . وكانت مواهب جدي المهنية فوق النزاع) . « ولكن يا سيدي العمدة ، ألا ينبغي لخوري صغير ان ينحني أمام القرارات الرومانية ؟ - سأذهب إذن إلى روما » .

وحج إلى هناك على قدميه . وكان رئيساً لجمعيات عديدة ، فسمح له بمقابلة البابا . ووجد نفسه مع قرابة العشرين من المؤمنين في احدى قاعات الفاتيكان . ولم يكن خجولاً ، ولكن البابا

كان البابا وجدي رجلاً مسيحياً : لقد ركعوا جميعاً ومر عليهم البابا فقبلوا « بابوجه » ، ودعوا بعد ذلك للانصراف .

وأعاد عبور نهر التيبر ، يتملكه سخط مقدس ، يتراقص في سورته منتهكو الحرمات من قصاد السبيل ، والظل اللامبالي على الشوارع الخالية من الأرصفة ، والأعمدة العتيقة ، ومحلات الحلوى ذات المحمل العنابي ، وهرع إلى حقائبه وكدس فيها ملابسه ، واستقل أول قطار .

عند عودته ظن أصدقاؤه البروتستانت انه على استعداد للتحول اليهم .

- لا يغير الانسان دينه في مثل سني !

ومن ذلك الوقت ، انفصل عن الكنيسة ، لكنه لم ينفصل عن المسيح ، فكان يحضر القداس كل يوم أحد خارج البناء ، واقفاً وسط الأشواك في ركن يتلاقى فيه الحاجز الخلفي بالصحن ، يتابع الصلاة بذاكرته ، مصغياً ليلتقط عبر الزجاج رنين الجرس الصغير الذي يعلن صعود المسيح . وازداد صممه شيئاً فشيئاً وخشي أن يفوته السمع فكان يقضي عشرين دقيقة راكعاً في شوك الصيف أو وحل الشتاء . ولغط خصومه حول سلامة عقله ، ولكن ليس من اليسير النيل من مثابرة لا تلين . وكان الجميع يرون في ذلك الشخص ذي اللحية البيضاء والرِّدينغوت ، الراكع في الوحل تحت مظلته ، في المكان نفسه والساعة نفسها للسبب نفسه ، طوال سنوات ، رجلاً على حق أكثر منه رجلاً مطيوراً . والألزاس تتعطف للايمان ، وكان لها حينذاك اسباب قوية لتتعطف بالمثل على

الاخلاص .

لكنه احتاج الى كل السلطة والنجاح اللذين يمنحهما مصنعه الناس ، في الغالب . تعتقد ان المغلوبين ، لا الناجحين ، يصابون بالجنون . ليتقبل الناس عواقب مغامرته الرومانسية . كان عقد الايجار بين الخالة اليهودية ومالك البيت الذي اتخذت منه الجالية معبداً ، قد انقضى أجله ، ورفض المالك ان يجدده . ولم يكن هنالك من يريد أن يؤجر . واقترح جدي على مجلس البلدية تأجير احد المباني العامة فووجه بمعارضة صريحة .

- لاحظوا يا سادة أن هذا الأمر غير عادل .

صمت حازم . وعناد التراسي لا يقل عن عناده . كان (تقريباً) معادياً للسامية . لكنه في الليلة نفسها استدعى الحاخام ووضع تحت تصرفه بالمجان جناحاً من هذا البيت الذي تعرت في سقفه عروق الخشب . وأرت جذوع الأشجار خلف بواباته الهائلة المصنوعة بحدائد من طراز أيام لويس السادس عشر ، حيث كان أعمامي ينتهون الآن من عشائهم الحيي .

وحدثت له القصة نفسها مع سيرك متجول رفض المجلس أن يمنحه الحق في نصب خيامه على أراضي ريخاخ ، فاستقبله جدي في مغلق الخشب الممتد خلف البيت .

وراح أعمامي أمام الأكواب المصلعة ورحيق التوت في هذيان أخوي يتذكرون الليلة المشهودة التي ذهبوا فيها صحبة ليفكوا الحيوانات ، وفتح ميتاس الباب السري الضخم المدهون بالزيت فخرج القيثان ، هذا على الحمار العالم ، وهذا على الحصان

المدرب ، وهذا على الجمل ، والذي فوق الفيل . ولم تكترث الحيوانات بصيحات أصحابها الجدد وانطلقت هاربة الى الغابة ، واستلزم الأمر اعلان التعبئة في القرية ليعيدوا الى العمدة أبناءه محملين بالمخالفات .

وعليها ، حبس جدي أولاده عند مرور السيرك التالي ، ومنح القادمين الضيافة نفسها .

وفي البيت الواسع الذي تكومت أشياء « شركة الهند » في مطارحه الصيفية المغلقة ، على صوت زيزان المناشر ، كانت احدى فرق السيرك قد نسيت ببغاء خضراء . ولقنها جدي - وقد يكون على سبيل السخرية - أربع كلمات : « إفعل ما عليك » . فاذا عوقب احد الاولاد ، بدت كازيمير - الببغاء - كأنها أدركت حقيقة الذنب ، حتى اذا اقترب منها الولد ، صاحت به وهي تخفق بجناحيها : « افعل ما عليك ! افعل ما عليك ! » ويرمقها الولد بنظرة من طرف عينه ويذهب ليعود بالمقدونس ، وهو سم للببغاوات . أما هذه الببغاء فكانت تأكله وتزداد سمنةً حتى انتهى بها الأمر إلى حب المقدونس .

كم من أمسيات صيف نامها هذا الفناء وقد تباطأ صوت المناشير وضاعت رائحة الخشب الساخن ، وعبر به خلسةً يهود المدهبون مثل يهود رمبرانت أو بهلوانات يربطون الدببة أو البعض من حيوان القنغر يفر هارباً بين الأكوام الشاهقة من جذوع الأشجار . ومنذ أن جاؤوا بجثمان جدي إلى هنا ، والببغاء التي ما زالت حية ، تتطاير متاقلة وقد تحررت من علاقتها ، عبر الغرف

المظلمة ، ومثل أرواح الموتى تسبح في المكان الموحش : « افعل ما عليك ! » .

لم يكن جدي قد أخطأ : فان وارث صرامته الآمرة كان هو بالفعل الغائب ، أي شقيقه والتر .

كان أعمامي ، تجاراً ورجال صناعة ، يحترمون فيه الأستاذ الكبير (ربما كان والدي وحده يبث فيهم عندئذ القدر نفسه من الاحترام) . بعدما عمل مؤرخاً فترة من الزمن لمع فيها نجمه وكان جديراً بأن يسطع لو لم يكن الزاسياً ، نظم والتر « محاورات التنبرغ » الشهيرة التي لم يدع اليها أي واحد من المحتفلين في رنجاح بمهرجانهم الجنائزي ، والتي عظمت في عيونهم هيبتها الاجتماعية . وكان منظماً عنيداً وماكراً بلا شك فجمع الاعتمادات اللازمة لشراء دير التنبرغ التاريخي على بعد كيلومترات من « سانت أوديل » . وكان يجمع فيه كل سنة عدداً من زملائه البارزين وزمرة من مثقفي كل الأقطار وأنبغ تلاميذه القدامى . ومن هذه المحاورات نشأت بعض كتابات ماكس ويبر وستيفان جورج وسوريل ودوركهايم وفرويد . وأخيراً ـ الأمر الذي لا يخلو من أهمية وتجلة عند والدي ، كان والتر في ما مضى صديقاً لنيتشه .

شخصية غريبة تلوح بين ذكرى نيتشه والنوادر المتداولة على المائدة . لقد تجرأ على ان ينظم بعد اغادير مناقشة حول « الأوطان في خدمة الفكر » ولكن كل واحد من اخوته (ومن أبناء اخوته بالأكثر) كان يذكر انه وهو طفل ـ وكان ذلك بين ١٨٥٠ ـ ١٨٦٠ والألزاس لا تزال تابعة لفرنسا ـ أجاب فضولياً يسأله عما « ينوي أن يفعله في

المستقبل » :

« ـ سأعمل في الأكاديمية الفرنسية ـ وماذا تفعل هناك ؟ ـ سيكون هناك السيد فكتور هوغو والسيد لامارتين والسيد كوفييه والسيد بلزاك . . . ـ وأنت ؟ ـ أنا ، سأكون وراء المقرأ . ـ وماذا تفعل وراء المقرأ ؟ ـ أنا ؟ سأقول لهم : أعيدوا ! » .

كان والدي يزعم ان مدينة التنبرغ ولدت من هذا الحلم القديم الذي لم يتحقق للأسف .

وفي الأسبوع التالي وصلته رسالة من والتر . لقد عاد إلى التنبرغ ليدير فيها محاورة وهو ينتظر والدي هناك .

كانت مكتبة التنبرغ رائعة . عمودها المركزي يدفع عالياً العصور الوسطى إلى الظل حيث تنوء الكتب . فلم يكن يضيء القاعة إلا مصابيح كهربائية مثبتة تحت العيون . ويأتيها الليل من طاقة زجاجية واسعة . وتتناثر هنا وهناك صور لتولستوي ونيتشه وفي احدى الخزائن رسائله للعم والتر ، وصورة لمونتانيه ووجوه مصبوبة لباسكال وبيتهوفن (سيدان من العائلة ، هذا ما خطر على بال والدي) . وفي كشك عريض كان عمي ينتظره خلف مكتب على هيئة مائدة المطبخ ، تعمد وضعه في مكان منعزل ، وأقامه فوق منصة خشبية بارتفاع درجة لتسمح له ان يطل على محدثه من عل : هكذا كان فيليب الثاني ، من خلوة شامخة البؤس ، ينظر بازدراء إلى فناء قصر الأسكوريال .

عندما توقف القطار لمح والدي والتر على الرصيف : ان لم يكن يعرفه فقد كان يعرف عكازيه . وكان منتصب القوام ، ومعه

مريدان إلى جانبه ، وينتظر إلى قدوم والدي بالسكون الغريب الذي كان يخلعه على عاهته . وقد تميزت مع الوقت ، ياقة عالية جداً ورباط عنق صغير أسود ، تحت معطف « الماكفرلان » البابروني الخفيف الذي يخفي ساقيه ، وثبتت نظارة ذهبية فوق الأنف المهشم مثل ميكل أنجلو ـ ميكل أنجلو في ختام حياة جامعية طويلة . . . وتم الترحيب في أحسن أسلوب ، ثم بعد الترحيب مباشرة :

ـ النهوض في الساعة الثامنة .

ولدهشة والدي ، سارا على الأقدام ، وتبعهما المريدان . وامتدت أشجار الصنوبر تحت السماء في خطوط مهيبة وراحت ريح الصيف الرديء تدفع أمامها بسالة داكنة من السحاب ، وتتوالى خطوات الخيل ويصدر من العربة التي تتبعهم أزيز مكتوم . وكانت كل هذه الأصوات والمناظر تتفق ومشية العكازين الصامتة وقد غلفت كعوبها بالمطاط ، وعلى بعد أربعمائة متر أمامهم وعند النقطة التي تتجه اليها خطوط الوادي الداكنة ظهر هم الدير ، في بهائه المكتل الصارم . ومد والتر برجيه ذراعه اليمنى وقد اعتمد على عكازه الأيسر وقال : « هذا هو » ثم أردف ، متواضعاً : « مستودع . مجرد مستودع » .

وأخذ يردد « مستودع . . . » محتقراً ان يتلقى اي رد . وأخيراً . ركبوا العربة .

●

كان والتر يتأمل الصور المضاءة بالكاد وصفوف الكتب

الغارقة في الظل ، وكأنه ينتظر من صومعة الفكر هذه أن تُنزل النعمة على والدي . وكان الضوء ينير وجهه من أسفل فيزيد من إظهاره كما هو : مسودّة وجه . كان قد وضع نظارته ، وبفعل الضوء الخفيض الذي يبرز النتوءات تبدي على وجهه محيا أخيه الميت . هذا هو الرجل الذي أراده جدي ، بعد خمس عشرة سنة من القطيعة ، ليقوم على تنفيذ وصيته ـ والمجلات التي تتحدث عن دور والدي في الشرق ، اشتراها جدي من أجل أن يرسلها إليه .

قال والتر : « كنت أحب ديتريش » ، كمن يمنح شرفاً ، ولكن ليس بلا عاطفة .

وكان في صوته ، كما كان في نظرته ، شيء غائب ، وكأنما هو يخشى أن تلزمه أقواله أو كأن ما يوشك أن يقوله لا يكاد يلهيه عن تأملاته . ومع ذلك كان يسأل :

ـ يلغني أنه كان قد أعد سماً ليستخدمه إذا تبين أن الفيرونال بلا فائدة ؟

ـ كان المسدس تحت الوسادة ، وصمام الأمان منزوع .

كل أسبوع ، طوال سنوات ، يقف في الساعة نفسها ، في المكان نفسه ، خارج الكنيسة . . .

أوشك والتر أن يتكلم ، ثم سكت . ثم استقرّ أخيراً على أن يقول :

ـ هل أنت في وضع يمكنك من أن تنورني ـ أقول فقط : تنورني ـ عن الأسباب التي ربما دفعت ديتريش إلى هذا . . . الحادث ؟

- لا . بل ينبغي أن أحييك : بالعكس ، ففي اليوم السابق لليلة وفاته ، تناولنا العشاء معاً ، وجرتنا الصدفة إلى الحديث عن نابوليون . وسألني بشيء من التهكم : « إذا استطعت أن تختار لك حياة ، فأية حياة تختار ؟ » وأنت ؟ أطرق بعض الوقت ثم قال فجأة بلهجة جادة : « والله ومهما حدث ، فلو كان عليّ أن أحيا مرة أخرى ، لما رغبت في حياة غير حياة ديتريش برجيه . . . » .

وكرر والتر في صوت بين بين :

- « لما رغبت في حياة غير حياة ديتريش برجيه . . . » .

« من المحتمل أن يظل الانسان متشبثاً بنفسه بعمق ، بينما هو قد انفصل عن الحياة . . . » .

وجاء من الخارج تصايح الدجاج الأبله في المساء الممطر ، ومد والتر يده نحو أبي متسائلاً :

- أليس ثمة ما يحملك على الاعتقاد انه خلال اليوم التالي وقع . . . حادث . . . ؟

- أرى انتحاره كامناً في قوله « مهما حدث » .

- ولكنك لم تتوجس شيئاً ؟ (أقول فقط : تتوجس) .

- كنت مقتنعاً بأن الذين يتحدثون عن الانتحار لا يقتلون أنفسهم .

وكان والدي يفكر في مرارة أن أباه كان أشد أهل الدنيا سروراً واعتزازاً بسويعات نجاحه .

وتمتم والتر بلهجة من يسترجع الذكرى ، والضوء الخفيض يزيد من سكون فمه :

- مع انه يحدث أن نتعرف على الموت عندما يكون قد سبق له أن ضرب مراراً .

- لم أكن قد رأيت رجلاً تعلقت به يموت .

- ولكن هذا الشرق . . . العنيف ، المضطرب . . .

- أنا قادم من آسيا الوسطى . حياة المسلمين صدفة في القدر الكوني : انهم لا يتحرون . رأيت كثيراً منهم يموتون . ولكن الذين رأيتهم يموتون لم يكونوا أصدقائي .

كانت قطرات المطر في الخارج تطقطق على شجر السياج ، وفي فترات منتظمة ، قطرة أثقل ، تسقط من بعض المواسير ، فترن . قال والتر من غير أن يرفع صوته :

- عندما كنت طفلاً ، كنت أفزع من الموت فزعاً شديداً . كل سنة قربني بعد ذلك منه زادني استهزاء به . . . « مساء الحياة يحمل مصباحه معه » هكذا قال جوبير على ما أظن .

كان والدي متأكداً من أن والتر يكذب . فقد أحس الفزع يلامسه . قال والتر :

لماذا أبدى ديتريش رغبته في أن يدفن دفنة دينية ؟ فهذا غريب - أقول فقط : غريب - ولا يتفق مع الانتحار . ولم يكن يجهل ان الكنيسة لا تقبل الجنازة الدينية للمنتحرين إلا إذا افترضت فيهم عدم المسؤولية .

كانت تبدو عليه الغيرة من التصميم الذي مات به أخوه - وكان في الوقت نفسه فخوراً .

- ولم يكن عدم المسؤولية من طباعه ، لكنه على كل حال

كان يرفض الكنيسة ، لا شعائرها .

وتردد ، ثم واصل :

- أظن ما جرى كان آلياً حقاً . أنت تعرف ان الوصية كانت مختومة . وقوله : « إن إرادتي قطعاً هي أن أدفن بطريقة دينية » ، كتب على ورقة منفصلة ، وضعت بجانب فراشه على المائدة التي وجد فيه الاستركنين . لكن هذه الجملة كانت ، في البدء : ان ارادتي قطعاً هي ألاّ أدفن بطريقة دينية ، ثم شطب أداة النفي ، بعد تحويرات عديدة . . . ولا شك انه لم يكن يقوى على أن يمزق الورقة ويكتب من جديد .

- الخوف ؟

- أو نهاية التمرد : الخشوع .

- وعلى كل حال ، ما الذي يمكن أن نعرفه ؟ إذا أردنا جوهر الأمور ، فالانسان هو ما يخبئه .

وهزّ والتر كتفيه وقارب بين يديه ، مثل الأطفال عندما يكومون الرمال .

- كومة صغيرة بائسة من الأسرار .

أجاب والدي .

- الانسان هو ما يفعل !

كان يسخطه ، بتكوين مزاجه ، ما يسميه « علم النفس سراً » كما يقول « السرقة نشلاً » . لو فرض ان انتحار جدي « كان له سبب » ، فإن هذا السبب ، وإن لم يكن أتفه الأسرار وأبعثها على الحزن ، أقصر في معناه من السم أو المسدس - ومن التصميم الذي

اختار به أن يموت ميتة تشبه حياته .

وعاود الكلام بلهجة أكثر اعتدالاً :

- في ظل السر يسهل جداً أن يتساوى الرجال .

- أجل ، أنت ما يسمونه في ما أظن وجل نضال .

- ليس النضال هو الذي جعلني أدرك أن الانسان ، إذا أردنا جوهر الأمور ، كما تقول ، هو في ما يتجاوز أسراره .

وتراءى له السرير في غرفة الموت ، قلبه رجال المستشفى الذين حضروا لحمل الجثمان ، وأعادت جان تسويته على فرع ، والتجويف الذي يشبه الأثر الذي يحدثه النائمون . كانت الكهرباء لا تزال مضاءة وكان أحداً لم يجرؤ - ولا هو نفسه - أن يطرد الموت بأن يرفع الستائر . وفي الخزانة المفتوحة كانت توجد شجرة من شجر أعياد الميلاد تكثر فيها الشموع الدقيقة . . . وعلى المائدة وضعت منفضة فيها ثلاثة أعقاب . كان جدي قد دخن اما قبل ان يتناول الفيرونال أو قبل ان ينام . وعلى طرف المنفضة ثملة تجري . تابعت سيرها في خط مستقيم وتسلقت المسدس الموضوع هناك . وعدا بوق سيارة بعيدة وحنطوراً يخب في الشارع ، لم يكن والدي يسمع غير صوت ساعة الحائط الصغيرة التي لم تتوقف بعد . يسمع ايقاعها اللامبالي . ومثله فوق البسيطة كلها ، يمتد آلياً وحياً ، نظام طوائف الحشرات ، في ما هو دون الحرية البشرية ، هذه الحرية الغامضة . كان الموت هناك ، وكان معه ضوء المصابيح الكهربائية المقلق عندما نستشف من خلف الستائر وجود النهار ، وكان هناك الأثر الذي لا تدركه العين وخلفه الذين يحملون جثمان الموتى . ومن جانب

الأحياء كان يجيء صوت البوق المستمر ، وخطى الحصان المبتعد ، وصيحات عصافير الصباح ، وأصوات بشر مكتومة ، غريبة . في هذه الساعة ، إلى كابول وإلى سمرقند تسير قوافل الحمير ، حوافرها ودقاتها ضائعة في الضجر الاسلامي .

المغامرة الانسانية ، الأرض . وكل ذلك ، مثل قدر والده الذي انقضى ، كان من الممكن أن يكون غير ما كان . . . وأحس شيئاً فشيئاً بإحساس مجهول يكتنفه ، كما اكتنفه من قبل فوق المواقع المرتفعة في ليالي آسيا ، حضور المقدس ، بينما كانت تحف من حوله وتخفق بأجنحتها الخافتة ، أطيار البوم الصغيرة في صمت وسكون . . . ومثلما اعترته ـ علماً بأن إحساسه الآن أعمق بكثير ـ الحرية المفزعة ذات أمسية في مارسيليا إذ كان ينظر إلى الظلال وهي تسيل وسط رائحة هشة من السجائر والأبسنت ـ حيث كانت أوروبا غريبة عليه ، ينظر إليها كما لو كان قد تحرر من الزمن ، فنظر إلى ساعة من الماضي البعيد تسيل بموكبها الغريب العجيب . هكذا كان الآن يشعر بأن الحياة كلها أصبحت غريبة عجيبة . وألفى نفسه فجأة وقد تحرر منها ـ غريباً عن الأرض ومندهشاً بها من حيث لا يدري ـ كما أدهشه هذا الشارع حيث كان بنو قومه ، بعدما عاود العثور عليهم ، يسيلون في العشب الأخضر .

وقام أخيراً فرفع الستائر . وراء اللوالب التقليدية في الباب الحديدي الرحيب ، كانت الأوراق يانعة الخضرة مثلما هي في مطالع الصيف ، وإلى أسفل قليلاً يبدأ النيل الداكن ويستمر إلى خطوط الصنوبر التي تكاد تكون سوداء . كان ينظر إلى التكاثر اللانهائي لهذا

المنظر المبتذل . ويستمع إلى الوشوشة الطويلة لبلدة ريخاخ وهي تصحو ، كما كان وهو طفل ينظر في أبراج السماء إلى الأصغر فالأصغر من النجوم حتى ترهق عيناه . ومن الناس الذين يمرون هناك ، مسرعين في شمس الصباح متشابهين ومختلفين مثل أوراق الشجر ، بدا له كأن سراً يتبثق ، سراً لا يصدر فقط من الموت الذي ما زال متربصاً في ظهره ، سراً أقل انتماء إلى الموت منه إلى الحياة ، سراً لم يكن ليكون أقل روعة في النفس لو ان الانسان كان خالداً .

قال والتر :

ـ لقد عرفت . . . هذا الاحساس . ويبدو لي أحياناً انه سيعاودني عندما أصبح عجوزاً .

كان والدي ينظر إلى هذا الرجل في الخامسة والسبعين من عمره يقول : « عندما أصبح عجوزاً . . . » . وثبت والتر نظرته في عيني والدي ورفع يده :

ـ بلغني أنك في الماضي خصصت بعض محاضراتك الدراسية لصديقي فريدريك نيتشه ، لدى هؤلاء . . . الأتراك . كنت في تورينو ـ في تورينو ، صدفة . . . ـ عندما علمت انه أصيب هناك بالجنون . ولم أكن رأيته ، فقد وصلت لتوي . وأخطر « أوفريك » ، فسقط ، إذا أمكن القول ، من « بازل » إلى منزلي : كان عليه أن يصطحب المسكين على وجه السرعة ، وهو لا يملك المال اللازم لشراء التذاكر . مثلما يحدث دائماً ! أنت . . . تعرف وجه نيتشه . (أشار والتر إلى الصورة خلفه) ولكن الصور الفوتوغرافية لا تنقل نظرته : كانت ذات رقة أنثوية ، رغم

شوارب . . . اليعبع . هذه النظرة لم يكن لها وجود عندئذ . . .

كان رأسه لا يزال بلا حراك ، وصوته لا يزال ينسحب إلى الوراء ـ كأنه لا يخاطب والدي بل الكتب والصور الشهية المعلقة في الظل ، وكأنما ليس هناك من هو جدير تماماً بأن يحدثه فيفهم ، أو بالأحرى كأن الذين يمكن أن يحدثهم فيفهموا ينتمون جميعاً إلى زمن آخر ، وكأنما ليس هناك اليوم من يرضى ان يفهمه . كانما لا يتكلم إلا بدافع من التهذيب والسأم والواجب . كان في موقفه كله ، ذلك التواضع المتكبر الذي يعبر عنه مكتبه الصغير المرتفع أكثر من اللازم .

ـ عندما صاح أوفريك ، وهو مضطرب : « فريدريك ! » عانقه المسكين ثم سأله بعد ذلك توا ، بصوت شارد : « هل سمعتهم يتحدثون عن فريدريك تيتشه ؟ » وأشار إليه أوفريك مرتبكاً ، قال : « انا ؟ لا ، أنا غبي . . . » .

وكانت يد والتر لا تزال مرفوعة ، تقلد اشارة أوفريك . كان والدي يحب نيتشه أكثر من أي كاتب آخر ، لا لمدعوة التي يشير بها ، ولكن لما يجده فيه من سخاء في الذكاء لا نظير له . وهكذا راح يصغي إلى والتر ، على مضض .

ـ ثم تحدث فريدريك عن الاحتفالات المشهودة المعدة له . يا للحسرة ! . . . لقد أخذناه معنا . ولحسن الحظ كنا قد التقينا بصديق لأوفريك ، طبيب أسنان اعتاد معاملة المجانين . . . ولم يكن تحت يدي كثير من المال ، فاضطررنا إلى أن نركب في الدرجة الثالثة . ومن تورينو إلى باريز سفر طويل . والقطار مدروز بالفقراء

وبالعمال الايطاليين . ولم يخف عنا أصحاب الغرفة التي استأجرها فريدريك أنه عرضة لنوبات اهياج . وأخيراً عشرنا على ثلاثة أماكن . وظللت واقفاً في الممر . وجلس أوفريك عن يسار فريدريك ، وميشير طبيب الاسنان عن يمينه . وجلست بقربهم فلاحة ، كانت تشبه أوفريك ، لها مثله وجه جدة ، وفي سلتها دجاجة تطل برأسها دون انقطاع ، والمرأة تعيدها . شيء تفلت منه الأعصاب ، أقول ـ تفلت الأعصاب . فيا بالك برجل . . . مريض ! كنت أتوقع حادثة مؤسفة .

« وخاض القطار في نفق سان جوتار وكان قد تم انشاؤه حديثاً . وكان عبوره عندئذ يستغرق خمساً وثلاثين دقيقة ـ خمساً وثلاثين دقيقة ـ وكانت عربات الدرجة الثالثة بلا اضاءة . وبرغم ضجيج حديد القطار كنت أسمع ضربات منقار الدجاج على عيدان السلة ، وأترقب . ما العمل إذا ووجهنا بأزمة تقع في هذا الظلام ؟ » .

فيما عدا الشفتين الرقيقتين تتحركان بالكاد ، ظل وجهه كله ساكناً في الضوء المسرحي المحيط به ، ولكن تحت صوته الذي توقعه القطرات المتساقطة من السطوح ، كان يزدحم كل ما يكمن في بعض الأحزان من ثأر ونقمة .

ـ وفجأة ـ أنت . . . لا يغيب عنك ان كثيراً من نصوص فريدريك كانت لا تزال مجهولة ـ ارتفع صوت في سواد الظلام ، فوق جلبة عجلات القطار . كان فريدريك يغني ـ بنطق سليم وهو الذي كان يتهته في حديثه ـ كان يغني قصيدة لا نعرفها ، وكانت

قصيدته الأخيرة : « البندقية » . أنا لا أحب موسيقى فريدريك . فهي شيء أقل من عادي . ولكن هذا الغناء كان . . . يا الهي ! رائعاً !

« وانتهى من غنائه قبل ان نغادر النفق بوقت غير قصير . وخرجنا من الظلام فاذا بكل شيء مثلما كان من قبل . مثلما كان من قبل . . . كل ذلك قد حدث . . . اتفاقاً . . . أما فريدريك فكان أكثر اقلاقاً من جثة . هذه هي الحياة أقول فقط : الحياة . . . كان ثمة حدث فريد في غاية الغرابة : كان الغناء يمثل قوة الحياة . لقد اكتشفت شيئاً . شيئاً مهماً . ففي السجن الذي يتحدث عنه باسكال ، توصل البشر إلى ان يستخلصوا من أنفسهم اجابة تفعم بالخلود الطاغي ، إذا أمكن القول ، كل الذين يستأهلون الخلود . وفي هذا القطار . . . »

للمرة الأولى اتسعت اشارته بعض الشيء ، وقد أتاها لا بيده ولكن بقبضته ، كمن يمسح بالاسفنجة لوحاً أسود .

ـ وفي هذا القطار ، وفي بعض الأحيان بعد ذلك ، أقول فقط : في بعض الأحيان . . . بدا لي كأن السماء ذات النجوم يمحوها الانسان بقدر ما تمحو مصائرنا المسكينة السماء ذات النجوم .

كان قد توقف عن النظر إلى والدي الذي اضطرب لبلاغته المفاجئة ، الساهية في ما يبدو ، خاصة وان البلاغة شيء لم يعهد في أسرتنا . ولكن والتركان قد استعاد لهجة الازدراء الغريبة التي يبدو أنها تتجه من وراء أبي ، إلى شخص غير مرئي يخاطبه :

ـ العشاق الذين نالوا المرام ـ يقال : نالوا المرام ، في ما

أظن ؟ ـ يعارضون الموت بالحب . لم أختبر ذلك . لكني أعلم أن هناك أعمالاً تصمد للدوار المتولد من التأمل في موتانا وفي السماء ذات النجوم وفي التاريخ . ويوجد هنا بعض منها . كلا ، ليست هذه التحف القوطية . أنت . . . تعرف رأس الرجل الشاب في متحف الأكروبول ؟ أول نحت مثل وجهاً بشرياً ، فقط وجهاً بشرياً ، متحرراً من الغيلان . . والموت . . . والآلهة . ان الانسان في هذا اليوم أيضاً ، قد استخلص الانسان من الصلصال . وهذه الصورة الفوتوغرافية ، خلفك ، حدث لي أن تأملتها ، بعدما نظرت طويلاً في المجهر . . . ان لغز المادة لا يطولها .

كان صرير المطر يأتي من الخارج في ضآلته واتساعه ، وهو يرق شيئاً فشيئاً فوق الشجر ، شبيهاً بصوت الورق المحروق الذي يقاوم الانكماش . وكانت القطرة الثقيلة لا تزال تتجمع وترن وهي تسقط بانتظام في بركة من المياه . وأصبح صوت والتر أشد نأياً :

ـ ليس اللغز الأكبر اننا قد ألقي بنا صدفة بين غمرة المادة ولجة الأفلاك . بل اننا في هذا السجن نستخلص من أنفسنا صوراً هي من القوة بحيث تنكر عدمنا . وليس فقط صوراً . ولكننا نستخلص أيضاً . . .

من بعض الطاقات كان ينفذ شذا الأشجار التي تقطر بالماء في ليلة لا تزال دافئة ، يصاحبه أزيز سكون الغابات ، ويختلط برائحة الغبار الصادرة من مجلدات المكتبة الغارقة في الظلام . وفي ذهن والدي يختلط غناء نيتشه ، مع عجوز ريخباخ الذي ينتظر الموت في غرفته ذات الستائر المسدلة ، وعشاء المأتم ـ والطرقات المعدنية من

قبضات النعش المحمول على ظهور الرجال

هذا الامتياز الذي تحدث عنه والتر ، يستطيع ضد السماء ما لا يستطيعه ضد الألم ! ربما تغلب على وجه ميت ، لو لم يكن هذا الوجه وجهاً حبيباً . ما الانسان عند والتر ، سوى « كومة بائسة من الأسرار » ، جعل لتغذية هذه الأعمال التي كانت تحيط إلى أعماق الطفل ووجهه الساكن بلا حراك . أما عند والدي ، فقد كانت السماء ذات النجوم كلها ، أسيرة الاحساس الذي دفع برجل ، تسكنه رغبة الموت ، إلى ان يقول في ختام حياة كثيراً ما كانت اليمة : « لو كان عليّ ان أختار حياة أخرى ، لاخترت حياتي » .

كان والتر ينقر بأصابعه فوق الكتاب الذي اعتمدت عليه يداه . وأين يسترجع الوجه الذي لم يبق فيه من سمات الانتحار غير الصفاء المروع وامحاء التجاعيد ونضارة الموت الفادحة . وراح يتطلع أمامه إلى الوجه الشبيه ، وطبقات الظل الناتئة ، والعيون الزجاجية الساكنة ، وعلى المائدة ، في الضوء الساطع ، يدا والتر المرتجفتان ، يدان كيديه ولكنهما أقوى : يدا حطاب من آل برجيه في ريخباخ ، رماديتا الشعر والأوتار .

كان على والدي ان يحضر ، إما بواجب التهذيب ، أو بدافع الفضول ، احدى المحاورات في ساعات العصر ، فلا يعود إلا في المساء . وفي الصباح أجابه بعض أبناء عمومته ، وكان قيماً على شؤون والتر المنزلية ، صاحب كرش خفيف ، يتواثب في طرقات

الدير مثل الكرة المرحة ، أجاب عندما دفع حب الاستطلاع بوالدي إلى السؤال عن علاقات عمه بنيتشه : « اعتقد ان والتر كان يلعب ، لا بالقرب من نيتشه تماماً ، ولكن في هذا الوسط ، دور الثقلاء النافعين ، فهو على جانب من الثراء يستطيع ان يتوسط من أجل وظيفة أو معاش . . . وهو رجل بخيل وكريم معاً (وليس فريداً في ذلك ») .

« يفخر بأنه قد أعاده إلى بازل . ولكن في هذه الحالات يمكن أيضاً أن يعدك البواب . . . أما الرسائل التي تسلمها من نيتشه ، وهي اخر مكتبته ، ولن يطلعك عليها أبداً ، فهي يا عزيزي الطيب ، تكلل له السباب » .

عندما بدأت المحاورة ، تنبه والدي إلى أي مدى كان قد أنس ان المثقفين جنس بذاته ، لأن تفكيرهم يبحث عن الأشياء لا عن التجربة ، ولأنهم يرجعون في أسانيدهم إلى المكتبة أكثر من رجوعهم إلى الخبرة ، ولكن المكتبة على كل حال أعظم نبلاً وأقل ثرثرة من الحياة . وكان مقدراً للمحاورة ان تستمر ستة أيام وموضوعها دوام الانسان عبر الحضارات ، وكانت المناقشة عبثاً لاطائل تحته مثل كل المناقشات الفكرية ، تتوالى فيها الخطب الفردية فلا يعلق منها بذهن والدي إلا اشذرات خاطفة . ووقف رجل قصير ذو لحية مرتبكاً بشعره الأبيض الكث مثل مخلب قطة في لفة من الصوف ،

ليقول : « لاحظوا ان الروايات الثلاث الكبرى التي صورت فتح العالم من جديد ، انما كتب أولاها عبد سابق هو سير فانتيس ، والثانية سجين سابق في الأشغال الشاقة هو دستويفسكي ، والثالثة محكوم عليه بالشنق سابقاً هو دانييل ديفو » . إلا ان مداخلة البروفسور مولبرغ قد استحوذت على اهتمامه حقاً .

وبرغم لقبه كان مولبرغ قد انقطع منذ وقت طويل عن تدريس الانثولوجيا . وكان عائداً من بعثة استغرقت ثلاث سنوات إلى افريقيا ، في جنوب شرق افريقيا الألماني وفي أراضي «الغرامنت» التي يشرف عليها الأتراك . وقد سنحت لوالدي فرصة تسهيل مهمته ، ولكنه لم يكن قد التقاه قط . جمجمة محدبة وعينان مائلتان واذنان حادتان : كان يشبه الخفاش ، مصاص الدماء في الأدب الرومانسي الألماني ، وكأنما هبط من مملكة الأساطير في زي جديد . وقد أثار التشويق والاهتمام عندما قام بتلخيص بعض أعماله الخاصة بمجتمعات ما قبل التاريخ .

« فوق الكهنة الحاكمين ، كان الملك . يتصاعد سلطانه مع القمر : يختفي عن الأنظار في أول الأمر ، ثم يلوح عندما يهل الهلال يمنح الرتب الطفيفة . . . وأخيراً يكتمل بدر التمام فيجعل منه الملك الحق سيد الحياة والموت . عندئذ يصبغ بالذهان أو يطلي بالذهب (ويبدو في أغلب الظن مثل الملوك السابقين لاكتشاف كولومبس) ويتزين بالكنوز الملكية ويضطجع على سرير مرتفع فيتسلم الغسل المقدس وبركات الكهنة . ويتولى القضاء ويأمر بتوزيع الغذاء على الشعب ويتوجه الى الكواكب بالصلاة الرسمية

للمملكة . كل شيء تمام !

« ويأخذ القمر في النقصان ، فينزوي الملك في قصره . وعندما تأتي الليالي المظلمة بلا قمر ، لا يحق لأحد أن يكلمه . ويصبح اسمه محرماً في أرجاء المملكة كلها . يلغى ! ويمنع من رؤية النهار . محتجباً في الظلام ، حتى عن الملكة ، يفقد الامتيازات الملكية . لا يصدر الأوامر . لا يقبل الهدايا ولا يرسل شيئاً منها . لم يبق له من صفاته غير هذا الاعتكاف المقدس . وفي الشعب كله ، كان الحصاد والزواج والولادة مرتبطة جميعاً بهذه الأحداث » .

« والأطفال الذين يولدون في أيام غياب القمر يقتلون عند ميلادهم » .

ورفع اصبعاً جافة ، وحادة مثل أذنيه .

« ويتم الاحتفال بزفاف الملك والملكة ـ وهي دائماً أخته ـ فوق برج من الأبراج . وكانت العلاقات الجنسية بين الملك ونسائه الأخريات مرتبطة بحركة الفلك . فمثلما كانت حياة الملك مرتبطة بالقمر ، كانت حياة الملكة الأولى مرتبطة بالزهرة، كوكب الزهرة طبعاً ـ !

« والآن ، انتباه ! عندما تنقلب الزهرة من نجمة مسائية إلى نجمة صباحية يكون الفلكيون كلهم بالمرصاد . فاذا صادف أوان انقلابها خسوف القمر ، اقتيد الملك والملكة إلى مغارة في الجبل .

« وهناك يتم خنقهما .

« وهما لا يجهلان ما يراد بهما ، مثلما لا يجهل الطبيب المصاب بالسرطان مآل اصابته : مرتبطان بالسماء مثلما نحن مرتبطون

بغيروساتا . ويتبعه في الموت أكابر القوم كلهم تقريباً . يموتون بموت الملك مثلما تموت بحلطه في القلب .

ويعامل جثمان الملك بأسمى آيات الحنان ، إلى أن يبعث مع الهلال في هيئة ملك جديد .

ويعود كل شيء « دورته » .

« هكذا . . . » .

كان يبدو في هذه القاعة المثقلة بالكتب حتى قبابها ، وكأن افريقيا تفكر بصوت مرتفع .

« وذلك كله يمس الأزمنة التاريخية : أنتم تعرفون أن تمثالاً للملك كان يخنق على رؤوس الأشهاد بالميدان الكبير في بابل عند ميلاد السنة ، وفي هذه الأثناء كان الملك الحقيقي ، القادر على كل شيء ، يجرد من ثيابه ويهان ويضرب في ركن مظلم من قصره .

« لا تفكير في ان يتشبه هذا الملك باله من الآلهة أو ببطل من الأبطال . هو الملك كما ان ملكة النمل الأبيض هي الملكة . هذه الحضارة تحيا في قدرية مطلقة . لا يقتلون الملك تضحية لقمر اله : فانه هو ذاته وهو القمر في الوقت نفسه . كما ان الرجال الفهود في السودان هم أنفسهم الفهود ـ وعلى وجه التقريب وبكل بساطة ، كما ان الأطفال هم الأطفال ودارتانيان .

« نحن في مجال كوني ، في المجال السابق للأديان . وربما لم يتصوروا بعد فكرة خلق العالم . القتل يتم على صعيد الأبدية الآلهة لم تولد بعد » .

وبعدما قام بتحليل لـ « هياكل العقلية الكبرى » التي تتألف

من تتابعها ، في نظره ، مغامرة البشرية ، خلص إلى النتيجة الآتية : « سواء تعلق الأمر بالارتباط الكوني في هذه المجتمعات أو بالله في الحضارات ، فان كل هيكل عقلي يختص بصفة المطلق الذي لا يمكن الطعن فيه ، بديهية فريدة ترسم للحياة نظامها ولا يمكن للانسان من دونها ان يفكر ولا أن يعمل . (بديهية لا تكفل للانسان بالضرورة حياة أفضل ، بل قد تسهم في القضاء عليه ، بكل تأكيد !) . وهي للانسان مثل الحوض للسمكة التي تسبح فيه . لا تصدر عن الذهن . ولا صلة لها بتاتاً بالبحث عن الحقيقة . هي التي تأسر الانسان وتتملكه ، أما هو فلا يتملكها كاملة أبداً . ولكن ربما صارت الهياكل العقلية الى اختفاء بلا رجعة مثل البليزيوصور ، ربما كانت الحضارات لا تفيد شيئاً إلا في ان تتتابع لتلقي بالانسان في برميل الدنائيد ، ولعل المغامرة الانسانية لا يستقيم لها البقاء إلا في مقابل تحول لا يعرف الهدوء ، ولا يهم اذن في كثير أو قليل ان يتناقل البشر لبضعة قرون مفاهيمهم وحرفياتهم : فالانسان صدفة ، والعالم ، في الجوهر ، صُنع من النسيان » .

وهز كتفيه وردد مثل الصدى :

« من النسيان . . . » .

« الانسان الأساسي حلم مثقفين يختص بالفلاح : حاولوا ولو قليلاً أن تحلموا بالعامل الأساسي ! هل تريدون ، للفلاح ، ألا يكون العالم مصنوعاً من النسيان ؟ الذين لم يتعلموا شيئاً لا يملكون شيئاً لينسوه . الفلاح الحكيم ، أنا أعرف من هو : ليس هو بالتأكيد الانسان الأساسي . لا يوجد انسان أساسي يزاد ، وفقاً للعصور ،

بما يفكر وما يعتقد : يوجد الانسان الذي يفكر ويعتقد ، أو لا يوجد شيء . انتبهوا ! » .

وأشار ، على الجدار الرئيسي حيث كان في الماضي صليب ولا شك ، إلى نقش لمقدمة سفينة ، ثم تلميعه بعناية ، صورة عمود أطلسي فيه ما في التماثيل البحرية من أسلوب عريض الانساع قليل البراعة ، ومن فوقه قديسان قوطيان نحتا من الخشب الداكن نفسه .

هذان التمثالان القوطيان وهذا النقش لمقدمة السفينة ، قد صنعت كما تعلمون من الخشب نفسه . ولكن تحت هذه الأشكال لا توجد شجرة الجوز الأساسية انما قطع من الحطب .

« خارج الفكر ، لديكم تارة كلب وطوراً نمر ، أو أسد إذا أردتم : بهيمة دائماً . ليس بين البشر أمر مشترك إلا ان يناموا عندما ينامون بلا أحلام ـ والا أن يموتوا . ماذا يهم دوام العدم ، اذا كانت مثابرة أفضل الناس لا تنال إلا أقرب الأشياء إلى الزوال ؟

قال والتر :

ان هذه المثابرة على الأقل باقية يا عزيزي البروفسور . ثمة شيء من خلود يبقى في الانسان . ـ في الانسان الذي يفكر . . . شيء أسميه نصيبه الالهي : هو استعداده لأن يجعل الدنيا موضع سؤال .

ـ سيزيف أيضاً خالد ! » .

وبعدما انتهى الحديث ، سأل بعضهم مولبرغ ، في اليوم الشاسع ، عن موعد ظهور مخطوطه :

ـ لن يظهر أبدا . في النهاية كان كتابي معركة مع افريقيا . تماماً ! ان أوراق المخطوط تتدلى على مختلف أنواع الشجر بين زنجبار والصحراء الكبرى . فكما هي العادة ، يحمل المنتصر أسلاب المنهزم .

ومضى والدي عبر الحقول . وكانت تمتد وراء الدير بين كتلتين من الغابات ترقشها نجوم الشيكوريا البرية بزرقة هي زرقة السماء في هذه الأمسية ـ سماء أصبحت الآن شفافة مثلها فوق المرتفعات العالية وانحرفت اليها غيوم عارضة . وكل ما يصعد من الأرض يخلد إلى السكون المشع ويسبح في ذرات بدايات الأصيل . والأوراق ما زالت تبرق في الهواء المرتعش يرف بآخر التيارات الرطبة المتولدة من الأعشاب والعوسج . وحلم والدي بأنه لو كان في كابول أو في قونية لما دار الحديث إلا عن الله . . . كم من مرة حلم ، وهو في أفغانستان ، بما يريد ان يلقاه أولاً : رائحة دخان القطارات والاسفلت تحت الشمس والمقاهي في الليل ، والسماء الغائمة فوق المداخن ، وأحواض الاستحمام ! كان يهبط من البامير والاپل الضالة تنادي من خلال الغمام ، أو كان يعود من رمال الجنوب وصراصير الغيط أضخم من سرطان البحر تنصب في القتاد عند مرور القوافل قرون استشعارها على مثل خوذات الفرسان ، فيبلغ الى مدينة بلون العظام البالية . وتحت باب من الصلصال تنشز منه عروق الخشب ، خيالة في أسمالهم يحلمون . وقد مدوا السيقان على ركائب السروج ، وعند اقدام المساكن المحتجبة مثل النساء تلمح جمجمة حصان وسفا اسمال شفافة ، في رمال الشوارع الخالية من

النوافذ . لا ورقة في الخارج ، ولا أثاث في الداخل : الجدران والسماء والله . وبعد شهور امضاها في آسيا الوسطى ، على جبب الخيول الأفغانية بلا انتهاء ، كان يحلم بأسيجة مزركشة بالاعلانات أو بمتاحف لا ينضب معينها ، تغطيها الصور حتى السقف . مثل حوانيت تجار اللوحات كما جاءت في الرسوم الهولاندية . ولكنه عندما التقى بمارسيليا من جديد ، في غبار أزرق مثل الغبار الذي يتصاعد في هذا المساء من نهر الرين ، اكتشف أن أوروبا ، انما هي واجهات محلات .

بعض هذه الواجهات كان مألوفاً له : الصيدليات والتحف البرونزية ومحلات الجزارة والبقالة والفكهانية والخضرية (ولكن ما أشد حمرة اللحوم وما أصغر ثمار الخوخ وما أشحب لونها !) وأدهشته ، لبضع دقائق ، واجهات أخرى : واجهات مطبب الأرجل والساعاتية والمجبراتية والأزهار والمشدات ، وواجهة حلاق عليها اعلان لم يره من قبل : « دوايات من الشعر المستعار » - وواجهة أكاليل للعزاء . . . والنساء يتطلعن في مرآة كبيرة وهن عابرات . لديه الآن من الوقت ما يكفي ليتفحصهن : فاجأه تخلع مشيتهن وتبرج الفساتين الملتصقة التي لم يكن قد شاهدها في أوروبا من قبل والتي كان الاسلام يجهلها . يذكرهن بأكمام الكلوش المكشكشة ، واذا بهن الآن يلبسن التوكة أو القبعة الكبيرة وأقدامهن المقيدة تنقل خطواتها مثل أرجل الصينيات المشوهة ، بين الأحذية من ذوات الرقبة وما أكثر هذه الأحذية ! تحت باطيل بمربعات صغيرة وقبعات من القش والخوص . ولا توجد مسلمة تلبس

قبعة . وكان اعتياد هؤلاء النسوة بأزيائهن الكرنفالية ، يضفي على كل وجه يلمحه ، الاعتداد الشارد الذي تتميز به وجوه المجانين . أوروبا وجدت في غياب الحجاب الاسلامي ، ظهور الوجوه وطهارة مؤلمة . لم يكن العري هو الذي رسم هذه الوجوه ، بل العمل والقلق والضحك - اي الحياة ، ورسمتها سافرات

الآن الموضة في ستة أعوام قد غيرت الأزياء ، أم بسبب لهفة صماء تجيش تحت التكاسل في المساء ، وقف والدي أمام الجمع الأليف له فيما مضى ، يخلط رؤيته من حوله ، مساء « الميناء القديم » بما فيه من عصيان ومانيكانات ذات شوارب ورقصات تانجو وسفن حربية في البعيد ، فبدا له كأنه لا يدخل إلى أوروبا فحسب ، ولكنه يدخل أيضاً في الزمن . ملقى على بعض شطآن العدم أو الخلود ، كان يتأمل سيلها المدلهم - منفصلاً عنه مثل انفصاله عن الذين عبروا ومضوا بهمومهم المنسية وحكاياتهم الضائعة في شوارع بابل أيام أسرها الأولى ، في الواحات التي تشرف عليها أبراج السكون . ومن خلال الموسيقى ورائحة الخبز الساخن ، تحت ربات البيوت الخطى ، والشبكة تحت أذرعهن ، وبنت بائع الألوان الواح كتشكه التي تباطأ فيها شعاع اخير ، وكان صفارة الباخرة تتأى على مستخدم يعتمر الطاقية ، وهو يحمل المانيكان على ظهره ليعود به إلى داخل حانوت ضيق يغص بالظلال - فوق الثرى ، في أواخر الألف الثانية من التاريخ الميلادي . . .

الشمس تغرب فوق الألزاس ، وتشعل ثمار التفاح في أشجاره . لكم تبع السؤال السؤال ، تثيره الحماسة نفسها ، تحت

قباب هذا الدير . والفكر الذي راح سدى كالبساتين التي تبعث من جديد ولا ينضب معين البعث فيها ، يضيئها دائماً القلق نفسه وكأنه الشمس نفسها ! فكر الماضي وافريقيا وآسيا ، فكر هذا اليوم من أيام الصيف الممطر المشمس وكأنه صدفة في الأيام دخيل عليها ، ـ مثل الجنس الأبيض في ليل مارسيليا ، مثل جنس البشر وراء نافذة الغرفة الجنائزية ، لغز الحياة المضطرب المبتذل في مضاءة الفجر القلقة .

كان قد بلغ الى الأشجار الكبيرة : الصنوبر الذي اكتنفه الليل وما زالت تلمع في طرف كل ابرة منه قطرة شفافة ؛ والزيزفون يضج بالعصافير . وأجمل هذه الأشجار جوزتان ، فتذكر تماثيل المكتبة .

ان امتلاء الأشجار العريقة ينبعث من ضخامتها . أما الجهد الذي تخرج به الفروع الملتوية من جذوعها الضخمة ، وأما ازدهار الخشب الذي اينعت فيه الأوراق الداكنة وهو العجوز الثقيل كأنه يغوص في الأرض ولا ينتزع نفسه منها ، فقد كانا يفرضان على الذهن في الوقت نفسه فكرة ارادة تعمل وفكرة تحول الى ما لا نهاية . والتلال بين الجوزتين تنحدر إلى نهر الرين ، ويحيطان بكاتدرائية ستراسبورغ الناتئة في الغسق البهيج ، مثلما تحيط جذوع أخرى كثيرة بكاتدرائيات أخرى في حقول الغرب . وهذا البرج المنتصب في صلاته المبتورة ، وصبر الانسان ودأبه في العمل ، التي انتشرت افواجاً من الكروم حتى النهر ، ليس إلا زخرفاً مسائياً من حول نماء الخشب الحي على امتداد القرون ، حول كل من هاتين الجوزتين

كأنها دفقة انبثقت كثيفة مقتولة تنتزع قوى الأرض لتبذلها شعاباً . والشمس دانية تمد ظلها الى الجانب الآخر من الوادي ، مثل شعاعين غليظين . وكان والدي يفكر في التماثيل وفي نقش السفينة ؛ ويرى الى الخشب المتشنج في هاتين الشجرتين كيف كان ، بدلاً من أن يحمل عبء العالم مثل الاله اطلس ومثل القديسين ، يزهر في حياة خالدة ، في أوراقها اللامعة على السماء وثمارهما التي توشك ان تنضج ، وفي كتلتها المهيبة القائمة فوق حلقة واسعة من أصول النبت الجديدة وثمار الشتاء المينة . « الحضارات أو الحيوان . مثل التماثيل أو عيدان الحطب » . بين التماثيل وعيدان الحطب ، كانت هناك الأشجار وتصميمها الغامض مثل تصميم الحياة . يتوه فيها الذهن وتتوه صورة أطلس والقديسين تجتاح وجهيهما حرارة الايمان القوطية ، ويضيع بالمثل كل ما سمعه والدي منذ حين ـ تواروا جميعاً ودفنوا في ظل هذا التمثال السمح الذي راحت قوى الأرض تنحته لنفسها وراحت الشمس على سفح التلال تمده فوق هموم البشر حتى الأفق .

كانت قد انقضت أربعون عاماً لم تعرف فيها أوروبا الحرب .

٢

١٩٣٤ / ١٩٥٠ / ١٩٦٥

هنا ، لا أتوقع أن أعثر إلا على الفن ، والموت .

من النادر ان تقدم لنا المذكرات اللقاء بين المؤلف والآراء التي ستجتاح أو تقود حياته . يشرح لنا اندريه جيد كيف اكتشف أنه لوطي . ولكن كاتب سيرته هو الذي يحاول أن يشرح لنا كيف اكتشف انه فنان . وفي ذهني ـ في ذهن معظم المثقفين ـ ان هناك آراء ، لقاؤنا بها محسوس موجود مثل وجود الكائنات . واستخدم كلمة لقاء عمداً لأن التفكير سيتم في ما بعد وسينمو في ما بعد . على اننا نستشعر في الحال خصوبة هذه الآراء التي كانت تدعى في الماضي الهاماً . التقيت في مصر بالآراء التي ظلت سنوات تحكم وتوجه تفكيري في الفن .

ولد أولها من أبي الهول . ولم يكن قد تخلص من الرمال . ولم يكن مطموراً مثله في العام ١٩٣٤ . لكنه لا يزال يتحدث بلغة الأطلال التي أخذت تستحيل مواقع أثرية . عام ١٩٥٥ ، كتبت وأنا

« ان التحلل ، وقد دفع بملاعمه إلى حدود التشويه ، أضفى عليها هيئة احجار الشيطان والجبال المقدسة ، وانهدال التسريحة يحيط من الجانبين ، مثل جناحي الخوذات البربرية بالوجه الرحيب

المبري يطلسه أيضاً اقتراب الليل . هي الساعة التي تحيي فيها أقدم الأشكال المحكومة الموضع الذي كانت الآلهة تتحدث فيه ، وتطرد الشموع الشائه ، وتنظم المجرات التي يبدو انها لا تخرج من الليل إلا لتنجذب دواراً حولها .

« ما هو اذن الشيء المشترك بين المناولة التي ملأ بها غسق العصور الوسطى أبهاء الكنائس ، والختم الذي وسمت به المجاميع المصرية اتساع البراح : بين كل الأشكال التي التقطت نصيبها مما لا يدرك ولا يُطال ؟ الواقع ، ان الواقع ، بالنسبة اليها جميعاً ، وفي درجات متفاوتة ، هو المظهر وهناك شيء آخر موجود ليس مظهراً ، ولا يدعي دائماً الله . والتآلف بين ضلال الانسان الأبدي وما يحكمه أو يجهله ، يمنح هذه الأشكال قوتها وتبرتها : تسريحة أبي الهول الناتئة تتآلف مع الأهرام ، ولكن هذه الأشكال العملاقة تصعد معاً من الغرفة الجنائزية الصغيرة التي تغطيها ، ومن الجثمان المحنط الذي كان من مهمتها أن توحده بالأبد » .

عندئذ ميزت بين لغتين كنت أسمعهما معاً منذ ثلاثين سنة . لغة المظهر ، لغة جموع كانت بلا شك تشبه تلك التي أشاهدها في القاهرة : لغة الزائل ، ولغة « الحقيقة » ، لغة الخالد والمقدس . ان مصر بلا شك قد اكتشفت المجهول في الانسان كما يكتشفه الفلاحون الهندوس ، ولكن رمز خلودها ليس منافساً لشيفا الذي يعاود ، على رأس آخر أعدائه وجثمانه المسحوق ، رقصته الكونية بين الأفلاك . انه أبو الهول . وهو حيوان خرافي ، تزيد من خرافيته التشويهات التي جعلت منه رأس ميت ضخماً . ولكني اكتشفت ان

هذه حقيقة أيضاً في الكاتدرائيات وفي مغارات الهند والصين ، وان الفن لا يتبع عرض الشعوب الزائل ، منازلهم ومتاعهم ، ولكن الحقيقة التي أبدعوها تباعاً . لا يتبع القبر ولكن يتبع الأبدي الخالد . كل فن مقدس يعارض الموت ، لأنه لا يزخرف حضارته انما يعبّر عنها وفقاً لقيمه العليا . لم أكن اسمع عندئذ في كلمة مقدس ، رنيناً جنائزياً . وكان الانتصار الاغريقي يبدى لي مثل أبي هول صباحي . لا تبقى ولا تدوم إلا واقعيات ما وراء الدنيا ، وقد اكتشفت انه ، إذا أخذنا الفنون جملة ، فحتى الفن الحديث حيوان أسطوري . ورحت أكتشف هذا ، طوال عشر سنين .

في ذلك الوقت كان أبو الهول يشرف من عل ، على القرية والمعبد الصغير . وكانت أقدامه لا تزال مختفية في الأرض مما يضفي عليه روح الجبال المنحوتة . ولكن الأطلال الحقيقية التي كانت تصل وتوحد بين المعابد المقوضة وسجون « البيرانيز » المهجورة ، التي تسند مشانقها فوانيس شاهقة ، هذه الأطلال تتحول شيئاً فشيئاً إلى مواقع أثرية . لن نشاهد أبا الهول مدفوناً ، يجثم بعض الجنود فوق أذنيه ، مثل جنود بونابرت أو نلسون ؛ ولا أثينا « التي لم تعد ، يا للأسف ! إلا قرية البانية ! » ولن نرى لأمد طويل تماثيل أبي الهول الغائصة حتى أعناقها في الصحراء النوبية ، ولا التي نهشتها الريح الرملية حتى أضحت رؤوسها أشبه بجذوع أقدم أشجار الزيتون . . .

●

أصبح من الممكن اليوم الوصول الى غرفة فرعون الجنائزية في الهرم الكبير .

قيل ان هتلر قد استلهمها في بناء الغرفة التي كان يأوي إليها في نورمبرغ ليستجمع أفكاره قبل إلقاء خطبة في الستاد . وأعمدة البناء النازي تشبه بالفعل أعمدة معبد الغرانيت الذي رفعت عنه الرمال ، أمام أبي الهول . لكن الطريق الذي يؤدي إلى قبر فرعون لا يشترك في شيء مع الطريق الذي تحفه من الجانبين الأعمدة الهندسية في نورمبرغ . هو أولاً المتاهة المبهمة التي أخلاها لصوص المعابد ، من النهابين العصريين والنهابين الاسلاميين في خدمة الخلفاء المجانين ، وبالأخص النهابين القدامى الذين كانوا يتلمسون الطريق نحو ذهب الموت على بصيص المشاعل . . . إن طريقهم فجوات بين الحجارة المتقاربة ، مثل دهاليز ما قبل التاريخ ، ويخيل إلينا اننا سنلمح فوق الصخور الثيران التي امحت رسومها في مغارات « فون دي غوم » بنت الآلاف الشائهة من السنين ، عندما يظهر الرواق الفرعوني الوعر الذي لا يمكن الانسان أن يدخله واقفاً والذي يصعد في الليل مستقيماً . وفي الصعيد ، عند نهاية ممرات أضيق من هذا ، عثروا على هياكل لصوص الكنوز الذين لم يتمكنوا من الالتفات إلى الوراء ، وقد حصروا بين الحوافي التي علتها تماسيح صغيرة محنطة ، وضعت بعضها فوق بعض مثل الزجاجات .

لعب القدر بالنواويس الملكية كأنها قطع دومينو يخلطها بحركاته العمياء . في طيبة كما هنا . في ظل الأسرة الثانية والعشرين ، عني الكهنة بموميات ملوك طيبة العظام فأعادوا تقميطها

وتجميعها في بعض القاعر . وفي نهاية القرن التاسع عشر ، تم اكتشاف « ثلاثة وثلاثين من الملوك والملكات والأمراء ورؤساء كهنة أمون ـ وعشرة أفراد من طبقة أقل أهمية . . . وصعدت النيل مركبة محملة بالفراعنة ، وعند مرورها أعولت النساء وقد حللن شعورهن مثلما يفعلن في الجنازات . وأثناء عمليات النقل ، وضعت بعض الأجسام في غير توابيتها . وبين أغطية التوابيت التي عثروا عليها ، كان غطاء تابوت رعمسيس . . .

في العام الماضي ، ذهبت للكشف على محال الطلال المهجورة في فرساي : « البندقية الصغيرة » التي يسكنها أصحاب الغندولات في القناة الكبرى ، والآثار الباقية من الحظائر بحيواناتها الحجرية ، وآثار المناهة بوحوشها الخرافية من الرصاص ، ومسرح « التريانون » الصغير حيث مثلت ماري أنطوانيت « حلاق اشبيلية » أمام أصدقائها (وبومارشيه الذي أعيد بعدها إلى الباستيل) . أما المخازن الخاصة بديكورات هذا المسرح الصغيرة جداً ، فكانت كبيرة . وبدا لي كأن أبوابها لم تفتح منذ أيام الثورة . وجاءتنا صبة صغيرة ، ضفائرها مثل القرون الدقيقة ، بمفتاح ضخم . وتمكن العمال من جذب المصراعين . وبين وبات السعال تفجر التراب في الفضاء الذي تزرع فيه نساء المعاونين أزهار الجيرانيوم على نوافذهن ، وسقط عريش تعلقت به خيوط العنكبوت كأنها قلاع سفينة المحكومين بالاعدام ، سقط على البلاط فقفزت بين الديوك الرومية ، تماثيل آلهة الحب السوداء ذات الأجنحة الفضية ، وصاح أمين المتحف :

ـ منذ خمسين عاماً وهم يبحثون عنها في قصر الانفاليد : انها المركبة التي حملت نعش نابوليون !

وبعدما تم تنظيفها ، لم تعد تشبه إلا عربة الموتى التي تقدمها برليوز تعبث ريح الشتاء بشعره الأثيل وراء الستة والثلاثين من السروج المظهمة السوداء . . . وفي هذا الدهليز الذي يصعد في الليل مستقيماً ، قريباً من اهرامات بونابارت ، أفكر في اليوم الذي قضى فيه نابليون أول يريد يصله في سانت هيلين ـ ليجد ، بدلاً من الصحف التي كان ينتظرها ، أكداس الرسائل الغرامية بعثت بها النساء اللواتي يعرضن عليه أن يشاطرنه حياته . . .

●

هذه هي الغرفة الجنائزية التي يرجع جلالها إلى النسب وإلى الدقة العبقرية في العمار فهذه الأحجار ، مثل أحجار الصروح المكسيكية ، تبدو كأنها قصت بالموسى ـ وإلى طابع المكان المغلق المشؤوم . نحن نصعد منذ وقت طويل ، والهواء قليل الكثافة مثله في المخابىء الذرية ، ولكن غرف المخابىء هي في أعماق المغارات ، وأعمدتها بلا نهاية ، تتلاشى في الظلمات أعاليها التي انعقدت من قبل آدم ، وفوانيس سيارة دخيلة تنعكس على القفازات ذات الكم الأبيض في يد جندي لا يتحرك . أما هنا فالهرم الذي يطوقنا يضفي الجلال ، بهندسته الخانقة ، على بقاء الغرفة الجنائزية وبقاء الموت . لقد دمر الناووس أو سرق قديماً ، والحوض المهدم يدل على غيابه ، هذا الغياب الذي يتآلف ، أكثر من حضوره ، مع هذه الجدران

التي لا يتطرق اليها الفساد . ويتجه الفكر إلى الأفسوسة الهندية التي تروي عن أمير يشيد بعد سنوات بعد موت زوجته الحبيبة ، أجمل ضريح في العالم . وعندما تم البناء ، جيء بالبانيون ، فانهدم التناسق في الغرفة الجنائزية . قال الأمير : « احملوه . . . » . هنا يكفي الضريح : انه ضريح الموت . ان مغاراتنا بصوانها المنحوت ومقابرها تذكرنا بأن الانسان قد اخترع الآلهة . ولكن مصر هي التي تذكرنا بأنه قد اخترع القبر .

●

كان النزول الى غرفة هتلر عن طريق سلم حلزونية من المرمر الأشهب على ما أظن . وبالقرب من الأسوار التي ما زالت قائمة تضرب نطاقاً حول نورمبرغ المهدمة ، حيث لم تعد دباباتنا تهتدي الى الميادين العامة ، استقبلتنا بعض الهياكل العظمية في احدى الشرفات : هياكل متحف التاريخ الطبيعي أصابه صاروخ فحرجت من خزائنها تحت ضغط الهواء . ولم يكن الستاد مهدماً . فقوادم الجانبين التي كانت تشتعل فوقها النيران بينما يتحدث هتلر ، والمنبر ، بل الدهليز الضخم الشبيه بمعبد الغرانيت ، كانت لا تزال قائمة . وثمة قطع ملتوية من السور البرونزي وقعت من الواجهة العليا وتناثرت فوق الأرض التي عاث فيها قديماً شياطين ألمانيا وآلهتها ، وكأن الرايخ الثالث قد انطفأ مع أشعة الفوانيس ، التي سدت السماء السوداء في الساعة التي أوقدت النيران . سكون العصر ، سكون المدن المهدمة التي دفنت جثثها . وسرنا على السلم

الحلزونية وقد اعترانا خوف غامض من ان تكون ملغومة . وبعد قليل أصبحت مشاعلنا الكهربائية بلا فائدة : فقد كان هناك ضوء أحمر بجيء من الأعماق وترنيم جوق ضعيف يتصاعد نحونا كأنه صوت هذا الحريق الضئيل . وكان أرض المدينة المسكونة ، أرض فرسان رؤيا يوحنا والذكريات الهتلرية ، قد أرادت أن تحتفظ بصدى من الكارثة الكبرى ، والنازلة الوهاجة التي اجتاحت أوروبا حتى ستالينغراد والتي تضرم الآن برلين : حزانات البنزين مثل مواقد حطب الآلهة الهندوس تمتد سحبها السوداء إلى عشرات الكيلومترات ، ومزارع يعكس الجليد حريقها في أغوار الليل ، ومدائن تحت القنابل الفوسفورية . كنا نهبط نحو الضياء الساكن المقدس مثل هذه النار التي رأيتها في عزلة جبال فارس حيث كانت ترتفع محاريب المجوس . وبدا لنا كأننا نهبط ، لا نحو مكتب الدكتاتور ذي الطابع الأسطوري المبهم ، انما نحو هيكل من نار صاحبه طوال سنوات مثلما كان حطب الموقد الصابر ينتظر هرقل . ينتظره وهو يغني . لا بقرقعة اللهب ، ولكن بالوهوهة التي تصاحب توهج فرن الخباز . وكان هذا الغناء يسري فينا ، مثل بركات تأتي من بعيد . والبشاعة التي عرفناها (كنا قد فتحنا بعض معسكرات الاعتقال) بقيت في الستاد مع المدن التي تحولت الى أكوام من الحصى والقطع الممزقة من السور البرونزي الكبير . أما هنا ، فكان أصيل بلا بشر يغني ، في أعماق الليل . هدهدة مبهمة لموت المانيا .

كنا نهبط ، وراء الدرجات الأخيرة التي بدت كأنها تغطي أنقاض مرآة واسعة حمراء ـ طالعتنا أكوام من علب السردين المفتوحة

تضيئها المصابيح الكهربائية ذات الاباجور الصغير القرمزي (هل كانت مصابيح هتلر ؟) . وضوضاء جنود سود وصلوا مع أولى الوحدات الامريكية يرتجلون رقصة شعائرية وهم يغنون بفم مطبق أنشودة رائعة . غناء المزارع عند هبوط المساء ، ترنيمة الهم والأحزان ابتكرها قديماً بعض عبيد الجنوب وهو يستمع إلى تجديف التجارة ، كانت لا تزال تصل الينا ، تائهة ، عندما لحقنا بالاعمدة الهندسية التي تحاكي اعمدة معبد الغرانيت .

كان الربيع ، لأني في اللحظة التي تركت فيها دهليز لصوص المقابر ، وجدت النيل وضبابه الرملي ، وحملت إليّ الذاكرة ، تحت الهياكل المعلقة بالشرفات ، صورة امرأة سمينة وحيدة تهتز فوق حصى نورمبرغ الحاوية ، مبتسمة وقد امتطت دراجة محملة بأزهار الليلك ....

الأشجار مزهرة في القاهرة بلون اللهب . كنت قد نسيت تقريباً هذا اللون الذي يذكرنا بـ « البلاد الدافئة » مثلما تذكرنا رائحة الأفيون بالصين ، كما نسيت اني لم أشاهد هذه البلاد في هذا الفصل من السنة . أكاسيا بلون الورد وجهنمية تتدحرج وثلاث زهور قرمزية على شجرة رمان في فناء بحمرة الصدأ ، كما في أصفهان .

هذا هو المتحف . قبل ثلاثين سنة كان يمتد أمامه ميدان من هذه الميادين الخالية التي جاءت بها انكلترا ، رغم خبرتها بساحات التجيل ، الى العالم الاسلامي . وكان ترابه النائم يتفق مع الظلال التي جاءتني ، في احدى الليالي ، متابعة ، تعرض عليّ بطريقة

ساهية ، بعض الصور الفوتوغرافية الخليعة ، كما كان يتفق مع فندق شبرد القديم الذي كنت أنام فيه لأقوم عند الفجر وأذهب أنا وكورتيليون بحثاً عن أطلال سبأ . وفي عالم من الوبر والتراب كانت تماثيل اخناتون تبرغ من حمرة الجدران بقوة غريبة ، على هامش شعب يسير نائماً ، وباشواته الغارقين في اللهو ، ومدينة موتاه .

وقد عدت قبل عشر سنين والتقيت متحف التراب والميدان الخالي . وهو اليوم ميدان التحرير ، والقاهرة الجديدة النابضة تنتصب من حولي بناطحاتها القصيرة ، وفندق هلتون الضخم الذي يفرض عصره هو ، عصره التي تتعارض مع تحويم حدأتي حورس في السماء على مهل . وفي طرف الميدان حيث تمرح نوافير المياه ، الوجود الروحي نفسه يملأ هذه القاعات التي كان من الممكن ان نعتبرها ريفية ، لولا انها تجمع بعضاً من الأعمال العظمى في تاريخ البشرية - وجود روحي وشيء آخر أكثر غموضاً . عند افتتاح المتحف عام ١٩٠٠ ، شاهد الصحفيون فجأة الرسميين بالطربوش والريدنغوت يفرون وقد قطعوا خطبهم : ذلك بان مومياء رمسيس ، الساحر المأساوي برأسه الببغاوية وخصلة شعره الأبيض في الهواء ، كانت تخفض نحوهم ذراعها متمهلة ...

فقد وصل شعاع من الشمس الى المومياء فانبسط المفصل وتحرر الساعد الذي كان في ما مضى يحمل الصولجان .

كم زرت من المتاحف المتروكة في الوبر المذهوش ، من متاحف المستعمرات الانكليزية حيث كانت العصافير المصبرة ترقب دوران رقصات الموت الساكنة ، الى مجموعات بريتاني حيث تتكلس نماذج

المراكب التي كان يعرضها القساطلة على تجار النفط ، مثل التي أورثني جدي . والمتحف العلوازي الصغير الذي سبت اسمه ، ازدهرت شجيراته البرية البسيطة كأنها « سلية » وكأنها انبثقت من أرض أطعمتها لربعون الصديد قطعها قيصر . وشعب الابروسك في متحف فولتيرا وظلاله كلها حشرت فوق أسطح صغيرة مزهرة ، كأنما اجتمعت ليوم دين ، نسي الديان ذكره (وصيحات السوق في الخارج) ، والقبلات الصقلية تهبط من جدرانها . بلا شك ، ظهور حدباء ترتدي الشعات المثلثة ، لتجتمع بعصافير الليل . ورجال الساموراي في زي البلاط ، لا ترى إلا ادبارهم في قصر كيوتو ، ولكن هياكلهم ترتعش ارتعاشة لا تكاد تحس ، عند سريان الصوت المحسوب الذي تحدثه القدم على الأرض ومن شأنه ان ينبه حرس الامبراطور . . . ومتحف الأزياء في طهران تماثيله الشمعية تخرج من الظلمة ولها ايماءات الجثث ، بينما تاجر الشاي المجاور يفتح واحدة بعد أخرى ، النوافذ المغلقة منذ الأزل ، وكأن فارس تواصل مشاورات ما في الظل حيث اطفال من الشمع بقلانس عالية ينسجون سجاجيد لن يتموها أبداً . وفناء متحف مكسيكو القديم : دار العملة التي شيدها نواب الملوك ، حيث الآلهة الأزتيك الذين رغب عنهم المتحف الجديد ، يقفون ملتين . أنوفهم الى الحائط تحت البواكي ، يحيطون بالحديقة التي عادت الى وحشيتها . وفي القاهرة نفسها ، بيت « الكريتية » بأرائكه ذات المشربيات وفي وسط قاعة مهلوسة ، موروثة من محمد علي ، في قفص على هيئة مسجد ، عصفور من عصافير الجزر ، منتوف الريش مثل عقاب

صغير ، كان الحارس يملأه ـ وكان يحي . . . .

احب المتاحف الغريبة العجيبة لأنها تلعب مع الأبدية . ولم يكن أي منها يقارب متحفنا التروكاديرو ، حيث كنا لكي نشاهد أيقونات الحبشة نقعد القرفصاء ونشعل الولاعة ـ التروكاديرو أو بالأحرى مخازنه . أظن ان حوض الأسماك كان موجوداً منذ ذلك الوقت . وكانت التماثيل كأنها تترحلق في غبش المستودع مثل الأسماك الحزينة . والقطع الرئيسية (وأميزها جميعاً الخميرية وما قبل كولومبس : كان ذلك قبل بعثة دكار ـ جيبوتي) أنقذها جندي زواوي مغرم بالتمائم ، وكتب عليها « فن بريتاني » بخط دائري جميل تحت الروائع المكسيكية بحيث لم يعد يجرؤ كائن من كان (بمساعدة نواب بريتاني ؟) على اخراجها من هذه المخلفات . والمانيكانات التي البسوها قديماً ملابس المتوحشين وقدامى المثقفين الصينيين . كانت محجوزة في الأركان ، وعلى رأس احدها خوذة وهاجة من ريش هاواي . وفي بعض الأيدي الخشبية صولجان من حجر اليشم . وعلى أسلاك الحديد الممتدة عبر هذا المستودع الذي عبثاً يحاول تقليد مستودع قصر من قصور قادش ، وبين مشابك الغسيل مثل العصافير على أسلاك البرق ، رقات من الريش بلون الفيروز والمرجان يتدلى مثل جثة عصفور الحكايات ، فوق البطاقة الوحيدة المحاطة بالورق المذهب : « تاج مونتزوما » .

متحف القاهرة شقيق هذه الأماكن المسكونة . لقد استلزم الأمر تقريب النواويس من بعضها البعض حتى يفسح المكان لمذهبات توت عنخ أمون . وقد اصفرت البطاقات واصطفت

الروائع مثل تماثيل السوق . ولكن ها هي رفقة الطهور الحدباء ذات القبعات المثلثة ، ورفيقة هياكل المكسيك السكرية وتماح مونتزوما : نواويس من الكرتون بلون الورد . كل الحلوى التي تحللت فيها مصر الهيلينستية ، مكدسة متفرطة ، في القاعات الخالية مع تماثيل الفيوم ورؤوس الشيخ عبادة التي لا تزال لاصقة بأكفانها . ايه يا جنود الاسلام ، الحافرين مجرى العيون لتروي نسرين صلاح الدين ، ويا جنود نابوليون تنبشون الكثبان بحثا عن الفراعنة ، فيستخرجون من الأرض تماثيل حورس في ثياب البهلوانات ، تماثيل كبيرة من الكرتون ذات عيون منومة ! وأميرة في هيئة المجنونة ترتدي زي رماة البنغال يزينه وشي بلون بشرتها وقد تاه منها في الرمال لكي يصل المجرى إلى أشجار الورد التربة . . .

يدلف السياح إلى توت عنخ أمون بعد نظرة الى التماسيح الخائرة على الخزائن . هنالك حول الأثاث الجنائزي المذهب ، المرتب ، المذهل ، لم يعد المتحف سوى صوان متاع ملكي .

أما في القبر الحقيقي ، في طيبة ، فقد كان هذا الأثاث السائب ، وهذه النواويس الذهبية المركبة في بعضها البعض ، تحت حراسة أنوبيس الأسود النموذجي الذي يرمز الى الملك ساعة خروجه من الموت ليدخل في الليل الأبدي . والتصاوير ذات الخلفية الصفراء على الجدران ، تكاد أن تكون شعبية ، قد رسمت على عجل ، (لم يكن أحد يتوقع موت الفرعون الشاب) الى جانب التصاوير التي تصطف فيها قردة الشمس ، ولها وقع يختلف تماماً عن وقع البذخ الجنائزي . تقول الأسطورة : ان علماء الآثار الذين

اكتشفوا هذا القبر ماتوا ميتة عنيفة أو خفية الأسباب . أما الحيوانات التي دخلت مع الرجال . فقد تكاثرت : على التصاوير الصفراء فقد رفاق فرعون الخالدون أقدامهم ، لقد نهشتها الفئران . والكأس المرمرية التي تكاد تكون شيئاً تافهاً في المتحف ، وجدت عند مدخل الدهليز ، مدارة نحو وادي الملوك : « لتشرب الى الأبد ، وقلبك طيبة التي اصطفيت . . . » ولكن ها هي أزهار العنبر الجافة التي أتاحت لنا العلم بأن توت عنخ أمون قد مات في آذار أو نيسان وهذا هو صندوق لعبه في الطفولة . . .

وحبة الموتى ، وبطاقات كتبت بمثل العناية التي صفت بها هذه القرابين . هنا دواجن وبصل وعنب من الحجارة ، وهنالك قوائم من طيور الحمام والسمان في ولائم خالية من المدعوين (مصر لاتصور وجبات الطعام إلا في عصر العمارنة) . هنا فن في الطهي دقيق وياباني ، ولكن فوق هذا اليد الخشبة التي تقدم للمرة الأخيرة طيبات الأرض . وفوق كل هذا التراب من العدم ، تمر اليد الحانية بلفتها الرزينة ، يد الأمهات يضعن اللعب في قبور الأطفال . . . هذا هو خبز الموتى المثلث ، والبذور التي يقال انها تنبت عندما تزرع ، و« الأزهار المحنطة » التي لم تعد تتميز عن أوراقها السمراء . لماذا تختلج النفس لرؤية هذه الباقات المسطحة ؟ الأن الأزهار في كل مكان تحمل الى الموتى كمال الشيء الزائل ، بينما كانت هنا تعد للخلود ؟

هذا طوق لكلب من الجلد الوردي ، وهذه « خنافس القلب » التي كانت توضع على صدر الفقيد لتناشد قلبه ألا يتهمه

أمام القضاة الآلهين ، وهذا هو الخنفوس الذي يؤرخ بعناية ، مذبحة اثنين ومئة من الأسود على يد أمينوفيس الثالث . وهذه ملعقة الزينة يحليها ابن أوى ذهبي يحمل سمكة بين أسنانه ، ووسادة من الزغب كانت لأميرة طفلة ، والدمية الزرقاء التي كانت النساء يحملنها في رقابهن ، مكتوب عليها : « قومي وارتطي الذي انظر اليه ، ليصبح حبيبك » . وتحمل تاريخ ١٩٦٥ . الأسرة الثانية عشرة . ان التناسق في الزمن يجعلني أحلم منذ وقت طويل . ما هي الأحداث التي وقعت عام ١٩٦٥ قبل الميلاد ؟ هذه هي الصاحات ورقع الشطرنج والسلحفاة الخشبية التي غرزت فيها دبابيس لها رؤوس القطط ، هذه هي موميات طيور أبي قردان وقرود وتماسيح طولها خمسة أمتار وأسماك « عجل » كأنما هي من اختراع الكاتب الفريد جاري وهذه مومياء الغزالة التي كانت « ملكاً لأميرة من الأسرة الحادية والعشرين » والبطاقات التي كتبها شاعر منافس للجندي الزواوي في متحف التروكاديرو : « أوان من الخشب عثر عليها في مخابىء المحنطين ـ مقاشط ومباضع وأسنة للرماح وأسنة للسهام بديعة الصنع ـ أشياء لا يُعرف الغرض منها ـ هيكل فرس من الأسرة الثامنة عشرة ويعد أقدم الأفراس التي عثر عليها حتى الآن ـ تابوت لشقيق رمسيس الثاني ولكن ما وجد فيه من العظام يدل على ان صاحبها كان أحدب ـ صندوق كان يحتوي على اساور الملكة عندما كانت طفلة ـ خصلة من شعر الملكة « تي » وهي كل ما بقي من هذه الشخصية الفذة . ثم النواويس التي كان على الميت ان يشد أو أن يدفع مزاليجها ، وقد نقشت عليها الرسوم لرحلاته أو

لاستجمامه ، والمرايا التي يستخدمها الموتى ، وفي واجهة عادية ، المسمار الذهبي الذي كان يستعمل لاغلاق توابيت الملوك .

لمصر شغف شرقي بالذهب ، ولكن شعب المتحف لونه بلون حمرة الصدأ ، والحجر والفيروز ، على خلفية رمال الصحراء ، مثل المدن الفارسية . . . .

هذه هي الآن الطيور ذات الرؤوس البشرية ، صورة الارواح . قال موليرغ ، ذو الأذنين المروستين ان مصر التي اخترعت الروح هي ، بيقين أشد ، اخترعت الصفاء ، ذلك لان الاحساس الذي أجده هنا لا يختلط باحساس الموت . ولا حتى بعدوى الصفاء الجنائزي التي انتقلت إليّ في ما مضى ، في طيبة . ان كلمة « الموت » تضايقني برنينها الذي يشبه صوت الصنج . لا تنتقل روح الديانة إلا عن طريق الأحياء ممن يعتنقونها ـ وأديان الشرق القديم محاها الاسلام . انا اجهل مصر القديمة مثلما يجهل الحب رجل لم يجربه ، وذلك مهما قرأ عنه . أجهل مصر القديمة ، بصفة قاطعة ، مثلما يجهل الموت كل البشر . انما أعرف هذه الشخوص التي أشاهدها عابراً . . . جعلت منها أوروبا شعباً من الجثث ، لان رفاق بونابارت كانوا يقارنون بالغريزة بين تحاتي ممفيس وميكل انجلو وكانوفا وبراكسيتيل ، بينما انا أقارنهم بمنافسيهم في المغارات المقدسة ، وأولا بنحاتينا الرومان . فاذا واجهنا هذه الشخوص بتماثيلنا العواميد ، انتفت صفة جمود الجثث التي ظن ان « كتاب الموتى » يفرضها . اذا كان « الكتبة المتربعون » الذين أمر امامهم يحاكون الحياة فهم جثث بكل تأكيد . نحن لم « نبصر » هذا النحت

الذي ندرسه منذ قرن . إلا في زمن ميران . وكان بودلير لا يزال يتحدث عن السذاجة المصرية . ان ملكات مصر ، حتى عندما يُحشر في متن الجبل ، ويشددن في أثواب من الشرائط ، فانهن ، اذا قورن بتماثيل الملكات والعذراء في شارتر ، فمن استدارة الجرة المستطيلة .

ليس هناك « باروك » مصري . انما هناك تحلل للأسلوب المصري . هذا الأسلوب الذي يكاد ان يكون غريباً عن كل تاريخ ، عمل طوال ثلاثة آلاف من السنين وكأنه الشرارة نفسها تسري في الأشكال التي يصهرها في خلود واحد . ان التصلب لغة . وهذا النحت بلا شك سحري وليس جمالياً . وهذه التماثيل مكلفة أن تضمن البقاء للأجسام الفانية وهي لا تضمنه لما بينها من الشبه ، ولكن على العكس لما بين هذه « الأقران » والأجسام التي تمثلها ، من فروق رغم تشابهها . وظيفة هذه التماثيل ان تكفل البقاء ، انما وظيفة أسلوبها ، أن تفصلها عن مظهرها الفاني لتعشي بالموتى الى العالم الآخر .

ولا أعثر على التماثيل الهيلينستية التي كانت تصور الآلهة والمسوخ « بطريقة واقعية » . ماذا جرى لتمثال الغولة التي كانت تخيلها « البونة غضة » ؟ وأنوبيس يعلو عباءته رأس ابن آوى ؟ لقد اخترعت مصر أنوبيس لأنه لا يمكن ان يوجد في عالم الأحياء . حيث يحاول الفن الاسكندراني ان يدخله بلا جدوى . هذا هو الآن ، تحت السلالم . . .

يمكنه ان يتحاور مع ملكات العهود القديمة مثلما تتحاور

النمس والعرائس ، ولكن المشهد الذي نرى فيه الاله برأس الحدأة يقود الى الآلهة الأخرى نفرتاري ، زوجة رمسيس ، فمنه من قمم الفن ، لأن رأس الحدأة هذا ، وقد ألبس التاج الفرعوني ، لا يمكن ان نتصوره خارج الأسلوب المصري ، كما لا يمكن ان نتخيل دون جوان لموزار خارج الموسيقى ، والانتصارات ، الاغريقية خارج النحت . يقود الملكة من يد هو لا يمسك بها ، إلى عالم آخر ليس له اليوم تعبير ينم عنه غير هذا الأسلوب الذي يجمع بينهما . والملكة زوجة رمسيس أقل مما هي زوجة الاله الذي يضفي عليها جلال الظلال . لقد جعلت عملية الخلق من الملكة روحاً مثلما أقامت العبقرية التوسكانية من فينوس مثالاً . وهذه الأمثلة لا تعمل بمفردها فالملكة لم تجد ، إلا عندنا ، النبرة التي تصل بينها وبين « انتصار ساموتراقيا » و « الجوكندا » والوجوه العملاقة في مغارات الهند ، وابتهالات الموسيقى الغربية - أي كل ما لا يمكن ، في الفن ، حصر تفسيره بالفن . لا أذكر بوضوح القبر الذي يتفتح على سطح الأرض أمام وادي الملكات . ذلك اليوم ، كانت عصافير الدوري تصيح في معبد رمسيس كما تصيح عندنا على أشجار الزيزفون في أمسيات الصيف ، وكنت أذكر أزيز نحل الموتى ، الذي حدثت عنه النصوص الجنائزية . وكانت العصافير قد أقامت أعشاشها في أجنحة الصقور المقدسة على جدران النحوت الغائرة . وفي طيبة ، كانت الشمس تضيء « الهة السكون » ، وتطلع من ظلام رمسها ، مثل اللهب الأشهب المتردد ، الهة العودة الخالدة . وفوق تمثالي ممنون المشوهين بطريقة رائعة ، كان يحوم سرب من الحدآت . لقد نسيت

القبر ولكنني لم أنس الملكة التي كانت تعاود الظهور من جدار إلى جدار ، خلال رحلتها الجنائزية ، بالخلال الأفعى نفسه - حتى المشهد الذي تجلس فيه وحيدة ، أمام رقعة الشطرنج ، تقامر بمصيرها كميتة مقابل تحللها في العدم ، في مواجهة الفراغ الذي يشير الى اله غير منظور . . .

وهذه في صناديق زجاجية ، أطلال أجساد الرجال . أقل مغزى بكثير من صورهم رغم عيونها المصنوعة من الميناء . . . ان مومياء رمسيس لن تهدد بعد اليوم حفلات الافتتاح . كان في السادسة والتسعين على ما أظن . وبالقرب منه تمددت أميرة شابة ، تفعل في النفس ما لا تفعله الأخريات ، لأن حقن الشمع حافظت على شكل خديها كان اسمها « عذوبة » .

●

ويتملكني احساس مماثل في قوته الاحساس الذي شعرت به عندما سمعت أمام أبي الهول ، للمرة الأولى ، صوت المطهر وصوت المقدس . المومياءات هي التي كشفت لي عن صلتي العميقة بالتماثيل . ان الشخوص الصغيرة التي تمثل الحياة ، وتماثيل الخشب التي تصور المراكبية المصريين ، وخزف تاناجرا ، والراقصات الصينيات من الفخار ، كلها تقريباً شخوص جنائزية ، ولكنها لا تعرض علينا مع الهياكل العظيمة . أما هنا (وفي أي مكان آخر ؟) فجنباً إلى جنب تقريباً ، نرى الآلهة التي خلقها البشر والملوك الذين خلقتهم الآلهة ، قد عبروا القرون . ماذا حدث

لرمسيس ولكل الفراعنة الذين يعثر على نواويسهم ؟ جسم استنزفت منه الأيام ما استنزفت ، ومجد تحلل منه ما تحلل . هذا ما نعلمه منذ أمد بعيد . ولكننا أيضاً منذ بضعة قرون نظن لنفسنا العلم بأن العمل الفني « يبقى بعد فناء المدنية » وان خلوده يعارض البقاء البائس للآلهة المحنطين ، على اني قد تبينت في هذا المتحف ان البقاء الفني ذو طابع معقد ، ولا يستقر على حال . فطوال الف عام على الأقل ، وفي العالم كله ، ظل فن رمسيس منسياً مثل اسمه . ثم عاود الظهور كشيء « يدعو الى الفضول ، مثل الفنون المسماة كلدانية ومثل كل ما كان يحيط بالتوراة . ثم أصبح الفضول موضع علم أو تاريخ . وأخيراً رأينا الذي كان صنوا وقرينا ثم موضوعاً يصبح تمثالاً ويستعيد « حياة » له . بالنسبة الى حضارتنا وربما الى الحضارات التالية . ولم يكن الأمر كذلك في أي غيرها . والاسلام المصري لا يبعث مصر من خلال القرآن ، انه يبعثها من خلال اللوفر والمتحف البريطاني ومتحف القاهرة . وهذا المتحف لم يعد يكفل البقاء . وغداً ستكون تماثيل أخناتون في متحف عصري . وبلا شك في المتحف الخيالي ، حيث لن تكون تماماً كما نراها اليوم - مثلما هي اليوم غير التي رآها الفنانون أيام أولوية الفن الاغريقي . عالم الفن ليس عالم الخلود انما هو عالم التحول . واليوم أصبح التحول هو هو حياة العمل الفني .

وها هنا في المكتبة المقامة عند طرف البهو الذي يصل بين جناحي المتحف ، مختلف أنواع الكتب عن المكسيك . وصور فوتوغرافية كبيرة للمباني السابقة لكولومبس . تبدو الاهرامات

المكسيكية هنا مرتاحة في بيتها ، وأكثر منها ارتياحاً مسالك موتنت البان الهندسية ، ومعابد « ميدان القمر » الصغيرة الثابتة » ، كل المعمار « الحديث » ، بلا لوتس ولا مضلعات ، الذي يصل معابد مجاري بوكاتان بمعبد الجيزة الخاص ومنصة سورمبرغ ، والمعمار الخشن الذي كان يحتوي موتى المكسيك بالمعمار الذي كان يحتوي موتى مصر . ولكن ما أن يظهر هؤلاء الموتى حتى تنقطع صلة التآلف . هذه هي صور عيد الموتى في المكسيك والهياكل العظمية مناظر لا ينضب معينها . كم من الشعوب عاشت في تآنس مع الموتى ، تمزج الليل المأتمي الكبير بظرف سوداوي عطوف ؟ وصور الأرغفة الجنائزية على هيئة الجماجم تثير الأذهان ونحن في القاهرة حيث الخبز الجنائزي أرغفة مثلثة . . . كما تثير الأذهان الكلاب المكسيكية التي تمضي إلى المقبرة ، ونحن في البلد الذي تحنط فيه بنات آوى . والموت يثير الأذهان ونحن في مصر التي يبدو الخلود فيها كأنه يضل الانسان في الطريق . . .

●

كنت قد رأيت مرة أخرى في مكسيكو الصورة التي ثبتها ايزنشتاين لقرون من الزمن : على وجوه أطفال يبتسمون ، تعبر واحدة بعد الأخرى ، وهي تمر على مهل ، ظلال الهياكل العظمية المتوعدة التي تدور في ميدان البرجاس الصغير . المكسيك هي عبارة عن فنادق الموتى ، وهياج العازفين بالعظام ، وجنية من القش ذات جسد مستطيل يشبه الأرابيسك ، وذات جمجمة صغيرة ، أرادوا أن

يهدوها إليّ قديماً على أنها هيكل الحلم . كل هذا غريب تماماً عن مصر القديمة : فنها جنائزي ولكنه ليس مأتمياً قاتماً ، لا جثث فيه ولا مأخوذون يرتعدون . ولم يكن صوت « الأقران » الكبار ، وثرثرة الشعب الصغير أليف الموتى الذي يحيط بي ، ليستدعيا إلى ذاكرتي المكسيك حيث يتحول الأطفال الذين يولدون ميتين إلى عصافير ، مكسيك أطول وجبة للموتى تعرفها الأرض حتى يومنا هذا ، ولكنه يستدعي العالم الهندي في غواتيمالا ، ربما لأن الموت هناك ليس له من شكل إلا شكل اللهب . وربما لأن الموت هناك يلعب مع الأزهار .

أزهار صقلية ، أزهار غريبة في الصخر وفي بيوت من الفخار ، أزهار بلا ورق ، جهنمية بلون البرتقال ، متقاربة مثل اللبلاب ، وأشجار بنفسجية كبيرة ، وأزهار الداليا ذات السيوف الحمراء مثل بلور بوهيميا ظنها الفاتحون من فصيلة النرجس التي يسمونها « باهرة » . كنت قد لقيت كنائس صفراء في قلب الشوارع المتعددة الألوان ، وجمعاً أسود يدفن بعض موتاه ، ينتحب فيه الواقفون حتى الصف الرابع وتضحك الصفوف الأخيرة ، ورأيت في الكمبونات التي حولت إلى مواكب دينية ، فتيات من الهنود صغيرات جميلات وقفن بلا حراك تحت لافتات كتب عليها : « العذراء » . وكان هذا الموكب يتبع مهووساً ركب الحمار بالمقلوب ، وعلى وجهه قناع الموت ـ وكان جثمان دون كيشوت يجرد قديسات الفردوس عبر البراكين . والهنود الصغار ، في أزياء مزركشة ، وفي أعداد متزايدة ، يهبطون من الغابة . وكان رفاقي

يتحدثون عنهم . قلت للحائكة : ـ « هذا الحيوان الصغير الأحمر لماذا لم يطرز ثوبه بمثل اتقان الآخرين ؟ » وأجابتني : « ينبغي دائماً أن نترك واحداً على هذه الحال . لكي لا نثير غضب الآلهة . فالكمال من صفاتهم » . وثمة صنم من أصنام المايا يشرف على البحيرة ، وعلى قاعدته كلب حقيقي نصب أذنيه عندما مررنا به . « يوم أن جاء رجال الشمال إلى هنا ، أشار « كويتز الكوتل » إلى محاربيه وقال : سأغلب بهذا الجيش . ورد قائدنا زعيم المايا وهو يشير إلى مولود جديد : أما أنا فسوف أنتصر بهذا الطفل . . . . » وأجاب أمين المتحف وهو يبتسم : « أرسل زعيمنا الكويتزال وهم في جمال عصافير الأحلام فقتلهم رجال الشمال ورحل رجالنا وهم يعلنون أنهم لا يستطيعون الحياة في بلاد تقتل فيها العصافير » قال الأمير المساعد من دون أن يبتسم : ـ « الهنود هم اخوتنا الصغار . . . » وكان رفاقي الثلاثة من الخلاسيين . ووصلنا إلى مدينة أنتيجا ، زينة لنواب الملوك ، بحامياتها المركزية ، وجامعتها القديمة وناقورتها بحيات من اللاقة السوداء ، في الميدان الملكي الذي تسهر أشجاره السامقة على النائمين . كان من الممكن أن تكون مدينة من المكسيك أو بيرو لولا الأزهار التي غرست في الأفنية الأهلة والأزهار التي انهارت في الأفنية المهجورة ، وعلى الأخص لولا جو النكبة الذي خلفه الزلزال . هنا تذكرت أن طائرتي وصلت عن طريق بحر من السحاب تثقبه البراكين . وخطرت في بالي مدينة نوتو في صقلية ، وقد مسحت حتى الطبقة الثالثة ، واشتد اصفرارها فوق سلالها الضخمة وأشجار اللوز المزهرة . ولكن نوتو رفعت

أنقاضها ، بينما أنقاض الفلك الهائل تملأ رحاب « انتيغا » تحت البركان الذي ربما كان منطفئاً . والهنود يذرعون بخطوات صغيرة كل هذه الشوارع التي كانت الريح تكنس فيها أزهار الجهنمية مع التراب وأكوام القرنفل وأحضان من السوسن تغطي جفاف السوق . وكان محراب السوق في قاعة تحت الأرض رأيت فيها طفلاً وحيداً يتأرجح بين الشموع القصيرة التي وضعت على البلاط . وكنا نسمع صوت شخشيخة بائع اليوطة وكأنها ناقوس الموق .

وخلف واجهة الكاتدرائية التي لم تمس بسوء ، كان الصحن يمتد مبقوراً مثل صحن الكنائس الاسبانية في الحرب الأهلية ، ولكن تملأه الأنقاض الكونية المتخلفة من الزلازل . وفي الوسط درج يوصل إلى السرداب الذي لا يكاد يرتفع عن رأسي ، وفيه شموع كأنهار شقت في الأرض ، وصليب غير منظور ، وهندي وحيد يصلي وقد أمسك طفلاً صغيراً مثل الذي رأيته هائماً بين أضواء محراب السوق . وميزت الصليب بالكاد ، ولكن الجدران كانت ملطخة ببقع الأيدي البيضاء مثل أيدي الصيادين المجدلانيين على ثيران المغارات . وصلاة الهندي الساكن الخاشع تملأ السرداب بما يماثل ضوء الشموع .

وقد التقيت هذه الصلاة السحرية في قلب البلاد الهندية ، في أورتيس . كانت هناك كنيستان من السكر تتلألآن على زرقة السماء المضيئة عند قمة الدرج العمودي . وبينهما سوق متعددة الألوان يعبرها أشخاص سود حول حامل القربان المقدس : قبعاتهم الاسطوانية تبرز من بين خليط الرؤوس الهندية ، وتتجه نحو درج

الأعراسات حيث يتهادج بعض « البرجنال النسرا » و « أقصى الطوائف » حول صورة مقدسة غير منظورة ، في واجهة زجاجية صغيرة مكللة بريش ضخم . وكنا نسمع « الماريمبا » الآتية من الدير المجاور والصواريخ تفرقع فوق أدخنة شمع الكوبال التي تدفعها المباخر مثل أدخنة الحرائق . كل هذا الكرنفال من العالم الآخر ، كان ينتشر فوق الدرج الحالي ، كما كان ينتشر في القديم ، على معابد المايا .

والقبة العالية في الكنيسة الكبيرة ، وتماثيل المسيح ذات شعور حقيقية وعيون من الميناء وثوب من المخمل ، تضيع في الظل . لم أكن قد شاهدت في عمري ، أبتيغا ، هذه الشموع القصيرة الموضوعة على الأرض . لم أكن أمام أضواء سراديب ولكنه تنوير . ينبعث من تحتي مثلما ينبعث من المدن الليلية التي ترتعش في الدجى عندما ترسو على أرضها . والهواء الذي كان يأتي من الباب المفتوح ، محملاً بأدخنة الكوبال ، يرعش كل هذه الشعلات . وتذكرت أسراب الحباحب فوق مستنقعات « أبام » ، وأكواخ كوبا التي يغشيها كيس من الشاش مملوء بنحلات تشع بطونها بالفوسفور . ومن البوابة إلى المذبح ، ثلاثة أحواض من الشموع تملأ بلاط الصحن ، وسط الهنود الراكعين . والشيء الذي لم أكن قد رأيته ، حتى في بيرو ، هو اتحاد هذه الأضواء بالذين يحيطون بها ، والنبض الخافق الذي يغوص في الليل بالشعب المؤمن عندما تميل الشعل . وشموع الحوض الأول ، المزروعة بين عيدان الذرة ، كأنها تحترق على إيقاع ترتيم الصلاة ، وشموع الحوض الثالث بين أوراق الورد التي

يلقونها إلى المذبح ، تصاحب تعزيم الرقى . ولكن الهنود لم يكونوا يتلون ، إنما يتحدثون . والحضرة السحرية ـ حضرة جنون مقدس عطوف وعميق ـ ترجع إلى عزلة كل حديث من هذه الأحاديث التي تجري مع المجهول ، وإلى أن هؤلاء الهنود الذين ليست لهم قرى ، إنما يؤلفون جمعاً .

قال صوت بالقرب مني :

ـ هذا أمر شائق جداً .

كان هو رئيس الآباء ، ينيره الضوء من أسفل ، صارم في طيلسانه المزرر حتى رقبته ، إسباني مثلما يبدو الإسبان في اللوحات .

أجبت :

ـ انه أمر يثير الوجد .

ونظر إليّ بانتباه . ومن ورائه ! ثلاثون من الهنديات منحنيات ، ورؤوس الرضع تعلو فوق أكتافهن مثل رؤوس الشياطين الصغار . وكن صامتات .

وقال :

ـ جئن من أجل التعميد .

ـ هل تعمدون جماعة ؟

ـ أغلبهن لسن مسيحيات . . . فالايمان بالخرافات لا يزال هنا عميقاً جداً . . .

ـ هذا الايمان لا يضايقني يا أبي . ربما يكون قد ملأ العصور الوسطى . . .

كانت التمتمة تحيط بنا حتى خاصرتنا وتضطرني ان ارفع

صوتي حتى يسمعني الكاهن :

ـ أليست هذه صلاة دعاء ؟

ـ الذين يصلون أمام عيدان الذرة يطلبون من المولى أن يبارك حصادهم . لكنهم بعد ذلك يوقدون شمعة ثانية . وهم الذين يحيطون بك . لا يطلبون شيئا . الشعلة هي الميت الأحب إلى قلوبهم . وهم يتحدثون إليه .

وهذا يسري الطنين المضطرم مختلطاً عن غمغمة ترديد الصلاة : لقد كان حواراً مع المولى .

ـ تكلفت كثيراً من المشقة حتى لا يمنعوهم من ذلك . . . ما هي الصلاة ؟ إنها محادثة . أليست كذلك ؟ وماذا يفعلون ؟ وأقول لهم انهم لا يجب أن ينسوا ، عندما يفرغون من الكلام مع موتاهم ، أن يتكلموا إلى المولى ، من أجل الرحلة . . . وأظن انهم يفعلون .

ـ قيل لي ان الاستجابة للدعوة تزداد ؟

ـ كلا ! لقد وكلت إليّ رعاية ثمانية آلاف هندي . ليست مسألة استجابة فحسب . . . كل هذا يفعل فعله في كهنتنا ، حتى أنفاسهم . فيجب استدعاؤهم إلى اسبانيا وإيجاد بديل لهم . منذ قرون . . . والهنود يقولون شيئاً في غاية الأهمية ، عندما لا نحس فهم حديثهم مع المولى : يقولون : الكاهن ليس كاثوليكياً . . .

ذكرت أيام سرابيب آسيا ، حيث كانت أضواء الكلدان وفينيقيا لا تزال مشتعلة « . . . نزل إلى المولى ، وبعث في اليوم الثالث . . . » وكنت لا أزال أسمع : « أقول لهم انهم لا يجب أن ينسوا ، عندما يفرغون من الكلام مع موتاهم ، أن يتكلموا إلى

المولى » . وكانت همهمة الأصوات تهمس بأن المولى في رأيهم (هل في رأيهم فقط ؟) أقرب بكثير إلى الموتى منه إلى الأحياء . . .

قال الأب :

ـ عندما جئت ، كان يوماً مثل هذا اليوم ، تعميد كبير وكثير من الهنود . . . وكان مبعوث البابا يصحبني . وربما كان يعلم أن الأمر لن يكون سهلاً . قلت له : « ولكن ما الذي جئت أفعله هنا ، ما الذي جئت أفعله هنا يامولاي؟ . » وأجابني بهدوء : « اغمض عينيك ، سد أذنيك ـ ولسوف تدرك ، شيئاً فشيئاً . . . » .

وبالقرب من البوابة ، تجمعت النساء من جديد ، ودون أن يتخلصن من حمل أطفالهن . لم يكن هناك أحد يبكي . بين الصحب المقدس على درج المايا ـ صيحات ونايات وأناشيد هندية مثلما سمعها بلا شك اسبان « الفارادو » قبل المعركة الأخيرة ـ وبين همهمة الموتى المبهمة التي تباركها أعماق الصحن الخافي عن الأنظار ، ولا صيحة .

وسألت :

ـ كان المبعوث يظن أن الله سيتولاهم ـ ولكن ليس وحده ؟

ـ كما هو الأمر دائماً . . .

هو أيضاً سيستدعى إلى إسبانيا قريباً . وتركني عند أعلى الدرج ، أمام غلالة الكوبال المنسولة فوق الهياج الذي يموج به المكان ، ونصحني أن « أذهب لأتأمل الصنم » : وبعدما صعدت ثلاثمائة متر ، وجدت تمثالاً يمت إلى اسلوب المايا من بعيد ،

تتساقط عليه ابر الصنوبر ، وتحيط به الحجارة وغرسه هندي سكران . وكان الكوبال يتصاعد فوق القرية والكنائس السكرية وفوق بقعة من زهور الداليا ذات السيوف تبرق مثل شظية الزجاجة الحمراء .

●

أمام متحف القاهرة أسمع نفير السيارات وقد فرغ صبر السائقين . وهناك في مكان ما من بلاد الرين وعبادات اليونشو ، بالقرب من أواكساكا ، حيث تغطي الغابة هياكل الفاتحين في دروعهم السوداء ، أو بالقرب من مرتفعات الانديز ، حيث تتمدد في الجليد هياكل عذارى الشمس وعلى مناكبهن بيغاواتهن البيضاء ، هناك رجال قصار القامة راكعون يتحدثون بصوت هامس إلى شعلة الشموع والترانزستور يذيع رقصات اسبانية بكرانيش في سوق هندية خالية .

أسمع همهمة صلاة الهنود التائهين في الليل الجنائزي حول الأضواء سوف تخبو ولكن ارتعاشها المتجدد أبداً سيدوم أكثر من العيون التي تنظر إليها . . . جثث مطوية في الجرار وهياكل عازفين وجنية برأس ميت ، تتطاير حول موتى مصر الذين لا ينال الدهر منهم .

●

مكتبة المتحف تعرض أيضاً الخطبة التي ألقيتها من أجل إنقاذ

آثار النوبة ، وتعرض صوراً فوتوغرافية كبيرة للأعمال الجارية . أنا أذكر صخور أسوان المستديرة السوداء يعكسها نيل بلون أنهار الجحيم . لا شك أن هذه الصخور لم تتغير كثيراً منذ الوقت الذي التقط فلوبير الشاب مرض الزهري من فتاة تدعى كوتشيك هانم كان متيهراً باسمها قدر اتيهاره باسم ملكة سبأ . ومعناه على ما أظن : السيدة الصغيرة . كانت تداعب حروفاً منقطاً بالحناء الصفراء ، يلبس كمامة من المخمل الأسود . . . هذه صور أشغال السد العالي ـ سبعة عشر ضعف هرم خوفو ـ الذي ستتولد منه بحيرة طولها مئة وخمسون كيلومتراً ، والذي سيؤدي تدميره ـ في حال تدميره ـ بالقبلة الذرية إلى محو مصر . والونش الأصفر في أبي سمبل يرفع في السماء كتلة من النحت الغائر تصور الأسرى ، كأنما ليهديها إلى إله الشمس . هذه هي المناشير الضخمة وقطع من المعبد منقولة على الجبل فوق شاطىء النيل حيث يشعل النوبيون نيرانهم أمام التماثيل الشاهقة والميموزا البري . ما أغرب أن أعيد هنا قراءة هذه الخطبة التي ألقيت عام ١٩٦٠ ، وفي خلفية الأحداث تجري معارك الجزائر :

« أولى الحضارات العالمية ترى في الفن العالمي تراثها الذي لا ينقسم . أما الغرب ، أيام كان يعتقد أن تراثه يبدأ في أثينا ، فقد كان ينظر لاهياً إلى الاكروبول وهي تنهار . . . » .

ولكن عندما تدركني النوبة بحرابها وقرودها السوداء ، لا يصاحبها أبو سمبل ، إنما يصاحبها ميدان كنت أجهله عندما جئت إلى هنا في الماضي ، ميدان يمد تحت متاحف مصر سحره

السفلي : حيوية المادة .

منذ وقت طويل وأنا أحلم بنهر الكزامس . هل بسبب كلمة رومانس « وأغاني الجزر » ؟ ولكن في خلفية هذه الصور كانت تتراءى ، بدلاً من الأشرعة النحيلة ، افريقيا الشاسعة ، والمنظر المشوق لرقصات جزيرة « جورية » ، والماركي ديبوفليروسنيوراته ، خلاسيات يلبسن طواقي المجوس ـ ويا للقمر على « الرأس الأخضر » ! (رأيتهن مع سنغور وقد أصبح رئيساً ، يفصل « الصوت والضوء » . . . وكان قمر الأيام الخالية ، يلقي خيالات الطواقي العالية الحادة على أرابيسك الشرفات ، ويكفي أن ينطلق كلب ضال ، مثل المجنون وسط الفتيات ، لتتحول رقصتهن إلى باليه للظلال . وهبت رياح الليل على جورية . . .) .

كنت أتوقع أن أرى بعض العابرات من بعيد في نسيج من الموسلين أو المدراس البنفسجي تحت أزهار الجهنمية ، أن أرى السنغال القديم يغفو على حافة الضفاف . والكزامس نهر بحيرة ، تياغارا تحفه من كل جانب أمواج بحرية قصيرة . وفي الغابة بلدان بلا تاريخ ، تحيرنا نظافتها لأننا نتصور النظافة شيئاً عصرياً . لقد احتفظوا بملوكهم الكهنة . لا يتمتعون الآن إلاّ بسلطة روحية ، ولكن هيبتهم لا تزال باقية ، بسبب طريقتهم في الانتخاب . إذا مات الملك قامت القبيلة بتعيين خلف له . يقول : « ولكنني لست جديراً . . . » فيضرب ضرباً مبرحاً . إذا نجا منه فهو ملك ـ وهذا يفرض عليه واجب القيام بالتضحيات ويمنحه حق التصرف بالفتيات اللواتي يلمسهن صولجانه المصنوع من القش .

كان أولهم شاباً إلى حد ما . متلفحاً في معطف أحمر يشبه رداء السباهي ، يخفي تحته الصولجان ، وتحيط به حاشية من المهللين في أزياء أوروبية ، نبلاء بالوراثة . بعد السلامات سألته هل يضعف سلطانه الروحي .

ـ المبشرون لا يستطيعون شيئاً ضد الأشجار السحرية .

وكبار الشخصيات لا تزال تأتي لتراني : السفير الانكليزي في الأسبوع الماضي ، وأنت اليوم .

رد طيب من الملك . وفوق حاشية الصعاليك المقدسين ، شمس افريقيا تتخلل الأشجار .

وفي القرية التالية ، لا أحد : النساء في الصيد والرجال يجتنون عرقي البلح . وعلى درجات عالية ملك عجوز يلعب مع طفل . تسلم تبغنا ونظر إلينا ونحن نمضي عبر أفنية طويلة لا تراب فيها .

بلغنا عندئذ منطقة الملكة . قصرها من اللبن والقش ، وكانت هي في الممشى ذي الأعمدة الخشبية ، تسرع في ارتداء عباءة فوارة من التل الفستقي (لم أكن قد رأيت أبداً عباءة تفور) أطلعت منها وجهاً منبسطاً وملهماً . وأحاط بها ألفاؤها وأسرتها وأبناء القرية ـ والذين يصاحبونني وأبقت ساعديها مرفوعين كأنما هي تقدم القرابين ، وقد وقفت وقفة الكاهنة . ونقل إلى المترجم قولها :

ـ قل للجنرال ديغول إني أفكر فيه .

ـ سيسعده ذلك يا ملكة سبيث .

ولم لا ؟ كان السفير الانكليزي (أو بعض حكام رامبيا ؟) قد

أهداها زجاجة من الويسكي قائلا :

- جلالة الملكة تهدي إلى جلالتك أفضل مشروب في العالم .

- شكراً .

قلت للمحافظ السنغالي وهو مندهش ولكن مسرور ، انها في هذه الشريفات الهازلة ، أعز قدراً من السفير ومني . وقد أخذتني من يدي . تمتم المترجم : « انها تقودك إلى الصنم » .

كنت أتوقع أن أرى بعض التماثيل . ولكن صنم الملكة كان شجرة تشبه الدوحة العملاقة ، وقد أخلوا من حولها ميداناً ليتضح أنها تشرف على الغابة . ومن تشابك الجذور تصاعدت جوانب من الشجر مستقيمة مثل جدران تجمعت في دن شاهق . وعلى ارتفاع ثلاثين متراً فوق ذلك ، تزدهر في سموق وعظمة . ومن اقتران جدارين من هذه الجذوع مرتفعين إلى أكثر من خمسة أمتار ، تتألف كنيسة مثلثة ، يفصلها عن الميدان حاجز صغير لا يمكن أن يتجاوزه إلا الملكة ، وتفصلها عن الأخص أرض نظفت بعناية مثل أرض مساكن القرية . لأن الميدان كان يغطيه جليد الكابوك الحريري الذي يتساقط ولا يفرغ أبداً . وفي هذا الظهر الخيالي ، كان الدم المنعقد من الأضاحي يقطر من الشجرة .

وبهذا العمود الأجل ، كان شعور التضحية يتألف عندي بأشد وأقوى مما تألف مع أي معبد آخر . لم أكن أبصر شجرة عجباً ، أميرة على الشجر (ولو أنها كذلك) ولكن شجرة تعيد إلى الذهن عالماً تشد إليه البشر بانجذاب علوي ، مثلما تعيد آلهة مصر الأموات ، إلى أذهاننا . وفجأة ارتمت الملكة على عنقي وقبلتني .

وسألت :

- هل في قدرة الشجرة أن تحمي الأموات ؟

وقفلنا إلى القصر ، يتبعها قطها ، قط مصري بقامة فهد ، حوشي أسود مثل قطط الساحرات عندنا . وكان الأطفال صامتين وكأنما جاء سكوتهم بتأثير ما في القرية من نظافة لا تصدق . وظلت الملكة لا تجيب ثم قالت أخيراً : « لا ينبغي لأي كان أن يتحدث عن الموتى » ، بصوت لا يقبل الجدل ـ صوت فيه سر الملكات اللواتي تتابعن هنا منذ قرون عديدة وأمدتهن به التجربة القاتلة التي خرجت منها سيبيث حية .

كان يهيم في ذاكرتي قول قرأته : « ولتنفيذ عقوبة الاعدام ، ربطت بروهوت من شعرها الأبيض إلى ذيل حصان . . . » .

وعند ذهابنا ، وقفت الملكة الميروفينجية العجوز على عتبة قصرها ، ومدت ساعديها المرقوعين ، لتباركنا . ومن الشجرة الكبيرة كان ثلج الكابوك الحريري يتساقط بمهابة ، ويعلق بعباءتها الخضراء ، ترن من تحتها عقودها في السكون .

في متحف القاهرة ، كان الموتى هم الذين يتكلمون . وكنت أدرك لماذا أتذكر الملكة سيبيث . كانت شجرتها تذكرني بشجرتي الجوز اللتين لم أنسهما ، ولكن هاتين تتآلفان مع إيقاع الحياة البشرية ، بينما الشجرة المقدسة توحي إيقاعاً أرضياً ، يعبر الانسان فيه مثل الفراشة . والاحساس الذي اجتاحني هو التعبد أمام الختم الذي ترمز به الآلهة المجهولة إلى تجسيدها (نسيت أن هيلين الاسبرطية كانت دوحة ثم تجسدت . . .) ولم أكن قد التقيت بشيء

يشبه ذلك أمام الآلهة التي رافقت الملكة نفرتاري إلى العالم الآخر ، ولا حتى أمام آلهة العودة الأبدية ، وهي لا تكاد ترى في ليل رمسها بالكرنك . التقيت بما يشبه ذلك أمام أبي الهول فقط . ولكن من خلال أبي الهول كانت آلهة مصر هي التي توقظ شجرة الملكة وما بها من جلال الجبل . ولم أكن أشعر فقط بأن حورس وأنوبيس قد فقدا روحيهما ، مثلما ستفقدها الشجرة المقدسة عندما لا تغدو سوى شجرة ميتة تطويها الغابة . الآلهة لا يموتون لأنهم يفقدون سلطانهم وملكهم ، ولكن انتماءهم إلى مجال كانوا يوحون به يستعصي على الفهم أبداً . سيان ولدوا من العالم الآخر المصري أو ولد منهم ، فهم إذا ما انتزعوا منه كانوا مثل الأسماك خارج الماء ، لا يزيدون عن شخصيات الحكايات والتماثيل . ماذا تهم تفسيراتنا المتتالية لحورس وأوزيريس ؟ ليس للآلهة معنى ان لم يكن للأولمب معنى ، ولا لأونوبيس المحنط ان لم يكن لعالم الأموات معنى . كل اله من الآلهة كان منتسباً إلى عالم الحقيقة الذي عبده البشر ولا يمكن ان نمسك به . ان مصر أعادت أوزيريس إلى الحياة بصلواتها ، ونحن أعدناه بشكله وأسطورته ـ بكل شيء ، ما عدا الصلاة . فلم يكن يبعث في « الحقيقة » ولا في « المجهول » ولكن في القاعات الباهرة لعالم الفن الذي أعقب قروناً عدة حملتها سفينة فراعنة رست عند الباشوات . ومضى التحول الذي طرأ على « أقران » الحضارات ، يتزل الدرج الحزين في متحف القاهرة ، بين باروكات الكهنة وجلود الفهود تتلألأ بنجوم من ذهب ، عبر مقبرة الآلهة .

في مدى سنوات ، سوف يصبح كل عمل رئيسي ، بعد عزله وإضاءته ملكا لقاعات بيضاء في متحف القاهرة الجديد . ومن العالم الآخر حتى عالم الأشكال ، يكون التحول قد تم . وهناك بالقرب من القلعة ، سيتلقى الآيات النائمة الآن في الوبر الفيكتوري ، مبنى من الزجاج أو قصر أمير سوف ينافس متحفي الرباط ودمشق المزهرين . ومن خلال ألواح الزجاج الرحيبة ، سوف تتطلع الوجوه الشهيرة ، من خوفو حتى الملكة نفرتيتي ، إلى مدينة الموتى ـ وكأن العالم الاسلامي قد ظل يشيد طوال قرون أوسع جباناته تكريماً لمقابر الفراعنة . وعلى جلود الفهود المكللة سوف تلمع النجوم الذهبية الكبيرة برفق في ظل مدروس ، وقد أفكر عندئذ في هتلر وفي عرافه ، وفوق جدران النحوت الغائرة ستسيل مركبة الأبد بين أدغال البردى . وتنفصل الأهرام في البعيد رغم ضباب الرمال برعشة الحر فوق النيل مثل أيام العابدين للشمس .

وتكون الملكة سيبيث قد ماتت ، وتحت شجرتها تعمل ملكة أخرى كتبت لها النجاة من طقوس التعذيب ، وبالقرب من مكسيكو ، فوق ميدان القمر حيث تلعب المعابد الصغيرة لعبتها المنسية عند أقدام الهرم الأخرى ، ستخلع الريح قلاع التراب فتتمزق وهي تحوم مثل البخور على الدرج العمودي في الكنائس الهندية ، وعلى القناة بجوار الحديقة التي أنشأها مونتزوما واكتشف فيها الفاتحون العدد العديد من « الأزهار الجميلة والحيوانات الفريدة والأقزام المكتسين » ، سوف تهتز غندولات السياح الزائفة الفارغة ، أمام قارب بائعة ازتيكية محمل بالبنفسج ، وسوف تتقدم

بعثة آثار تشق طريقها بين جثث القرود التي أبادتها الكوليرا . وسوف يتحدث « الاخوة الصغار » بهدوء إلى موتاهم ، إلى شعلات اللهب ، وسوف ينظر أموات مصر المهجورون إلى « أقران » الحضارات يهبطون درج المتحف الجديد الذي قد يحشر الطيور المصبرة مع مومياءات آبي قردان . ومن حلفهم يهبط اله التحول الأعمق الذي أحال مملكة الموت إلى متحف . فإذا كنت على قيد الحياة ، فسوف أعود لأرى متحف الوبر والتراب . وفي الجانب الكبير من السماء حيث يدور الطائران الكاسران ، سوف تحوم طيور أخرى من حدآت حوريس ، وفي طيبة ستختلط المهمهمة الجنائزية القديمة بانطلاق الأجنحة في معبد رمسيس مليئاً بالعصافير .

٣

١٩٣٤ ، سبأ / ١٩٦٥ ، عدن

كيف أدخلت في رأسي ، منذ ثلاثين سنة ، أن أعثر على عاصمة ملكة سبأ ؟

كان للمغامرة الجغرافية عندئذ فتنة فقدتها . ويرجع مجدها الذي شهدت به روايات عديدة ، إلى أيام « الفترة الجميلة » ، وكان قد مر على أوروبا قرن جهلت فيه الحروب الكبرى . كان القرن الثامن عشر والعقود الأولى من التاسع عشر مفعلة بالمغامرات التاريخية كالتي قام بها كليف وديبلكس ، وبالمستكشفين الأوائل ، لكنها نظرت إلى جوابي المجهول بفضول وجد ما يشغله ويلهيه . كان غوبينو قائماً بالأعمال في طهران عندما استضاف الأوروبية التي سارت على اقدامها من القسطنطينية إلى بخارى ، وهي عائدة من سمرقند ، ولم يدهشه قط أن ينصرف جل حديثها إلى ما بذلته من عناية في المحافظة على بكارتها . كان لهؤلاء المجانين والمجنونات منظر وهيئة ـ حتى جاءت الرومانسية وقامت الالفة بين الاوروبيين و « أقاصي » الأرض وراء الجبال فحورت من شخصياتهم وانتحلت لهم وجوهاً جديدة . وأصبحت المغامرة العظمى هي النفاذ إلى عالم محرم . وكانت شهرة الجزيرة العربية ترجع إلى المدن المقدسة ، وإلى

الامارات المستقلة التي عملت انكلترا على ضمان عزلتها ؛ ان باخرتنا متجهة نحو عدن التي ذهب منها رمبو إلى الحبشة ، وقادمة من جدة التي قصد منها ت . أ . لورانس إلى صحراء العرب .

فيم كانت ، ولا تزال ، شاعرية سبأ ؟ الملكة بلقيس ؟ قليل من النساء قد دخلن التوراة ، وقد جاءتها من المجهول ، يفيلها المتوج بريش النعام . وفرسانها الخضر على الخيول البلق ، وحرسها من الأقزام ، وأساطيلها من الخشب الأزرق ، وصناديقها المغطاة بجلد التنين ، وأساورها الابنوسية (أما الحلى الذهبية ، فكأنما السماء تمطر بها !) ، والغازها ، وظلها الخفيف ، وضحكتها التي عبرت قرون الزمن . مملكتها تنتمي إلى الحضارات الضائعة . أطلال مأرب ، سبأ القديمة ، موجودة في حضرموت جنوبي الصحراء ، شرقي عدن . لم يتسن لأوروبي أن يدخلها منذ أواسط القرن الماضي ، ولا لبعثة آثار أن تدرسها ، ولا علم بموقعها إلا من الأقاصيص التي تروي عنها . وكان هذا كافياً لتحديد مكانها بالطائرة ، إذا تم اعداد بعثة الاستكشاف بعناية ، ثم لتصويرها ، حتى ولو تعذر إنزال الطائرة في المنطقة المرادة . وكانت انكلترا لا تستحسن الطيران فوق أراضيها ، فينبغي الاقلاع من جيبوتي . وكان تحت يدي طائرة ذات محرك واحد ، يعيرني إياها بول لويس فيلر ، بسخاء وثقة ، وتستطيع أن تحلق لعشر ساعات ، إذا حسبنا احتياطيها الاضافي من البنزين (كانت مأرب على بعد خمس ساعات من جيبوتي ، وعلينا أن نجدها ؛ ولكن العودة قد تكون يسيرة ، ويمكننا الاهتداء بشاطىء افريقيا) . ولم أكن سائق طائرة . حاولت

أن أجس مرموز وسانت اكزوبيري ، ورفضت شركة الطيران . وكان سيتزن وبورشاردت قد لقيا حتفهما وهما يحاولان الوصول إلى مأرب برا . والأرجح أن يطلق علينا الرصاص . وكانت الخزانات الاضافية تحت الأجنحة ، ولكن من المستحيل تقريباً إصابة الطائرة بالبنادق التي يمتلكها العرب . وافتتن كورنيليون بالفكرة ولم يكن تابعاً لأية شركة طيران . لقد مات مرموز وسانت اكزوبيري في البحر ، وقد أنبت عن الجنرال ديغول عند دفن كورنيليون في الانفاليد .

ما الذي أغراه ؟ الصداقة ربما ، وحكم شركة الطيران « بعدم الجدية » على هذه البعثة ، وأخيراً ، الرومانسية .

منذ أكثر من ألفي سنة ، وهذه الأرض أرض أسطورية . كانت أرضاً أسطورية لروما ، وللتوراة ، وللقرآن ، وهي أرض أسطورية لقصاصي الحبشة وفارس . وقد سمعت الرواة الفرس ، أيام أن كانت القوافل لا تزال تعبر الميدان الكبير في أصفهان (يتقدمها دليلها الحمار الصغير بقلادة من اللآلىء الزرقاء ، بين رنين الجلاجل ، وكل مسافر يحميه الحجاب الأنجع : ذيل الثعلب أو حذاء طفل مسيحي) ، سمعتهم يقصون كيف تاه جيش ايتوس غالوس الروماني وهو يبحث عن الشاطىء بعد رسوبه أمام سبأ . وكانوا يقولون « ما أوحشها من صحراء ! » وفي رأيهم أن لعنة قراء النجوم هي التي أضلتهم الطريق . وحقيقي أن الفيالق الرومانية هامت ، لمدة أشهر ، في المفازات الموحشة ، يضلها أدلة وزير النبط ، إلى بعد أقل من مئة كيلومتر عن الشاطىء الذي كانت فيه

نجاتهم . ولم يجدوا إلا البحر الداخلي ، بأمواجه الساكنة وشطآنه تغطيها القواقع الزرق .

ومثلما فعل خشريش الذي جلد بحر ايجه بالسياط ، قرر جنراهم ، عوضاً عن المدينة ، أن يمتلك البحر . أصابه الاله الشمس بمس الجنون ، فحلم بأن يدخل الكابيتول بجيشه محملاً بالقواقع يرى فيها روح هذا البحر الذي لم يسبق لرجل روماني أن شاهده . فرتب جيوشه في نظام المعركة ضد الأمواج . واقتحم فرسان روما الماء الفائر على صوت النفير ، وانحنى كل جندي ، بذراعه في الشمس ، فملأ خوذته من القواقع ، وذهب ، دون أن يخرج عن مكانه من الصف ، وهو ممسك بهذه الخوذة المليئة بالودع والمحارات ذات الخرير ، نحو روما ـ ونحو ضربة الشمس القاتلة .

ولمدى قرنين من الزمن ، ظل المسافرون العرب يشيرون إلى جيش من الدروع والهياكل ، غاص أفراده في الرمال كما غاصوا في البحر حتى الصدور ، وامتدت أيديهم نحو الشمس عندما تغرب ، تهب الموتى الصحراء بكل اتساعها ، وتلقي في أغوار الرمال المسطحة بهذه الظلال الفيلقية وبظلال بعض الأيدي المفتوحة فوق الخوذات الساقطة ـ مفتوحة بأصابعها المتطاولة إلى ما لا نهاية على الرمال ، مثل أصابع النجيل .

هذه المنطقة تلعب دوراً كبيراً في الخيال الشعبي الفارسي ، وربما كان ذلك لأن يمني الجبال شيعيون . وكان رواة أصفهان (لم يعد هناك رواة في ميدان أصفهان . . .) يصفون ميتة سليمان ، التي جهلتها التوراة .

كان سليمان قد ترك أورشليم منذ سنين ، وتبعه الجن في الصحراء وقد أذهم الخاتم الذي لا يمكن غير الموق أن يقرأوا حرفه الأخير . وفي بعض أودية سبأ ، أخذ الملك الذي كتب أعظم قصيدة يأس ، يرقب وقد عقد يديه تحت ذقنه واتكأ بهما على عصاه ، يرقب الجن الذين صرفوا سنوات عديدة يشيدون قصر الملكة . ما عاد يأتي حركة أبداً ، بل راح فقط يسيابته إلى الخاتم المقتدر . وكمثل ظلال الجنود الرومان المدفونين إلى النحر في الرمال ، كان ظله كل مساء يمتد إلى أقاصي الصحراء ، والجن في الرمل دائبون على العمل ، يحسدون الأحرار من اخوتهم المنطلقين عبر الصحراء هادرين بخراطيمهم .

وجاءت حشرة تبحث عن الخشب . ورأت العصا الملكية ، وانتظرت حتى اطمأنت ثم بدأت في حفرها . وسقطت العصا والملك ، تراباً : كان سيد الصمت قد أراد أن يموت واقفاً ليخضع للملكة إلى الأبد ، كل الشياطين الذين يحكمهم . ولما تحرروا من السيطرة انطلقوا إلى المدينة . فوجدوها خراباً ، أما الملكة فقد ماتت منذ ثلاثمئة سنة . وبحثوا عن قبرها ، حتى عثروا على النقش المشهور :

« استودعت الورد قلبها المفتون ، وعلقت على شجرة البلسم خصلة من شعرها .

« فالذي كان يحبها يضم الخصلة إلى قلبه ، ويشمله الشجن وهو ينشقها . . . » .

وفروا في الصحراء وقد وجدوا الملكة غير المتكافئة الساقين ،

مدفونة في تابوت من البلور يحرسه ، ساكناً ومرصعاً ، ثعبان خالد .

هذه الأراضي الأسطورية تجتذب هواة العجائب والغرائب . عندما كنت أبحث عن وثائق عن مأرب ، أخبرني شاركو الذي ساقته الصدفة ليرعاني في الجمعية الجغرافية (حيث وجد ولا يزال يوجد ، في أغلب الظن ، قناع الموت الحقيقي لنابوليون) أخبرني بتقارير أرنو ، أول أوروبي وصل إلى مأرب .

كان صيدلياً في الفيلق المصري الذي أرسل إلى جدة فأقام هناك وفتح محل بقالة عام ١٨٤١ ، وسمع أهل البلد يتحدثون عن مأرب ويصفونها بمدينة الأسطورة . فقدم إلى صنعاء مع البعثة التركية ، ووصل إلى مأرب متنكراً ، ووجد هناك ستة وخمسين نقشاً كتابياً ، طبع بصمتها بفرشاة أحذية ـ وبحمار خنثى .

وسحب الحمار من مقوده ، وسار في طريق الشاطىء الأشقر ، وهو يخفي طبعة النقوش . فمن الممكن أن يظنها العرب علامات على مكان الكنوز المخبأة ، ويلاحقه الهوى الفاجع الذي مس كل الذين أرادوا الاقتراب من هذه الأطلال . وتظاهر بأنه بائع شموع (الشمع يكثر في هذه الجبال) واضطر أن يحمي شموعه من شراهة البدو الذين ظنوها صالحة للأكل ، وبدلاً من أن تعينه على الحياة لحقت بضاعته بالطبعات السرية ، في اللفائف المستديرة التي أحكم إغلاقها . ولكي يقيم أوده ، عمل حاوياً ، وأوصل السير العنيد من قرية إلى قرية ، نحو الشاطىء الذي يستطيع منه الفرار ،

وهو يعرض على الأهالي المحليين حماره الخنثى الذي أصبح منقذه . . . وهكذا وصل إلى الحديدة وأصبح بقالاً مرة أخرى قبل أن يتمكن من بلوغ جدة . وعاداه رجل من الدراويش اشتم فيه الكفر فألب عليه الجموع ، واضطر إلى الهرب من جديد ، حاملاً على مركبه النقوش والحمار ، بينما كان أعداؤه يشعلون في الليل ، علامة على الابتهاج ، الضوء المتواضع من شموعه المسروقة .

وكان يشكو من الرمد ، فلما بلغ جدة حيث كان قريسنيل قنصلاً ، كف عن الابصار . وأعطى النقوش لقريسنيل الذي قام بترجمتها وإرسالها إلى « الجريدة الاسيوية » . وطلب من أرنو ، وقد آواه في بيته ، أن يعيد له تصميم سد مأرب ومعابده المطمورة في الرمال . ولم تقو اليد العمياء على أن تخط فوق الورق غير فراشات مشوهة . عندئذ سار أرنو وقد ألقى يده على كتف قريسنيل حتى يقوده إلى شاطىء جدة وهناك تسطح على الرمل الرطيب أمام دليله الذي تحير في فعله ، وأعاد رسم السد بيديه المتحسستين ، وخط معبد الشمس البيضاوي ، وحفر بسبابته ثقوباً مستديرة ترمز إلى قواعد الأعمدة المحطمة . وأخذ العرب ينظرون إلى هذا الرجل الذي يصنع قصوراً من الرمل وقد احترموه أخيراً لأنهم ظنوا به الجنون ، وقريسنيل ينقل إلى مفكرته بعجل المباني التي سيجرفها البحر قريباً ، كأن كل ما يمس سباً يجب أن تستعيده الأبدية .

وقد ظل أرنو عاجزاً لمدة عشرة أشهر . ثم عاد إلى فرنسا ، وأعطى الحمار لحديقة النباتات ، وكلف مهمة إلى افريقيا واليمن . وبعد ألف مغامرة ومغامرة رجع إلى باريس عام ١٨٤٩ ، يحمل معه

مجموعاته . وكانت آخر انتفاضات ثورة ١٨٤٨ قد أودت الدولة في حالة من الفقر والعوز لم تستطع معها أن تشتري شيئاً . ولحق بأرنو قضاء مثل أقضية التوراة واستخف به ، فأنهى أيامه في الجزائر ، فقيراً بائساً ، ومات الحمار جوعاً في حديقة النباتات ، واختفت آخر أشياء سباً وسط المنشورات السياسية في مقبرة الصناديق على الأرصفة . وكانت « الجريدة الأسبوعية » قد نشرت جثمان أحلامه : النقوش والتقرير ـ الذي احترمه الأخصائيون ـ وحيث قرأت : « وعند خروجي من مأرب ، قمت بزيارة أطلال سبأ القديمة التي لا تعرض بصفة عامة غير أكوام من الأرض . . . »

كنت أحب أن أعرف أرنو ، بلحيته الجندي الزواوي ، وبرصاناته وشموعه وبطولته المهملة وبؤسه البسيط الحلو في المغامرة . ربما كنت بغير علم مني ، قد ذهبت إلى سبأ بحثاً عن شبحه ؟ أو شبح حماره الذي كان جديراً أيضاً بحبي ، والذي مات بلا شك بين الدب الأبيض وطائر البطريق ، راضياً بمقامه في فردوس الحمير ، ولكنه لا يدرك ولا يستطيع مطلقاً أن يدرك ، لماذا أمسكوا به أسيراً في هذا المكان وكفوا عن إطعامه .

كنت أنا وكورنيلون ، نردد : « . . . التي لا تعرض بصفة عامة غير أكوام من الأرض . . . » أثناء تجربتنا الأخيرة للمحركات على حقل الطيران في جيبوتي . وكان الطيارون الخريبون يدعون لنا بالتوفيق ، فلقين ولكن متحمسين ، وكنا نتطلع إلى السحب وإلى السماء بروح المنجمين الكلدانيين ، وحذر الرعاة . وذهبنا بلا ظل في ساعة الشروق . ومن خلفنا خليج تاجورة يكسر على المرجان

أمواجه الخفية تقطعها بلا شك الدراقيل الضحاكة . هذه الفرجة الطويلة البنية الممتدة في لا نهاية الغمام والسماء كانت جزيرة العرب ، كمسجد أبيض وجوانب من قصور مبعثرة . عندما كنت صبياً ، بحثت في « دليل البلدان الخارجية » ، عن المدن الرومانسية ، وتحضرني الآن رائحة قهوة وأنا أقرأ : « مؤقة ، قصور رائعة تتحول إلى أنقاض . . . » هنا لجأت سفن سبأ والسفن الفينيقية التي كانت تجلب إلى الملكة ، شجيرات الورد من سوريا تتلألأ بورودها » .

قلق الرعاة ، أعقبته حياة الملاحين القدامى . كانت الطائرة ، منذ ثلاثين سنة ، « سلطعوناً » ضخماً أعمى ، منذ لحظة إقلاعها عن الأرض . الأمان الذي تقدمه الشركات الأوروبية ، كان يأتيها من محطات الارسال ، ولم تكن توجد محطات ارسال في هذه المناطق ولم تكن طائرتنا تحمل جهازاً لاسلكياً . لم يبق إذن ، لتحدد موقعنا ، غير البوصلة والسرعة .

لاحت لنا سحب شتى مثل الألوية الاسلامية وأعقبها ضباب لا يحده بصر لحق بتراب الرمل الذي أخذنا في حوضه ، وعارضتنا الريح فهي الآن تستطيع أن تحرفنا إلى مسافة مئة كيلو متر دون أن تثير البوصلة إلى ذلك . سيان تقدمت الطائرة في خط متعرج أو سارت قدماً في خط مستقيم فإن الابرة تشير إلى الشمال بالطريقة نفسها . والجهاز الذي يقيس الانحراف ، يقيسه بالاستناد إلى الأرض ، والأرض لم تعد تظهر إلا لماماً من ثقوب الضباب . أما السرعة ، فعداد الطائرات السياحية يعلنها « بالنسبة إلى الريح » .

وعدادنا الآن يشير إلى ١٩٠ . ترى ما هي الحقيقة مع هذه الريح العمودية ؟ ١٦٠ ، كما كنا عند الذهاب ؟ أم ٢١٠ ؟ وأخيراً على رأس قمة شبيهة بغيرها من القمم ، ظهر شكل هندسي . وهم آخر ؟ كلا ، بل هي قلعة . وصنعاء هي الوحيدة في اليمن التي تشرف عليها قلعة . وقبل كيلومتر ، مطب كشف لنا فجأة ، عن وادي صنعاء مزروعاً حتى آخر حفائره ـ وفي وسطه ، المدينة بين أسوارها المائلة ، و « روضة » المهدمة وكأنها جلد ثعبان متروك ، ـ صنعاء مدورة ، كلها من الحجارة ، سلة محدبة من البلور الأبيض والعنابي ، في طرف جبالها العمودية .

علينا الآن بالصعود من وادي الخريد إلى وادي المقابر ، حيث كنا نأمل أن نرى الأطلال من هناك . وكان الضباب يذوب . والخريد على ما تقول الخرائط ، قريب جداً ، وراء الأنهار الأخرى . لكننا لم نكن نبصر وادياً قط ، وأدركنا أخيراً أن هذه الجداول المنقطة جداول تحت الأرض ولا خريد هناك . وكنا قد حملنا معنا من البنزين ما يكفي عشر ساعات ، وقد مرت على إقلاعنا خمس ساعات . ولم تعد أمامنا في البر علامة نهتدي بها . وإذا بالغمام الذي كنا نتقدم ونخرج منه شيئاً فشيئاً ، يصبح وراءنا . لقد كنا فوق الخريد . كان نهراً تحت الثرى ولكن في هذه المنطقة المأحلة تقريباً ، كان شريط النبات الأخضر الداكن تخطه الأشجار فوق الأرض ويتبع خط الماء .

وراء الخريد تبدأ صحراء الجنوب الواسعة ، صحراء مملكة سبأ . لم تكن بعد صحراء ذات كثبان طويلة لينة مثل شمال

الصحراء الكبرى ، كانت صخرية أو مسطحة ، عارية على الدوام ، كأنها هيكل الأرض أصفر وأبيض ، تغطى بالظلال ولا بد أنها تموج بالسراب . لا واد ولا قبور . صحراء ترفض كل شكل دقيق وكأنها منذ الآن حرب على عين البشر التي اقتحمت عزلتها الكوكبية . وبدا لنا وكأن جداول لا حصر لها ، نابضة منذ العصور الجيولوجية ، قد حفرت في الرمل وتشعبت مثل الأشجار الجرداء أو شباك الشرايين ، على امتداد الأفق الذي تحجبه الأعاصير . والريح تسقي الرمال والزوابع مطبقة وعند أطراف الشعاب المحفورة نقاب من اللهب . الصحراء كلها غابة تشتعل كأنها مملكة محرمة تسلط عليها عقرب مقدس يحثم في أعماقها ، وتنعكس على فقاره شمس البغضاء تارة ومجرات السماء البابلية . طوراً . على أن الذهن قد أخذ يألف المكان . والعين كذلك : على اليمين أمامنا ما هذه الأنقاض الهائلة من كتل الحصى ؟

وكلما زدنا اقتراباً من الأرض وضحت لنا معالمها . ونحن في طائرتنا المعكوسة نجاهد جهاز التقاط المناظر مثل غلمان المقاهي المهرولين بصوانيهم . لم تعد هي الصحراء ولكن واحة مهجورة ، بآثار من زروعها ، وتتصل الأطلال بالصحراء على اليمين . هذه الأفنية البيضاوية المتراصة ، بأنقاضها الواضحة فوق الثرى ، هل هي المعابد ؟ كيف نرسو عندها ؟ الكثبان من جهة ، فقد تنكفىء الطائرة وتغرز ، ومن الجهة الأخرى أرض بركانية تبرز فيها الصخور من الرمال . وفي كل مكان حول الأطلال ، أنقاض شتى . كنا لا نزال نهبط ونحن نواصل التقاط الصور . والأسوار على هيئة

الحدوة ، ليس وراءها إلا الفراغ . لا شك أن المدينة المشيدة باللبن مثل نينوى ، قد عادت مثلها إلى البيداء . ورجعنا إلى الموقع الرئيسي : برج بيضاوي وأبنية أخرى وميان مكعبة . وعلى البقع الداكنة ترسمها خيام البدو المنتشرة خارج الأطلال ، ظهرت نيران صغيرة . لا شك أنهم يطلقون عليها الرصاص . وبعد الأسوار أخذت تتضح لنا بقايا آثار مليئة بلغز الأشياء التي نجهل غايتها : حرف H هذا الراقد فوق البرج المشرف على الأطلال ، ما معناه ؟ هل وضع ليلائم ظروف الرصد ؟ أم كان سطوح حديقة معلقة ؟ كانت لا تزال كثيرة في صعيد اليمن حدائق سميراميس التي تواضعت وتحولت إلى الخضروات ، لكن تغطيها حشيشة الأحلام ، قنب عجوز الجبل . . . للأسف كان من المستحيل أن نحط عندها ! وارتفعنا من جديد وسرنا قدماً لنحلق فوق طلل آخر ، صغير ، قليل الأهمية ، ثم اتجهنا إلى المدينة من جديد . ومثل أكف شائهة كانت لآلهة أوقظوا في آخرة من الزمن ، بدأ الضباب والسحاب في تغطية هذا الحطام الذي لفظته الأمواج هنا كسفينة بابلية محملة بالتماثيل المهشمة .

بات علينا أن نرجع قبل فوات الأوان . (ولكن الريح كانت تدفعنا) ، ففوق البحر ، عطل البنزين لا يغتفر . وعلى قشرة الصحراء ، امتد شيئاً فشيئاً قوس خنجر مهول ، مصنوع من الصخور البركانية ، قوس يتألق بالفصوص السوداء . كان وادي المقابر الذي أخطأناه من قبل ، وادي « عاد » ، مدفن ملوك سبأ كما تحكي الأساطير . مقابرهم من الأردواز ، تتلألأ مربعاتها مثل نوافذ

المدن ساعة المغيب .

قبل ان تحت هذا الاردواز ، كنوزاً مخبأة . وقد التقيت في ما بعد الألق المدهش المنبعث من المعادن السوداء تحت الشمس المدارية . ان البدو لم يكتشفوا طريق المدافن (لماذا لا يذهبون ليتعلموا في مصر !) ولكننا سواء ، أمام هذا الوادي الذي ما زال مرصوداً لا يُقهر ، فلا هو باح بكتاباته ولا بأسماء موتاه العظام الذين يحيط بهم رفات شعراء الجاهلية :

وحليل غانية تركت مجدلاً تمكو فريصته كشدق الأعلم
سبقت يداي له بعاجل طعنة ورشاش نافذة كلون العندم
برحيبة الفرغين يهدي جرسها بالليل معتس الذئاب العزم
فتركته جزر السباع ينشنه يقضمن حسن بنانه والمعصم

وما دامت أمامنا سنوات قبل أن يأتي بعض النابشين فيلقي بحفنة من الألغاز في وجه الشمس التي قهرت الفيالق الرومانية ، فليظل هذا القبر القائم على اليمن يكبر أمثاله قليلاً : انه قبر الملكة .

ألا نوقظ آلهة سبأ عبثاً ؟ في اليوم الذي نشرت الصحف الصور التي التقطناها للأطلال ، سار جيش ابن سعود إلى اليمن .

كنا قد لحقنا بجيوشي في الوقت المناسب ، فالبوصلة البدائية التي كانت أعجز من أن تكتشف موقعاً ، لم تكن أعجز من أن تعثر على خليج ناجورة .

وقد أفدت في طريق العودة إلى فرنسا ، خبرة ألفية في ميدان أقل غرابة ولكن أكثر عمقاً من سبأ : لقد التقيت ، لأول مرة ،

بدنيا الالياذة والرامايانا .

لقد ذهبنا من طرابلس إلى الجزائر رغم أن النشرة الجوية لم تكن مشجعة ، وأثناء تحليقنا فوق تونس أصبح الجو يندر بالقلق . ودخلنا في السحاب ، وبعد ممر متساو طويل جداً ، وكانت الخريطة تشير إلى بعض التلال ، ظهرت لنا قمم عمودية ما زال يغطيها الجليد ، فوق السماء التي اشتد سوادها . كانت تلك جبال أوراس .

نأت بنا الطائرة مئة كيلومتر على الأقل . وكنا نغوص في سحابة هائلة واقفة ، لكنها لم تعد في هذا العلو هادئة بلا حراك ، إنما هي قد تجمعت ، حية قاتلة . تتقدم أطرافها إلى الجهاز وكأنه قد انحفر شيئاً فشيئاً في مركزها . ولاتساع البراح وبطء الحركة ، لم نرها يعد لحدوثه وكأنه معركة بين وحشين ولكنه القضاء النازل . وتراءت أطرافها المنسولة صفراء وقاتمة ، كمثل مرأى الرؤوس في البحر الضبابي ، تائهة في سديم رمادي بلا حدود لأنه منفصل عن الأرض : كانت نسالة السحابة قد تسللت تحت الطائرة وألفت بي في مجال السماء الذي اغلقته وسدته نفس الكتلة الرصاصية . وخيل إليّ أني تخلصت من الجاذبية ، وأني معلق في مكان ما من الأكوان ، معلق بالسحاب في معركة بدائية ، بينما الأرض من تحتي توالي مسارها الذي لن التقي به أبداً واجتاح الظل جوف الطائرة ، والجهاز الصغير أصابه السعار وهو مشدود إلى السحاب الذي أسلم قياده فجأة لقوانينه وحدها ، فأصبح المشهد كله خارجاً عن واقع الأشياء ، تغمره أصوات الأعصار البدائية . ورغم تمايل الطائرة التي أخذت تصطدم بكل هبة ريح وكأنها أرض صلبة ، كنت

ملتصقا بهذا المحرك الأعمى الذي يجذبني الى الأمام ، لولا اني فوجئت بالطائرة وهي تهتز .

صحت :

ـ سحابة من البرد ؟

من المستحيل ان أسمع اجابة كورنيليون . الطائرة المعدنية ترن مثل الدفوف فوق قعقعة البرد على زجاج النوافذ : بدأت حبات البرد تدخل من فجوات السقف ، وتلدغ وجهنا وأعيننا . وبين خفقتي جفن ، كنت أراها تنحدر على الزجاج لتشب من جديد على شقوق الصلب . واذا انفجر الزجاج ، استحال توجيه الطائرة . فضغطت بكل قوتي على مصراع النافذة وأبقيته ثابتاً بيدي اليمنى وخط الطيران لا يزال إلى قلب الجنوب . وبدأ المؤشر يشير الى الشرق . صرخت « الى اليسار ! عبثاً . الى اليسار ! » أنا لا أكاد اسمع نفسي ، تهزني ، وتنزعني ، وتغمرني حبات البرد المتطايرة التي تصطفق فوق صوتي ، وتلهب الطائرة وثباً مثل السياط . وبذراعي الطليقة ، أشرت الى اليسار . ورأيت كورنيليون يدفع المقبض كمن يريد أن يكسر على ٩٠ درجة . وفي الحال ، نظرنا الى البوصلة . الطائرة تسير يمنة والموصلات لا تجيب . وارتعشت الطائرة ، على امتداد جسدها ، وسكنت فجأة في اختلاجة قاسية . البرد ، والضباب الأسود لا يزال هو الضباب ، والبوصلة هي الشيء الوحيد الذي يربطنا بالأرض . وهي تدور ببطء نحو اليمين ، وتحت وابل أشد ، بدأت تحيد وتحيد حتى دارت على نفسها دورة كاملة . ودورتين . وثلاثاً . وفي مركز الزوبعة ، الطائرة تنبختر وتدور منبطحة على نفسها .

إلا أن الاستقرار بدا كأنه الاستقرار نفسه ، والمحرك يصر على انتزاعنا من الزوبعة. ولكن هذا العدّاد الذي يدور كان أقوى من أحاسيس جسدي كله ، فهو يعبر عن حياة الطائرة كما تعبر العين التي ظلت نابضة عن حياة المشلول . كان يسراني هامساً بالحياة الأسطورية الضخمة التي تهزنا مثلما تميل الشجر ، وكانت العقبة الكونية تنكسر بدقة في دائرة المتناهية الصغر . وقد تشنج كورنيليون على المقبض ، وهو في أقصى حدود الانتباه ، ولكن وجهه كان وجهاً جديداً ، عيناه أصغر ، وشفتاه أشد انتفاخاً ـ وجهه أيام الطفولة ، ولم تكن المرة الأولى التي أرى فيها الخطر يلقي على وجه انسان قناع طفولته . وشد اليه المقبض فجأة ، فتربصت الطائرة . وانحشر مؤشر العدّاد في الزجاج . لقد أخذنا من أسفل كما تأخذ الحوت موجة من الأعماق . ما زال للمحرك ذلك الشهيق المنتظم ولكن معدتي قد غاصت في المقعد . انقضاض أم صعود ؟ بين صفعتين جديدتين من البرد ، عدت الى التنفس . ولاحظت اني أرتعش ، لا من يدي (فقد كنت لا أزال أثبت السافدة) ولكن من كتفي اليسرى . وما كنت أتساءل هل عادت الطائرة إلى وضعها الأفقي ، حتى ضغط كورنيليون المقبض إلى الأمام وقطع الغاز .

كنت أعرف المناورة : الهبوط والاستفادة من ثقل السقطة لاختراق العاصفة ثم محاولة استعادة الوضع بالقرب من الأرض . مقياس الارتفاع يشير الى : ١٨٥٠ لكي أعرف مدى دقة مقاييس الارتفاع . ها هو يشير الى : ١٦٠٠ ، والعقرب يتأرجح كما كان عدّاد البوصلة منذ حين . اذا وصل الضباب حتى الأرض ، أو إذا

كانت الجبال لا تزال تحتنا فسوف نرتطم ونسحق . والآن وقد كفت الطائرة عن صلبيتها في المعركة ، كفت كتفي عن الارتعاش ، وتجمعت حواسي كلها ، بطريقة هي في منتهى الدقة ، طريقة حسية : كنا نقبض بكل ثقلنا ، ونلف مقطوع ، خارقون الرياح خرق النسيج ، في ضباب الآباد وآخرة الدنيا، الذي يعيش متوحشا على صوت البرد المتمزق .

١٠٠٠، ٩٥٠ ٩٢٠، ٩٠٠، ٨٧٠ . . .

٨٥٠ . أحسست بعيني أمام رأسي ، عيني اللتين جن فيهما الخوف من مداهمة الجبال . ـ غير أني في ذروة الحماسة العظيمة . ٦٠٠، ٥٥٠، ٥٠٠ .

٤ ـ ظهر السهل ، لا محاذياً للافق ولا أراه أمامي كما كنت أنتظر ، ولكنه بعيد ومنحرف ، وترددت أمام أفق الـ ٤٥° الذي لا يمت الى الواقع (كانت الطائرة هي التي تسقط مائلة) وإذا بحقيقة الحال ، يعيها كل كياني ، وكورنيليون يحاول أن يصحح الوضع . كانت الأرض بعيدة جداً وراء هذا البحر من السحب المنحطة وندف من التراب والشعر ما ان تنعقد علينا حتى تنفتح من جديد ، وعلى بعد مئة متر تحت الطائرة ، انشقت الأرض من أطمارها ، عن منظر من هباء الرصاص ، وشظايا سوداء من تلال صلدة حول بحيرة غبراء تفرعت زوائدها في الوادي وعكست بهدوء جيولوجي السماء الخفيضة الشاحبة .

وتجرجرت الطائرة تحت الأنواء ، نصف منصرعة ، على بعد خمسين متراً من الذرى ، ثم فوق كروم باهتة ، وفوق البحيرة ،

والماء يرتعش بموجات من لطم الرياح . أخيراً تخلت يدي عن النافذة وتذكرت أن خط الحياة في كفي طويل . وعلى هذه الأرض التي بدت فيها الأنوار المتزايدة كأنها تنبثق من ضباب الشتاء المختلط بالليل ، لاحت الطرق والجداول والقنوات مثل الندوب ، لا ترى العين فيها إلا شبكة من التجاعيد على يد هائلة ، تمحي شيئاً فشيئاً .

كنت قد سمعت قائلاً يقول : ان التجاعيد تمحي من يد الموتى ، فكأني أردت أن أرى هذا الشكل الأخير من الحياة قبل اختفائه ، فأخذت أتطلع طويلاً إلى راحة أمي الميتة : رغم انها لم تكن قد تجاوزت الخمسين ، وأن وجهها بل وظهر يدها محتفظان بشبابهما ، كانت راحة يدها راحة امرأة عجوز ، بخطوطها الرقيقة الغائرة ، المتشابكة بلا نهاية . وكانت تختلط بكل خطوط الأرض التي استهلكها الضباب والليل . كان هدوء الحياة يصعد من الأرض وهي لا تزال شاحبة ، نحو الطائرة المنهكة التي يلاحقها المطر كأنه صدى للبرد والعاصفة المرتدين الى الوراء ، وكأن طمأنينة هائلة راحت تغمر الأرض التي لقيناها من جديد ، والحقول والكروم والمنازل والأشجار وعصافيرها النائمة .

●

هناك التقيت ، للمرة الأولى ، بتجربة « العودة الى الأرض » ، التي لعبت في حياتي دوراً عظيماً ، وحاولت أن أنقلها مراراً . لقد نسختها مباشرة في « زمن الاحتقار » . وهي كذلك تجربة كل انسان ، يستعيد اللقاء بحضارته بعد أن يكون قد ارتبط

بأخرى ، تجربة بطل « الأليتيرغ » عند عودته من افغانستان ، وتجربة ت . أ . لورانس (ولو أن لورانس يقول انه لم يرجع انكليزياً كما كان في الماضي) . ولكن اذا كانت الدهشة كما هي ، فان الموت أشد غربة علينا من البلاد العربية . وبخاصة عندما يرتبط بالعناصر الأولية . حاربت في ما بعد في الطيران ، وأعرف ما يعنيه عجزك ـ ثلاث ثوان ـ عن اطلاق النار على الخصم . . . لأنه أول عدد تبدو لحيته من تحت القناع ، فتستحيل المعركة جريمة قتل . ولكن القوى الكونية تطلق فينا كل ماضي البشر . لقد هبطت هذه المرة الى الأرض في بون . وفي الحال ، هلل بعض ابناء الجنوب لـ « عرضنا الرائع » : حسبونا آخرين . وكان هناك على جانب الطريق ، باب بلا حاجز ، مثلما نرى في أفلام شارلي شابلن ، وفوقه اعلان بحروف كبيرة « أطلال هيبونا » . وفي المدينة مررت أمام البد الحمراء الضخمة التي كانت يومئذ رمزاً لتجار القفازات . والأرض آهلة بالأيدي ، وربما كان في استطاعتها أن تعيش وحدها وتعمل وحدها ، حتى دون البشر . وأنا لا أستطيع التعرف على الذكاكين وعلى واجهة فراء تضم كلباً صغيراً أبيض يتسكع في وسط الجلود الميتة ، يجلس ويقوم : كائن حي ، طويل الشعر ، طائش الحركات ، ليس انساناً . حيوان . كنت قد نسيت الحيوانات . وكان هذا الكلب يتنزه في هدوء تحت ظل الموت الذي ما زال يعاودني دويه : كان يصعب عليّ ان أفيق من نشوة العدم .

ما زال البشر موجودين . وقد ظلوا يواصلون حياتهم ، بينما هبطت الى المملكة العمياء . ومنهم الذين يسرهم أن يكونوا معاً

ويرضيهم من الصداقة نصفها ومن الدفء نصفه ؛ ومنهم بلا شك من يحاولون ، في أناة وصبر أو باندفاع وحدة ، أن يستخلصوا من مخاطبيهم قدراً أوفى من الاعتبار ؛ وعلى سطح الأرض أقدام منهكة ، وتحت الموائد بعض الأيدي تتشابكت أناملها . الحياة كأن مسرح الأرض يشرع في العدوية الكبرى ، عدوية مطلع الليل ، والنساء تحلقن حول الواجهات يفوح منهن عطر النزه . . .

الى اعود في ساعة كهذه لأرى الحياة البشرية تنبثق شيئاً فشيئاً ، كما يعطي نتق البخار وقطرات الماء الكؤوس المثلجة . عندما أكون قد قتلت حقاً ؟

●

هي ذي عدن . وما زالت من بعيد ، صخرة رمبو التي لا نعلم حقاً هل هي من أشياء دانتي أو غوستاف دوريه . ولكن بها شار الهيئة التي تتخذها ، في زمن الغواصات الذرية ، هذه الصخور الأمبراطورية لعاهلة البحار القديمة . ومكبرات الصوت تعلن على ظهر السفينة « نظراً للوضع في عدن فان الركاب الراغبين في النزول الى الأرض يتحملون المسؤولية كاملة » . يريد الانكليز أن يجعلوا من عدن عاصمة اتحاد من سلطنات جنوب الجزيرة ، يمنحونه الاستقلال عام ١٩٦٨ . أما العرب الذي يعادون السلاطين ، ويؤيدهم المصريون وينظمونهم في اليمن ، فهم يريدون أن يطردوا الانكليز في الحال .

زورق القنصلية الفرنسية في انتظارنا .

مثلما يحدث في كل مكان من الشرق ، بزغت هنا مدينة جديدة : طرق الاسفلت تمتد على أرض كانت في يوم من الأيام للامبراطورية البريطانية ، تحفها منازل كأنما هي من أميركا الجنوبية ثم لونتها الهند بطلاء أخضر نيلي أو رصاصي أو أزرق رمادي . وفي وسط المدينة ، حديقة مستغربة في هذا الحقل الذي لا تزيل جفافه منازل بألوان شراب الفاكهة : فقد أينعت أزهار الجهنمية والدفلى (هناك لافتة تمنع قطف أوراقها) . وفي قلب الحديقة ، يقوم المتحف الصغير .

هو المتحف التقليدي الذي نراه في المستعمرات الانكليزية . خليط نظيف جداً ، فيه طيور محنطة تقع عيونها المستديرة على مجموعة من زجاج البلور ، وفيه بعض الأزياء ، وأنواع من البلور ، وفيه البقايا الأثرية التي يستحسن أن نتأملها ، جاثين على اليدين والقدمين ، كمثل جلوسنا القرفصاء في متحف التروكاديرو . والنحوت الغائرة المحفورة على صحاف الحجر ، مرصوصة مثل الكتب فلا نرى منها غير الكعوب . ولكن هناك ، عند ارتفاع ركبتنا ، شخوص كثيرة من المرمر ، هي أعظم مجموعة من تماثيل سبأ ، تفوق القسطنطينية وتفوق فيلادلفيا .

يحملها البدو إلى هذا المكان ، تمثالاً بعد آخر ؛ وكان بعض الأثرياء من تجار العرب قد جمع عدداً كبيراً منها وأوصى بها للمتحف . ذلك أن سبأ ، أو مارب ، سمها كما تشاء ، لا تزال في أيدي الانفصاليين . لقد صمدوا للأمراء وللبمنيين وللمصريين - وصمدوا ، وكان ذلك أصعب وأدهى ، لناقلات البترول التي

فشلت حملتها الأخيرة . وصمدوا للانكليز . لا بد أن أولئك قد عرفوا قصارى ما يستطيعونه ، ولو عن طريق عملائهم المحليين . ولكن علم الآثار لم يكن في هذه البلاد من كبرى الهموم التي تشغل أقلام مخابراتهم . فهل يقدر لبعثة علمية ، تنظمها عدن المستقلة ، أن تبدو يوماً ما « لغز سباً » ـ اللغز الذي لا يمس ، أقله في هذه القاعات التي يسكنها شبح الصيدلي أرنو ، وطيف حماره . . .

« وأقام رجال دبار كل الأشياء التي صاغتها أيديهم ، تحت حماية الآلهة والأولياء والملوك والقبائل من سبأ ، ودعوا على كل من حدثته نفسه بأن يتلف أو يملخ أو يخلع صورة منحوتة من مكانها أو صنماً واحداً أن يباد نسله ! » .

لو كنت جرباء لأحببت هذه الكلمات المنقوشة . لكنني أحب النقوش التي تتحدث وتروي عن الآلهة المحيرة : مثل سين الاله القمر ، قد نعت بالمذكر ، وهو مؤنث في الميثولوجيات الأخرى ـ وذات بدن الاهة الشمس ، والعزي اله ـ فينوس ، مذكر ، وقد أشارت إليه نقوش كثيرة ، ولكنه لا يزال مجهولاً . وفي هذا المتحف المسكين ، الذي طغت على أزهاره الصغيرة الباسلة مياه الأبار الصقلبية التي يعزى إنشاؤها إلى الملكة بلقيس ، والتي طوقت في حلقان جهنمية ، يحلم المرء بالمزاج الجنسي عند الشعب الذي صور فينوس رجلاً ، ورأى في الشمس علامة الخصوبة والأنثوية ، وفي القمر « أباً » رحيماً سلاماً . هم حمدوا الليل فهل كانت نعمة الليل بنت الصحراء ؟ ولكن الشعوب الأخرى في البادية كانت في العصور نفسها تجعل من القمر الهاً قاسياً . أي مزاج جنسي ، مضطرب أو

نقي ، صبغ على خلاف الآخرين ، تفكير هذه السلالة البائدة ، وقد جاء في أسطورتها التي لم يحققها أي واقع تاريخي ، ان ملكاتها هن اللواتي حكمن دائماً ؟

كان في القسطنطينية ، على هامش مجموعة المتحف ، جملة من الأعمال المزيفة التي تستأهل التقدير ، ولا أراها تقلد الأعمال الأصلية ولكن تبتدع فناً . أما هنا ، فالدمى التي عثر عليها البدو هي حقيقية . وفي دمى معمارية مثل بعض التماثيل السومرية والمكسيكية التي كان الشخص منها هو العبد والمعبود والمعبد ، في الوقت نفسه ؛ وتماثيل ملوك « تشبه الأصل » من بعيد ، وهي من تاريخ لاحق ، وربما من تأثير فارثي ، وفي القاعة الثانية ، ملك عظيم الشوارب ، معروض أمام نسيج من المخمل الأسود مثنى من أوساط الخروف . كم من القرون انقضت بين تلك الصياغة الخوشية وهذه الوجوه التي تشبه من بعيد الوجوه الرومانية والفارثية والتدمرية والتي راحت البطاقات الساذجة البريئة تمتدح لنا « رقتها » ؟ وماذا يهم ؟ انهم آخر مبعوثي الملكة التي ملأت التوراة بعطورها ، والتي لم يبق منها غير ضحكة يتردد صداها في الفلوات : « فاضحك إذن يا راهب الصومعة » .

هل نقب في ناووسها لصوص المقابر ، ولم يبق من مومياتها المبيعة غير عين سقطت ، مثل عين فرعونة متحف القاهرة ، التي عثر عليها فوق درج المقبرة بين مومياءات التماسيح وقطط كبيرة الأذن ؟ هل نجد القناع الرقيق الذي غطى وجهها ساعة الموت والتجاويف الطائشة التي أحدثتها الأصابع عندما غرزت في المعدن

لتحفظ طابع وجناتها وهي لا تزال دافئة ؟ أم نعثر على سلخة ذهبية لم يحكم تلبيسها ، مثل التي كانت في متحف أثينا القديم فوق البطاقة المتربة المغتصبة : « قناع أغاممنون . . . . » .

ومن بين الطرائف طرفة ليس لوجودها في هذا المكان تفسير خاص . هي قطعة ذهبية من فئة المئة فرنك برسم نابليون . أفكر في قناعه بالجمعية الجغرافية ، يغشاه الظل خلف شاركو . أيام كان يحدثني عن أرنو . هو أرنو الذي كتب أنه عندما بلغ مأرب ، سمع عن رجل أبيض وصل إليها قبله : ما زال العرب يذكرون لونه الأبيض ومروره المستغرب . ظنوه المهدي المنتظر فقضى الأمسية عند شيخهم ، وأعطى الذين أحاطوا به إحدى عشرة قطعة ذهبية كبيرة . وبعد صلاة المغرب ، ورغم أنه لا يعرف أحداً ، حملوا إليه رسالة . قرأها وقال « مات أخي » ، ونهض قائماً ، ورحل . وفي الغداة ، عثروا حول التمثال الوحيد في الأطلال ، وعند أقدامه المهشمة الضخمة ، على أحد عشر « شبحاً للقطع الذهبية » . وسرعان ما علموا أن المسافر المجهول قد اغتيل على يد قبيلة مجاورة .

وطلب أرنو أن يحضروا إليه قطعة منها : كانت من فئة المئة فرنك الذهبية ، مع رسم نابوليون . وكانت العشر الأخرى لا تزال في سوق مأرب ، رغم أن الأيدي تداولتها كثيراً ، لقد حرم الشيخ دخول صنعاء على ذهب هذا المسافر الذي بدا كأن في حوزته علم سليمان . وطلب أرنو أن يرى الشيء الذي أطلق عليه العرب « شبح » العملة ، فجاؤوا ببرشام للختم . وبرشام الختم كان

مجهولا في الجزيرة العربية ، فلا بد أن المسافر هو الذي أتى به . فما الذي حمله ، بعدما وزع قطع العملة ، على أن يخترع أشباحاً ؟

أريد اليوم أن تهدي سبأ التي لم ينتهك حجابها بعد ، إلى هذا المغامر الذي ظهر لبرهة من الزمن ، فما برح أن لقي مصرعه فيها . وهو بلا ريب لا يملك قبراً ، لأنه من هؤلاء المغامرين الذين فتنوا بأهواء الصدفة وإلى الصدفة عادوا . فليلعب ، حيثما كانت عظامه ، مثلما يلعب الموتى الذين ظلوا طوال حياتهم شجعان مستخفين بالأخطار ، مع أسطح سبأ الخالية من الزهور ، ومراصدها التي أضحت تراباً ، ومخازن عطورها ، وما بها من أطلال ترعشها الوحشة تحت وسم الطيور الصامت ، حتى يمسك كلانا ، في أيدينا وهي ظلال ، لغزاً من آخر الألغاز ، يؤاخينا في ملالة الموت التي لا تنتهي .

حارس مهذب يطلعني من فرجة النافذة ، على الآبار المنسوبة إلى بلقيس . ويقص عليّ حديث الملك أكرم الذي هرب مع قومه بعدما رأى في ليلة من الليالي ، فأراً يزلزل بأقدامه الصغيرة صخرة من سد مأرب لم يكن في مقدور عشرين محارباً أن يزعزعوها من مكانها ، السد الذي أدى دماره إلى تسليم ثروة مملكة سبأ وحياتها ، للرمال . . .

وسيان غدت مدينة محرمة أو مفتوحة ، مدينة من الأطلال أو من الطوب المضروب بالصلصال مثل نينوى ، فإني لن أرى مأرب من جديد أبداً . ها هي تماثيلها ونقوشها وربما أزهارها . شجرة المر ، أمام المتحف ، تختلط بنخلة من الزنك كانت عند قيام طائرتنا

الشجرة الوحيدة في جيبوتي - وهي الآن مدينة . . . - بقطعانها من الماعز ورعاتها السود على بياض حقول الملح ، وشعاع أخير من الشمس على حديد رماحهم . ها هو النجاشي في قاعة العرش وقد جلس على أريكة من محلات « غاليري لافايت » ومن حوله الرسميون بالعباءات . ينطق المترجم اسم كورنيليون . ابتسامة النجاشي حزينة ، وزئير آساد يهوذا يدخل من النوافذ . أقفاصها تحيط منذ قرون بالممشى الكبير في قصر ملوك الحبشة ، الذين ينسبون إلى ملكات سبأ أصولهم الأسطورية . . . هذه هي الصحراء ، غمامها بلون الرمال مثل أطلالها . وسليمان ميتاً يحيط به جنة الغيران من الروابع العاصفات على هواها . وصيحة عظيمة تطلقها الملكة التي تعزف بالقيثارة تحت مجرات تحمل أسماء الحشرات . . . هو شعر الأحلام الميتة . لأن هناك أحلاماً قد انهارت واستحالت تراباً ، ومنها على سبيل المثال المتوحش الطيب ، هناك فراديس لم تكن لتقهر ، مثل العدالة ، أو تليدة مثل الحرية ، والعصر الذهبي ودنيا من الأحلام ، رمادها يصبح شعراً كما يصبح رماد الأفحة ميثولوجيا : هناك الفروسية وألف ليلة وليلة . . . أما العوالم الأخرى التي تقصر عنها ، فهي تختلط جميعاً ، تختلط أطلال مأرب بأطلال ستاد نورمبرغ ، وذراعين من الحجارة تحملان النيران كان يقف بينهما هتلر ليناشد ألمانيا في الليل . وتختلط باللهب العظيم في محاريب المجوس القديمة على جبال فارس ، وبغرفة خوفو الجنائزية في الهرم الأكبر ، وبالموت المتربص هنالك في بسراري الأفلاك ، والذي أطلعني على تشابك شرايين الأرض مثل الخطوط

في كف أمي الميتة . وأنا أنظر بتهكم عطوف إلى هذا الحلم المستهلك الذي من أجله جازفت بحياتي ، وأرى المتحف الصغير يستقبله مثلما كانت أزهار النسرين في حديقة كاهن في دمشق ، تخفي شاهد العقيق الذي رقد تحته محمد صلاح الدين . وحدأة فردت جناحيها ، يعبر ظلها أمام الباب ، وكأنه حماية صامتة وبعيدة .

وفراشات يدعونا الحارس إلى تأملها . وأتساءل هل جاءت من سبأ لتدبس على السدادات هنا ؟ أنا أحب أن أتخيل بلقيس تتحنى لسليمان بتحية شرقية ، وعلى أنفها فراشة . وأذكر ملكة كازامانس العجوز واقفة أمام شجرتها المقدسة ، تحت ندف الكابوك الحريرية ، في هذه الشمس نفسها . نحن في الظهر . جاء وقت الذهاب . سيتام المتحف عند أقدام الآبار الماردة ، في ظل أشجاره الجميلة ، لا رائحة فيها ولا قرود .

انفجرت في المدينة سلسلة من القنابل اليدوية . صفارات الانذار تدوي . وصيحات الهرج تضيع في هذا السكون العتيق . وتحملنا السيارة وقد نشر عليها العلم الفرنسي . ازدحام وعربات اسعاف حيث ألقيت القنابل . الطريق الذي سلكناه لندور من حول التجمع ، شارع مسدود . هناك شارع آخر . إذاعة القاهرة في المنازل أطلقتها الأجهزة بأقصى قوتها ، نزار الآن بأن الانكليز يعذبون المناضلين في سبيل الاستقلال . نعود إلى طريق المقر البريطاني . اسمه « المعلى » ، ولكن الناس يؤثرون أن يقولوا : كيلومتر الجريمة . ثمة إذاعة انكليزية تتحدث عن اليمن .

قبل أربع سنوات ، قام امام اليمن ، المتحالف حديثاً مع

الجمهورية العربية المتحدة ، يقطع علاقاته مع سوريا . وفعل ذلك بقصيدة طويلة ضد ناصر .

« فاضحك إذن يا راهب الصومعة ! » .

لوحة للفنان الكسايف خاصة بأشعار [illegible]

المذكرات المضادة

«الزحف الطويل»

١

١٩٢٣ / ١٩٤٥

عام ١٩٢٣ ، كنت أتوقع أن أرى في سيلان صورة عن شمال افريقيا أكثر سطوعاً . وكان تجار المجوهرات قد استولوا على الباخرة عند مرساها مطلقين زئير القراصنة ، وعلى أذرعهم مثل سلال الفتيات ، يستخرجون منها أحجار الياقوت الأزرق المشعة ، بمهابة وجلال ، وكأنهم حراس الحلى المقدسة . وعلى الشاطىء ، النقيت من جهة الرياح الموسمية ، بمنازل كلها خضراء ، وحدائق واسعة تكاد تخلو من الزهور ، والماء يقطر من النخيل بعد المطر . وصادفت عند هبوط المساء ، حي البراهمة . ولمحت الهند فوق ميدان ضيق ، بقامات شيوخها الأشبه بشيوخ هوميروس ، أمام برج تزدحم عليه التصاوير الزرقاء . وطالعت ، في الليل ، بعض المراكب العربية ، بجؤجئها المنقوش ، تحت ضوء عتيق ينبعث من المشاعل التي تتأرجح مثل المصابيح المعلقة ـ مراكب السندباد المنسية .

أما الهند الجنوبية ، فلم تقدر لي معرفتها إلا بعد ذلك بكثير . ولم أكن قد رأيت عام ١٩٢٩ ، إذا استثنينا بنارس ، إلا الهند المسلمة . وكنت قد وصلت إلى أفغانستان (كما ورد في « الانبرغ ») عن طريق طشقند وقد أصبحت سوفياتية ، وترمس

حيث أصحاب القوافل من سمرقند وبخارى ، بعمائم على هيئة القرع ، وأردية مزهرة ، تربعوا تحت الأشجار الشائكة وافترشوا ظلها الهزيل ، وكأنما تخلى عنهم شرق الأحلام أمام حقل الطيران الرومي . وتاهت الساحة المديدة على حافة الفجر . والجو يحدس بالحرارة القاتلة . وأراد قائد الطائرة أن يجتمي منها فنزل إلى البئر ، ورأيته يطلع من هناك ، لا يكسوه غير شاربه ، ثم يركض مع صديق لا يقل عنه عرياً . وكان صديقي أيضاً (بوريس بليناك ! هاها الخ . . .) وأخذ يلهو فوق الأرجوحة ويستنشق الهواء فهي أرجوحة ومروحة ، إذ عليه أن يستعيد لياقته قبل أن يقطع جبال البامير ، فان عدداً من الطيارين قد لقوا هناك حتفهم - لأنهم لم يتأرجحوا ، على الأرجح .

وكانت كابول لا تزال محرمة تقريباً ، إلا أنها فتحت للهنود الذين أحالوها إلى ضاحية من صفيح لمدينة لاهور أو بيشاور . وكنت أتساءل عن لماذا وهل هي بشعة . مثلها . ولكن عند غزنة المكدسة في جدرانها الصلصالية ، أطلت براري اللافندة تأتلف زرقتها الناعمة أحسن ائتلاف مع زرقة السماء ، فوق دعائم البامير في الصباح الباكر . وأفغانستان عام ١٩٢٩ ، هي في ذاكرتي الحرب الأهلية والمغتصب يُسلخ في الماء المغلي (مسكين حبيب الله !) وهذه الحقول الرحيبة الزرقاء ، وعلى جدران الكلس ، في الأسواق ، كل هذه الأحذية السوداء المقوسة ، وآلات موسيقى علاء الدين ، لا يسمع لها صوت أبداً . بقية من الاسلام هي الهيكل الوحيد الذي يمسك من الانهيار هذا الشعب السائر نائماً ، بين أطلاله ، بين عراه

جباله وزلزال سمائه الاحتفالي .

وكنت قد وصلت من موسكو بالطائرة لكني اتجهت إلى الهند عن طريق البر . لقد نسيت اسم النجع الذي نزلت فيه استراحة ملكية فيها حوض رائع يمتلىء بماء تعافه النفس لا يحضرني الآن غير ليل آسيا الوسطى ومزيج من أصوات خيالة الافريديين وشاحناتهم ، وهم يتدحرجون من الجبال ، مثلهم أيام كيبلنغ ، على بعض مدن الأفغان أو الهنود . وقافلة عالم آثار اكتشف بضع مئات من التماثيل الاغريقية البوذية مصنوعة من الجص ، وأخذ يشرح لي براعة العزاب في كي الملابس : الندى يمحو الثنايا والكسر . وفي مكان ما قبل ممر خيبر ، فك التحف التي جاءت بها الجمال من هادا ليستبدل في ما بعد بشرانق اللافندة اللفائف الاوروبية ، وقد يكون أيضاً ليمنع النظر في تماثيله . ولكن الندى ، الندى نفسه ، تغلب عند الفجر على الجص ، بعدما حفظته الرمال لمدة ألف وستمئة من السنين . فحول تماثيل البودافستا الاغريقية التأملية إلى أكوام صغيرة من الجبس تمر بها الجمال وتنظر إليها حيرى وكأنها أرواح سوق أحرقت . ثم الممر ، والميادين المزمنة للامبراطورية البريطانية ، راضية مثل طرق الامبراطورية الرومانية . لقد أمضى لورانس شهوراً في قلعة من هذه القلاع .

وكان طريق خيبر في ذلك الوقت ، من الرموز الدالة على الارادة الانكليزية . وكان سكوت قد كتب وهو يموت في القطب الجنوبي : « وفعلت هذا لأبين ما يستطيع الانكليزي أن يفعل » . وكان الذين « فعلوا » هذا الطريق الملحمي ، لم يموتوا ، لكنهم كتبوا

حقا اسم انكلترا على البامير . وكأن هذا هو مكان المعارك التي دارت ضد الافريديين أو الكافير الذين وقفوا في الممرات وراحوا يهيلون جوانب من الحملايا على الطوابير الانكليزية . هو المكان الذي نجا فيه من الابادة ملازم واحد فأجاب ، بروح اسبرطة وبروح الفكاهة ، عن سؤال : « أين الطابور ؟ ـ أنا الطابور » . أنا أفكر فيكم يا أصدقائي الانكليز الذين قتلوا في معركة لندن وأفكر في صوت تشرشل ليلاً . . . عام ١٩٢٩ كانت انكلترا تبدو كأنها لا يمكن أن تمس ، فلم أكن أفكر فيها .

كانت پيشاور فعلاً عاصمة الحدود . وفي العالم الاسلامي الجبلي الخشن يظهر بذخ الهندسة المقولية ، وهي حيث لا تكون أطلالاً ، تنتمي إلى فن الملاحم وعلى عرائس الحلوى معاً . ثم لاهور وقبر جيهان جير بفنائيه ، الأول من المرمر للمهراجات ، والثاني بجدران من الصلصال حيث تنتظر وتترقب ، في صفوف ساكنة لا حراك بها ، العقبان القادمة من بعض معاقل الصمت .

أكنت في لاهور أم كنت في كشمير ، بالقرب من « الشاه الأحمر » ، عندما شاهدت للمرة الأولى في حياتي ، أطلالاً نباتية ؟ وراء الحدائق التاريخية وسرادقات المرمر الأسود ، كان يمتد بستان هائل وعادي ، فوق حقول الرسم البرونزية الحمراء . ويتكشف لنا فجأة ، من بين أشجار التفاح ، دهليز طوله كيلومتر : هو الممشى الامبراطوري الذي كان يمتد هنا في أيام المغول ، ولم تعد الأشجار تنمو على أراضيه التي كانت مرصعة . وبرغم أن الانسان لا يشاهد هناك انقاضاً ، فان هذه الأروقة الزائلة توحي تألقاً لا يمكن النيل

منه ، بين الأرض والموت ـ كأنه قصر فرساي لا يحتفظ إلا بوجود الفراغ . ان شبح الحديقة هذا ، يتألف في ذاكرتي تألفاً مبهماً مع مرصد جيبور . وما كنت أفكر في علم التنجيم لأن هذا النسق الضخم من البناء الذي هجره الجن يوحي عملاً عصرياً ، يوحي « ماكيت » قصر لفيلم من أفلام ميلييه ، ولا يوحي مجال الأهرام ، فهو مجال أولي ولكنه لا يُقهر . وما كنت أفكر في علم الفلك ، لأن أدوات الفلك عندنا ليست حجرية . ولكن هذه المقاطع من الدرج ، المنتصبة نحو الكواكب ، كانت توحي سماء لا تطال ، مثلما توحي فراعات الشاه الأحمر الحديقة المختفية . وهذه « الدرابزينات » المثلثة الطويلة كانت تتجه إلى أكثر مدن الهند المسلمة بعداً عن الواقع . ليس فقط لأن « قصر الريح » ، وهو أرغن من الحجر الوردي ، غريب علينا غراية الكاتدرائيات على رجل شرقي ، وليس فقط لأن شارعاً بأكمله تتتابع على واجهاته جميعاً لوحات مرسومة تشبه زينة الف ليلة وليلة في أسواق أعيادنا ، وتخفي وراءها المنازل العادية ، بل لأني رأيت فجأة قطيع القردة المكتئبة التي بدت كأنها سكان هذه المدينة الخالية من الرجال ، يعبر الشارع متئداً على مهل . كان الوقت ظهراً وقد أوشك الظل أيضاً أن ينتقل من رصيف إلى رصيف . . . وهناك طريق يؤدي إلى « عنبر » التي ظلت منذ مئتي عام ، بلا ماء . والمعابد وقصور المرمر الأحمر والمنازل التي لا سطوح لها والتي تنمو في دهاليزها عواسج الأزهار البرية ، كل شيء كان يعود إلى العدم ، بين وفرة من الحياة النباتية ، وزحمة من وجوه التصاوير تكسوها راحات النخيل ، وقردة

أخرى تجلس على حافة النوافذ ، وطيران الطواويس يقع في السكون ثقيلاً ، ومدائن أخرى ميتة ، وقلاع أخرى حمراء ، وفوق الدروب دواب أفرطت في الهزال والرقة ـ ثم « تاج محل » حيث أشجار السرو لم تكن قد ماتت بعد ، وكل سناجيبها بذيل قصير وخطين على الظهر . . . وأخيراً « بنارس » وفنادقها مغلقة في هذا الفصل من السنة ، واستراحتها وبعض السيدات العجائز يدرن فيها مراوح « البانكا » طوال الليل ، مثلما كن يفعلن قبل ثورة « السيباي » : وحاراتها بين جدران غالية من الحجر الرمادي ، ومعبدها بتماثيله « الايروتيكية » حيث يبدو « الايروتيسم » كأنه من الطقوس ، ومعبد « هانومان » وشعب من القرود منهمك حول نصب للتضحية ما زال الدم يقطر منه ، وينحرف خائفاً من قرابين الزنبق . وكل ذلك يلفه ضباب من سلالم تيبتية تتربث سحاباتها اللزجة حول اللهب المصان أمام الأصنام . والعالم الذي تقود إليه هذه السلالم اللاواقعية هو في ذاكرتي عالم من الأسوار تغطيها السحالب مثل أسوار الأطلال المهجورة تحت الغابة الكبرى التي تحترق عند أقدامها بلا نهاية أنوار صغيرة ، والحيوانات المقدسة تعبر من خلال الضباب ـ وأرى دائماً ، في إطار باب منخفض ، رجالاً من البراهمة بصدور يسيل منها العرق تحت عقود الياسمين والدم واللنجا [1] والضباب والظل . وفي الأسفل ، نهر الغانج تحت سحابات الرياح الموسمية ، وأكوام الحطب لا تنطفىء في الضباب ، وراهب من

(١) رمز لأداة الفحولة عند شيفا .

الزهاد يرقص ويتلوى من الضحك ، يحدّث وهم العالم ، صائحاً به « أحسنت ! » .

كان هذا مقدار ما توصلت إليه ، عندما قرر الجنرال ديغول في أواخر عام ١٩٥٨ ، وكان لا يزال رئيساً لمجلس الوزراء ، أن يعيد مع كثير من بلدان آسيا ، ومنها الهند ، علاقات كانت أخذت تضعف باطراد منذ عشرين عاماً .

كانت العواطف التي تربطني بالجنرال ديغول قديمة ، رغم أن القصة التقليدية عن لقائنا الأول ، قصة مختلفة ، فالجنرال لم يقل عني في الالزاس ، بكل تأكيد ، ما قاله نابوليون عن غوته ، ذلك لأن الكولونيل برجيه لم يقدم إلى الجنرال ديغول في الألزاس . لقد استقبلني للمرة الأولى في وزارة الحربية ، بعد خطابي أمام مؤتمر « حركة التحرير الوطني » .

عام ١٩٤٤ كان الشيوعيون مصممين على وضع اليد على مجموع تنظيمات المقاومة . وكانت هذه « الحركة » تجمع التنظيمات التي لا تخضع لاشرافهم ، كانت العملية المستهدفة بسيطة . فان ثلث أعضاء لجنتنا القيادية على الأقل يتمنون سراً إلى الحزب ويطالبون بوحدة المقاومة عن طريق الاندماج مع الجبهة الوطنية التي يقودها الشيوعيون بأغلبية كبيرة . وهكذا تقع اللجنة القيادية للمقاومة الموحدة بين أيديهم . وقد أصبح الأمر لزاماً . وكان الجنرال ديغول يلاينهم لأنه مصمم على استخدام كل شيء للنهوض بفرنسا : لم يحدث أي إضراب منذ التحرير حتى رحيله . وهم بالمثل يلاينونه معتمدين على أن الزمن والسوق السوداء كفيلان باستهلاك

كل مجد . وكانوا قد أرادوا أن يسلحوا « ضد العدو الداخلي » ، الميليشيا الوطنية التي أطلق عليها خصومهم ، اختصاراً ، اسم أم أربعة وأربعين [1] . وكان الجنرال يريد تلاحم كل الوحدات المناضلة مع الجيش النظامي ، ضد الويرماخت ، فهو يرى أن الدفاع عن الأمة ، بالجيش أو بالشرطة ، لا يخرج عن اختصاص الدولة . وكان وحده قد عارض تسليح الميليشيا ، فلم تسلح الميليشيا . وقد استقر الشيوعيون على أن يعارضوه في أقرب وقت بوحدة المقاومة الداخلية . وكنا جميعاً نشعر بأن هذا الرهان يعود إلى مجال أكثر غموضاً وعمقاً من المجال السياسي .

وكانت « حركة التحرير الوطني » قد دعتني إلى لجنتها القيادية ، فحضرت مؤتمرها في كانون الثاني ١٩٤٥ . وكان قادة التنظيمات والمناضلون الرئيسيون معادين للرأسمالية ، لعدم مبالاتهم بالمال ، ولحقدهم على فيشي واحتقارهم شخصيات الجمهورية الثالثة . وكان الحوار الذي دار بين ألبير كامو وهربو له مغزاه ، فقد جاء في جريدة « كومبا » التي كان يديرها حينئذ باسكال بيا : « نريد قادة قادرين على ألا يثيروا السخرية » . وكانت افتتاحيات « كومبا » بلا توقيع ، وقد أجاب كامو ، منذ أول هجوم : « هذه الجريدة يحررها فريق يلتزم بكل افتتاحياتها ، وبعد ، فان هذه المقالة من صنعي » ، وعليه ، كتب هربو مقالة

(١) المقطع الأول من كلمة ميليشيا مع المقطع الأول من وطنية يتكون منه بالفرنسية كلمة « أم أربع وأربعين » .

بعنوان : « رد على رجل الغريق » ، وكنا فكرنا أن من أمنيات فرنسا أن يمثلها رجال لا تهز أكتافها زراية بهم . كم من الناس كان يسرهم أن يروا الجنرال ديغول يستبدل به أي هربو كان ! أما رجال المقاومة فلا . وعلى الرغم من فيشي لم ينقص الرجعيون في معسكرات الاعتقال وفي التوابيت ، لكن « المقاومة » المنظمة كلها كانت تنتسب إلى اليسار . وكان العداء للشيوعية ، من جانب خصوم الرأسمالية ، عداء للستالينية أولاً . وكانوا يفضلون كثيراً رأسمالية تتخللها الاشتراكية إلى حد بعيد أو قريب ، على شرطة دولة تصبح هي السلطة الرابعة بل قد تصبح ، إذا أتيحت لها الفرصة ، هي السلطة الأولى . وكان عداء أيضاً لدَجَل فعال في البلاد المغلقة ولكنه عبث بلا طائل في أوروبا الغربية : المقاومة الشيوعية عام ١٩٣٩ ، النداء الشيوعي عام ١٩٤٠ ، هدنة باريس التي عقدها الديغوليون لانقاذ المانيا ، ٧٥ ألف شهيد بينما لم يزد عددهم على خمسة وعشرين ألفاً ، الخ . . . ولم يكن خضوع الحزب الشيوعي للميثاق الالماني - السوفياتي قد نُسي بعد ، وكان من رأي الكثيرين انه من الأيسر عليه أن يخضع ، إذا اقتضى الأمر ، للجيش الأحمر . كان أعضاء الأحزاب السياسية قليلي العدد في فرنسا عام ١٩٣٩ ، وأغلب « المقاومين » لا ينتمون إلى أي حزب منها . كانوا ، في غالبيتهم ، من الوطنيين الليبراليين . ولهذا لم تجد المقاومة ، سياسياً ، شكلها الخاص . وفي نظر هؤلاء الرجال ، كانت الستالينية تعني عكس كل ما كافحوا من أجله . والخطباء الذين قررتْ معارضتهم في المؤتمر كانوا ينكرون كلهم تقريباً انتماءهم للحزب ، حيث وجدناهم بين

صفوفه في العام التالي . وكنت قبل هذا بستة أشهر قد تناولت الغداء سراً في الأقاليم ، في حانة موالية مع أربعة مندوبين غير شيوعيين تألفت من « حركاتهم » في ما بعد « القوات الفرنسية في الداخل » وبعدما تم تحديد العمل ـ بلا عراقيل ـ تناقشنا في استقلالية « المقاومة » ، مستقبلاً ، ثم افترقنا . وسرت إلى جانب مندوب باريس تحت المطر في شارع المحطة . وكنا قد ناضلنا معاً بعض الوقت . قال دون أن ينظر اليّ : « لقد اطلعت على كتبك . ليكن في علمك أن حركات المقاومة ، على النطاق الوطني ، يمسك بزمامها الحزب الشيوعي . . . (ثم وضع يده على كتفي ونظر اليّ وتوقف) ـ الذي أنتمي اليه منذ ١٧ سنة .

وعاود السير . ما زلت أذكر المطر الهادىء على سطوح الأردواز . وهذه اليد على كتفي . . . وأذكر أيضاً قاعة البلدية الكبيرة حيث ألقينا الكثير من الخطب أيام « اللجنة العالمية المعادية للفاشية » ، حيث كنت هذه المرة سأتوجه بالحديث إلى مناضلي المقاومة ، ولكن اللعبة السياسية كانت قد عاودت سيرتها . هذه امرأة فدائية تزوجها وهي تمسك في يدها بالمدفع الرشاش ، وهذا صبي اشترك في جماعة الأحرار الذين هاجموا قاطرة الغستابو أمام قصر العدالة ، وهذا رجل هرب مرتين ، ليس مثلي ، ولكن من الزنزانة . وكان يبدو كأن وفود الليل هؤلاء ، إذا ما أطلّ الفجر ، لم يعودوا إلا رسل حلم من الأحلام .

رغم أن أغلبية أعضاء المؤتمر كانوا من الذين كتبت لهم حياة جديدة ، فان أعمالهم الباهرة لم تكن لتنقذهم من شعور النقص

الذي يحس به الجيروندي [١] أمام الجبلي [٢] والليبرالي أمام المتطرف والمشفيك أمام كل من يعلن نفسه بلشفياً . وبينما العاطفون على الشيوعية يهتدون الى طريقهم بانضمامهم إلى حزب بدأ يتحدث عن ديغول كأنه كيرنسكي ، كان اللاشيوعيون يتحسسون طريقهم لأنهم لا يدركون في هذه الأيام أن حركة ولدت من المقاومة لا بد لها أن تكون ديغولية إذا رفضت أن تكون شيوعية : لأن الجنرال وحده كان يريد حقيقة أن يعارض الدولة الشيوعية بدولة ، وبفرنسا مستقلة . ولم يكونوا يعرفونه ، فهو لم يصنع شيئاً لاستمالة قلوبهم ولا حتى لمعرفتهم ، وكان يمتلك من الهيبة أكثر مما يمتلك من الشعبية ، وربما كان يظن أنهم وقعوا فعلاً في أيدي الشيوعيين . وكان خطابي موجهاً إلى كل المناضلين وهم يعلمون أني سأعود في الصباح إلى الجبهة .

كانت « المقاومة » تعبئة للعزيمة الفرنسية ، وعليها قبل كل شيء أن تجدد هذه التعبئة وإلا أصبحت مثل رابطة للمحاربين القدامى . كنا نحن فرنسا في أسمالها ، لا يأتي مغزى وجودنا من أعمال شكاتنا ولكن من أننا كنا « شهوداً » . كانت مناجم الشمال وبا دو كالي قد أممت في ١٣ كانون الأول ومصانع رينو في ١٦ كانون الثاني . ولم تكن هذه اجراءات يمينية . أما الاجراء الحاسم ، وهذا ما يعلمه الجميع ، فسوف يكون تأميم الائتمان ، فاذا اتخذت

(١) ممثلو اليمين أيام الثورة الفرنسية وكان أغلبهم من اقليم الجيروند .
(٢) ممثلو اليسار .

الحكومة هذا الاجراء يجب ان يتاح لها أن تحكم . وعلينا أن نحدد أنفسنا بمهمة وطنية ، لا مهمة انتخابية . وجرى الحديث عن العقبات التي ستقابل عودة الأسرى . فلتعد الحركة تنظيم كل أقسامها ، من الرين الى باريس ، لتضعها في خدمتهم . فلتنضم « الجبهة الوطنية » البنا إذا هي أرادت ، من أجل العمل المشترك . وسوف نرى في ما بعد ما يحدث . « الآن تبدأ مقاومة جديدة . . . » .

وبعد عشرة أو خمسة عشر خطاباً ، والزيارات « الأخوية » من الوفود الشيوعية أو شبه الشيوعية ، استبعد الاندماج بـ٢٥٠ صوتاً مقابل ١١٩ . لن يتصرف الحزب الشيوعي بالمقاومة ضد الجنرال ديغول ولكنني أثناء عودتي الى الجبهة ، عبر منطقة « شمبانيا » المغطاة بالجليد ، كنت أفكر في رفاقي الشيوعيين في اسبانيا ، وفي ملحمة النشوء السوفياتي ، على رغم الغبيو ، في الجيش الأحمر وفي المزارعين الشيوعيين في كوريز الذين هم دائماً على استعداد لاستقبالنا رغم الميليشيا ، من أجل هذا الحزب الذي كأنه لم يعد يؤمن بانتصارات غير انتصارات التغطية والتمويه . كنت أفكر في اليد على كتفي ، في شارع المحطة والسطوح تلمع تحت المطر .

٢

١٩٤٥ / ١٩٦٥

كنت أحضر أحياناً إلى باريس ، فهناك مسائل عديدة لا تزال من اختصاص وزارة الحربية . وقد التقيت كورنيليون الذي أصبح جنرالاً ومن زملاء « التحرير » . وقد تولى بعد ذلك قيادة الطيران ضد قلعة روايان ، وهي من آخر الركائز الألمانية في فرنسا . وكان ، في الانتظار ، يؤلف كتيباً فكاهياً مع الدكتور ليشفيتز الذي عرفته في « الفرقة الفرنسية الحرة » وكان قد أصبح طبيب الجنرال ديغول وكان يقرأ فصولاً من كتابه ، بمعين لا ينضب من المرح ، لغاستون بالوسكي (على أثر نزاع في لندن ، ذهب هذا الرجل الذي ولد سفيراً ، إلى الحبشة لفتح غوندار ، قبل ان يصبح مديراً لمكتب ديغول)وللكابتن غي ، وغيرهما وهكذا تمت المعرفة بيني وبين « البطانة » الشهيرة .

وبعد أيام من مؤتمر حركة التحرير الوطني ، تحدثنا عن الانتخابات ، الناس يتحدثون دائماً في الانتخابات . ولم أكن أشعر بأية رغبة في أن أصبح نائباً . لكنني كنت صاحب فكرة لا تغرب عن بالي : أن أجري تغييراً في مجال التعليم بتعميم استخدام الوسائل التي تعتمد على السمع والبصر . لم يكن عندئذ غير السينما والاذاعة ، فما زال التلفزيون حدساً في النفوس . كنت أبغي أن أذيع محاضرات لأساتذة يتم اختيارهم على أساس قدراتهم

التربوية ، لنعلم القراءة ولنكتشف تاريخ فرنسا . ولا تعود وظيفة المعلم هي التدريس ولكن معاونة الأطفال على المعرفة . قال باليفسكي :

ـ الخلاصة انك تريد أن تسجل « منهج الآن » وتذيعه على المدارس .

ـ وأستبدل بالمنهج الدراسي عن الغارون قبلياً عن الغارون .

ـ رائع ! لكنني أخشى فقط أنك لا تعرف بعد وزارة التربية الوطنية . . .

وتحدثنا أيضاً عن الهند الصينية . وكنت منذ ١٩٣٣ قد قلت وكتبت وأعلنت ان الامبراطوريات الاستعمارية لن تبقى على قيد الحياة بعد حرب أوروبية . وما كنت لأؤمن بياوداي ولا بالمستوطنين .

وكنت أعرف الدناءة التي يتكالب بها الوسطاء حول المستعمرين في كوشنشين وفي غيرها . وكنت من قبل وصول الجيش الياباني قد رأيت ولادة التنظيمات العسكرية في جبال « أنام » .

وقيل لي :

ـ ماذا تقترح اذن ؟

ـ اذا كنتم تبحثون في كيفية احتفاظنا بالهند الصينية فأنا لا أقترح شيئاً ، لأننا لن نحتفظ بها . كل ما يمكننا انقاذه هو نوع من السلطان الثقافي ، في مجال القيم . ولكن علينا ان نلفظ « الوجود الاقتصادي » الذي تتجاسر الجريدة الرئيسية الناطقة بلسانه في

سايغون على ان تحمل في صدر صفحاتها هذا العنوان : « الدفاع عن المصالح الفرنسية في الهند الصينية » . وعلينا أن نقوم نحن أنفسنا بالثورة . وهي أمر مشروع لا مفر منه ، فنلغي أولاً الديون الربوية ، وكلها تقريباً صينية ، التي يرزح تحتها الفلاحون في شعب فلاح . ثم نوزع الأراضي لنساعد الثوريين الأناميين وهم بلا شك في حاجة الى المساعدة . فلا العسكريون ولا المبشرون ولا رجال التعليم مرتبطون بالمستوطنين . لن يبقى كثير من الفرنسيين ولكن قد تبقى فرنسا .

« أنا أمقت الاستعمار بالفلوس . وأمقت بورجوازيينا الصغار في الهند الصينية وقولهم : « هنا يفقد الانسان عقلية العبيد ! » وكأنهم البقية الباقية من أوسترليتز . أو حتى من لانغ سون . صحيح ان آسيا في حاجة الى الخبراء الأوروبيين ، وليس صحيحاً انه يجب أن يكونوا سادتها . يكفي أن تدفع لهم أجرهم . أشك في أن تبقى الأمبراطوريات طويلاً بعد انتصار دولتين تعلنان عداءهما للامبريالية » .

قال كورنيليون مستشهداً بتشرشل :

ـ لم أصبح رئيس وزراء جلالة الملكة من أجل تصفية الامبراطورية البريطانية .

ـ ولكنه لم يعد رئيساً للوزراء . وأنتم تعرفون موقف حزب العمال من الهند .

قال بالوسكي :

ـ ولكن ألا تستطيع أن تنقذ مثل هذا الانقلاب بادارتنا ؟

ـ لا تزال في فرنسا عوامل تمكننا من انشاء ادارة ليبرالية . بل أمضي إلى أبعد من ذلك : لكي نجعل من الهند الصينية بلداً صديقاً علينا أن نساعد هوشي منه . وهذا أمر عسير ولكن ليس بأعسر مما كان على انكلترا أن تساعد نهرو .

ـ نحن أقل تشاؤماً منك بكثير .

مما أدى بنا الى الحديث عن الدعاية . وكانت وزارة الاعلام في يد جاك سوستيل ، الذي يتمنى أن يستبدل بها وزارة أخرى .

قلت :

ما عدا بعض الاستثناء ، فان وسائل الاعلام والاستعلام التي في متناولكم ، لم تتغير منذ عهد نابليون . وأرى أن هناك وسيلة أدق وأكثر فاعلية وهي : استطلاعات الرأي العام .

ـ الداخلية لا تستخدمها ؟

ـ الداخلية « تستعلم » ولكن ليس لديها التصنيف الذي لا دقة من دونه .

كانت طرق غالوب غير معروفة حينئذٍ في فرنسا ، إلا من الاختصاصيين فعرضتها بسرعة .

ـ هل تؤمن بجدواها ؟

ـ شرط ألا تستخدم إلا مخبرين لا تشغلهم السياسة ، فأنا أعتقد أنه من الممكن ان نعرف النتائج المترتبة على تصويت المرأة والجواب على الاستفتاء الذي تعدون له . ان الاستطلاعات مثلها مثل الطب : أقل اصابة ودقة مما تدعي ، وأكثر دقة من كل ما عداها .

« ثم ان هناك استعلامات البلد ـ أي الدعاية . وحدود الاعلان الأميركي يمكن بلوغها بسرعة ، أما الدعاية الشمولية ،

فأظنها لا تنفصل عن الحزب الواحد . وأشك في ان يكون الجنرال ديغول على استعداد لانشاء مثل هذا الحزب . لن يرضى بالدولة في خدمة الحزب ولا بالحزب كوسيلة رئيسية لعمل الدولة . يريد الجيش لا الميليشيا ، والأمن القومي ، لا شرطة الحزب .

« ينبغي لدعايتكم ان يكون غرضها الأول اطلاع الناس على هذه الحقيقة وادراكها . فان أحداً لا يعلم عنها شيئاً ، مهما بدا من غرابة الأمر . لكنني أعتقد انه من الممكن تعبئة الطاقات اذا عورضت الأساطير لا بأساطير أخرى ، ولكن بالعمل . قوة الجنرال في ما عمل وفي ما يعمل . ما هي القوى الحقيقية الحاضرة ؟ أنتم ، والأحزاب بنسبة ما استطاعت المقاومة تطهيرها . ان الراديكاليين على وشك الانهيار .

ـ « والحركة الجمهورية الشعبية » .

ـ لديها ورقة طيبة : فالبلاد ترى فيها حزب الجنرال . وإذا كان الشيوعيون أعداءكم الوحيدين الخطرين فليس ذلك بسبب ماركس ، ولكن بسبب ليتين . ليقل كل وزير من وزرائكم للبلاد : هذه هي مهمتي العاجلة أنا مسؤول عنها أمامكم ، ولن أحدثكم ثانية إلا عند انتهائها . أليس كذلك ؟

ـ قد يكون هذا مفتاحاً الى الفاشية .

وأجاب كورنيليون ، مستشهداً هذه المرة ـ على سبيل السخرية ـ بنابليون :

ـ ان الحرب فن بسيط ، قوامه التنفيذ .

●

كنت أسكن ، في بولونيه ، في منزل كبير من الطراز الهولاندي ، المنزل نفسه الذي تعرض في ما بعد لمتفجرات الجيش السري وكادت فيه الصغيرة دلفين ربنار ان تفقد البصر بسبب هذه الحادثة .

وكانت الساعة تجاوزت التاسعة ، لأن أمسية الصيف أخذت تتحول الى ليل فوق كشك المراقبة الذي شيده الألمان عند زاوية الحديقة . ورن جرس التليفون وقال بعض الذين اعتادوا محادثتي :

ـ عندي تبليغ مهم يجب ان أقوله لك . هل يمكنك ان تستقبلني بعد ساعة أو ساعتين ؟

ـ اتفقنا .

ـ سأمر عليك زهاء الحادية عشرة .

وفي الحادية عشرة ، توقفت أمام منزلي سيارة مخاطبي الحربية . وذهبت لأفتح . كنا وحدنا . ولم يعبر عتبة البهو الكبير الذي لم تُحسن إضاءته بعد . قال :

ـ الجنرال ديغول يسألك ، باسم فرنسا ، اذا كنت تريد مساعدته .

كانت الجملة فريدة من نوعها . على ان بعض الخطب الأولى التي ألقاها الجنرال على الضباط في لندن . لم يتجاوز تقريباً قوله : « يا سادة ، أنتم تعلمون أين واجبكم » . وهي الآن اللهجة نفسها . قلت :

ـ السؤال مجاب بالبديهة .

ـ سآتيك غداً بساعة الموعد .

وصافحني ، واستدارت السيارة ، ودارت من حول الكشك الصغير واختفت في اتجاه السين .

كنت مندهشاً ، ولكن دهشتي لا تزيد على الحد . فأنا أميل الى الاعتقاد اني ذو فائدة . . ولكنني بعد هربي الأول في تشرين الثاني ١٩٤٠ ، كنت قد كتبت للجنرال ديغول ، ولم يكن لدى القوات الفرنسية الحرة فائض من الطيارين . ولم أتلق رداً . وقيل لي حينئذ انه قد استبعد بيار كوت ، فظننت أن مساهمتي لا تبدو مناسبة في نظره بسبب اشتراكي في حرب اسبانيا . ولم أحمل في نفسي مرارة ، لأن حركات المقاومة التي عملت في صفوفها ، قبل انشاء لواء الالزاس ـ لورين ، قد حظيت في ما بعد دائماً بمعاونة الجنرال كوكيج ، وبالتالي ، بمعاونته . واستدعيت الى وزارة الحربية . وفي غرفة الانتظار ، وجدت زائراً ودياً أثار اهتمامي . وعلى رغم الثياب المدنية التي يرتديها أحسست فيه برجل عسكري . وطلبوه بعد قليل : وكان هو الماريشال جوان .

وصعدت السلم الهائلة . (سمعت في منتصف الدرج ساعي الطبقة الأرضية يسر في التليفون باحترام شديد : « السيدة الدوقة تطلب السيد المدير » وساعي الطبقة الأولى يجيبه ، بخيلاء : « أرسل الدوقة » !) حتى وصلت الى مكتب الانتظار الذي يقف فيه الياور ، والذي يسبق مكتب الجنرال ديغول . وأدخلت عندمادقت الساعة . طالعتني على الجدران خرائط أركان حرب ، كبيرة ، تضفي على الحجرة الخشنة جواً من العمل . وأشار لي بالجلوس على

يمين مكتبه .

كنت أحتفظ بذكرى دقيقة للامح وجهه : من يوم أن أطلعني رافائيل نحو العام ١٩٤٣ ، وكان إذ ذاك رئيساً للجماعات الحرة ، على صورته الفوتوغرافية التي ألقيت إلينا بالمظلات . وكانت صورة تصفية فلم نعرف أن الجنرال ديغول طويل جداً . خطر لي كيف دهش مندوبو البورجوازية عندما رأوا لويس السادس عشر للمرة الأولى ، فحتى العام ١٩٤٣ لم نعرف وجه الرجل الذي كنا نناضل تحت لوائه .

لم أكتشف وجهه ولكنني اكتشفت فيه ما لا يشبه الصور الفوتوغرافية . الفم الحقيقي أصغر قليلاً ، والشارب أشد سواداً . ان السينما ، رغم أنها تنقل كثيراً من التعبيرات ، لم تنقل إلا مرة واحدة نظرته المفعمة الكثيفة ، وذلك بعد لقائنا بمدة طويلة عندما ظهر على الشاشة أثناء حديثه مع ميشال دروا ، وكان ينظر إلى الكاميرا كأنه ينظر إلى كل واحد من المشاهدين .

وبادرني ديغول بقوله :

ـ الماضي أولاً .

مدخل غريب . أجبته :

ـ الأمر بسيط . لقد خضت معركة . ولنقل إنها كانت من أجل العدالة الاجتماعية . أو إذا أردنا مزيداً من الدقة : من أجل أن تعطى للناس فرصتهم . كنت رئيساً ، مع رومان رولان ، للجنة العالمية المعادية للفاشية ، وذهبت مع جيد لأحمل إلى هتلر ـ الذي لم يستقبلنا ـ الاحتجاج على قضية ديمتروف والمتهمين كذباً

بحرق الرايخستاغ . ثم كانت حرب اسبانيا وذهبت لأقاتل في اسبانيا . لا في الألوية الدولية التي لم تكن موجودة بعد والتي تركنا لها الوقت لتوجد : فقد كان الحزب الشيوعي يفكر . . . ثم كانت الحرب الحقيقية . وأخيراً جاءت الهزيمة . ومثل الكثيرين غيري اخترت فرنسا . عندما عدت إلى باريس سألني ألبير كامو : هل علينا أن نختار يوماً بين روسيا وأمريكا ؟ لم يكن الاختيار في نظري بين روسيا وأميركا ولكن بين روسيا وفرنسا . حيث تقف فرنسا ضعيفة بمواجهة روسيا قادرة ، لا أعود أؤمن بحرف مما كنت أؤمن به حينما كانت فرنسا قادرة تقف بمواجهة اتحاد سوفياتي ضعيف . ان روسيا الضعيفة تريد جبهات شعبية وروسيا القوية تريد ديمقراطيات شعبية .

« قال ستالين أمامي : « في بداية الثورة كنا ننتظر الانقاذ على يد الثورة الاوروبية . أما الآن فالثورة الاوروبية تنتظر الجيش الأحمر . . . لا أؤمن بثورة فرنسية يقوم بها الجيش الأحمر ويثبتها الغيبو ـ ولا أؤمن بالعودة إلى ١٩٣٨ » .

« وفي مجال التاريخ ، فان الواقع الرئيسي الأول الذي ساد السنوات العشرين الأخيرة ، هو في نظري أولوية الأمة . وهو شيء يختلف عن الوطنية . لا ينبني على التفوق ولكن على الخواص المميزة . لقد كان ماركس وفكتور هوغو وميشليه (ميشليه الذي قال : « ان فرنسا كائن إنسان ») يؤمنون بالولايات المتحدة الاوروبية . وفي هذا المجال لم يكن ماركس هو النبي ، إنما نيتشه الذي كتب يقول : « سيكون القرن العشرون قرن الحروب

القومية ». هل سمعت نشيد الأممية في موسكو يا سيدي الجنرال؟!

- ما كانوا يتحدثون عنه .

- كنت هناك عندما أصبح النشيد الروسي هو النشيد الرسمي في الحفلات . ومنذ أسابيع كانوا يطلعون للمرة الأولى في جريدة « البرافدا » على كلمة : « وطننا السوفياتي » . وأدرك الجميع ما نعنيه . وأدركت أن كل شيء يجري وكأن الشيوعية هي الوسيلة التي اكتشفتها روسيا أخيراً لتثبت في العالم مكانتها ومجدها : حركة اورثوذكسية أو حركة تجميع سلافية . كتب لها النجاح .

كان ينظر إليّ بانتباه لا يبدو منه اقتناع ولا عدم اقتناع .

واضفت : - لانه ، حتى إذا لم ندخل في حسابنا لينين وتروتسكي وستالين ، وهو أمر صعب - فان الشيوعية هي اليوم خير من يعي الواقع الثوري الذي وعته الثورة الفرنسية في زمن سلف . . .

- ما الذي تعنيه بالواقع الثوري ؟

- أعني الشكل المؤقت الذي تتخذه مطالبة الناس بالعدالة : من هبّات الفلاحين إلى الثورات . وقد أصبح هذا المطلب في القرن الذي نعيش هو العدالة الاجتماعية . ولا شك إن سبب ذلك يرجع إلى ضعف الديانات العظمى . الاميركيون مؤمنون ولكن الحضارة الاميركية ليست حضارة متدينة .

« والجبهة القومية حركة شبه شيوعية في انتظار أن تصبح شيوعية . ورفاقي شبه عماليين في انتظار حركة عمالية لا وجود لها ولا يعلمون هل ينتظرون مجيئها من أنفسهم أو من الحزب الاشتراكي أو منكم » .

- ماذا يريدون أن « يفعلوا » ؟

- كمثل عام ١٨٤٨ ، وعام ١٨٧١ ، يريدون أن يلعبوا رواية بطولية اسمها الثورة . ومنهم رجال حقيقيون يريدون ذلك بنبل وعراقة وهم الذين لم يظهروا في الصورة بعد دخول الجيش . وأقول اقتباساً من كلوسويتز في ما أظن : إن السياسة تبدو لهم استمراراً للحرب بوسائل أخرى . وليس هذا حقاً للأسف . فالسياسة في رأيي (وفي رأيك أيضاً على ما يبدو لي ، بل في رأي الشيوعيين كذلك) تتضمن إنشاء دولة ثم قيام هذه الدولة بممارسة أعمالها . كل سياسة من دون دولة رجم بالغيب وتصبح بدرجات متفاوتة ضرباً من الأخلاقيات الأدبية . ويبدو كأن منظمات المقاومة لا يخطر في بالها شيء من ذلك . ان لم يعد الأمر هو الثورة فما هو الأمر إذن ؟ الامر بالنسبة إلى رجال السياسة بالأمس أو غداً كان ولا يزال هو الدخول في الأحزاب أو تكوين حزب جديد . المقاومة المتعاطفة مع الشيوعيين تؤدي إلى الحزب الشيوعي أو إلى واجهة شيوعية مستعارة . والمقاومة الأخرى تؤدي إلى أي مكان ، لأن الأحزاب كما قلت للسيد بالوسكي في حاجة إلى أن تطهر نفسها من العفونة . وإذا كان هناك رجال من الراديكاليين قد عملوا في المقاومة ، فليس هناك رجال من المقاومة راديكاليون . لكل حزب أهدافه . ولقد كان هدف المقاومة : المساهمة في تحرير فرنسا . كان رجال المقاومة في جملتهم وطنيين ليبراليين والليبرالية ليست واقعاً سياسياً ولكنها عاطفة . وهي عاطفة يمكن أن توجد في عدد من الأحزاب ولكن ليس في إمكانها أن تؤسس حزباً . وهنا تكمن مأساة

المقاومة في الوقت الحاضر ، كما تبين لي من مؤتمر حركة التحرير الوطني .

« أعضاء الحركة ليسوا ضد الشيوعية . إن ٥٠ ٪ منهم يفضلونها كمذهب اقتصادي . انهم ضد الشيوعية . أو بمزيد من الدقة ضد ما هو روسي في الشيوعية الفرنسية . وهم لا يعتقدون أن الحيوية التي يعجبون بها في الحزب الشيوعي الروسي تكون كلاً واحداً مع الوشايات والصغائر واقصاء الأعضاء ، بل الدعاوى ، التي يأخذونها عليه » . ان الحلم الذي يراود في الخفاء أذهان عدد لا بأس به من أهل فرنسا ومعظم مثقفيها هو مقصلة بلا مقصولين . يفتنهم في الشيوعية الطاقة المنصرفة إلى خدمة العدالة الاجتماعية ، ويفصلهم عن الشيوعيين الوسائل التي تزاول بها هذه الطاقة . الليبرالية لم تمت . ان أعضاء الأحزاب كانوا قلة في فرنسا . لقد رأيت « التحرير » في الأرياف وفي أخبار السينما فطالعت فيه جواً يشبه أن يكون « جبهة شعبية » منتصرة . ولكن الجبهة الشعبية لم تقم بثورتها ولا بتأليف حزبها الواحد (وأعداؤها بالمثل لم يفعلوا) . ان الشيء الذي أطلقت عليه في حديثي عن اسبانيا صفة « الوهم الوجداني » لا يؤدي إلى تكوين سياسي حقيقي . والأمر سواء بالنسبة إلى الراديكاليين والشيوعيين وان كانت الأسباب متعارضة : يدخلون في الجبهة الشعبية بأمل القضاء عليها .

قال :

ـ هل هذا هو اعتقادك ؟

وربما كانت لهجته ساخرة .

ـ أعتقد أن الليبرالية ، بل اللعبة البرلمانية كذلك ، مقضي عليهما في كل البلدان التي تشارك فيها الأحزاب حزباً شيوعياً قوياً . تنبني الحكومة البرلمانية على قاعدة يجب ان تراعى في اللعب . وهذا ما يظهر لنا بجلاء إذا تأملنا أكثر هذه الحكومات فاعلية : الحكومة البريطانية . ان الشيوعيين يستخدمون اللعبة لأغراضهم الذاتية ولكنهم لا يلعبونها ويكفي أن يخرج شريك واحد على قواعد اللعب حتى تتغير طبيعة اللعب . وإذا كان الحزب الاشتراكي والحزب الراديكالي ، الخ . . . أحزاباً ، اذن فالشيوعيين شيء آخر .

« وعلاوة على ذلك فان اليمين التقليدي قد ارتبط بفيشي ولهذا سنجد يساراً توجهه المزايدة الشيوعية ولن نجد يميناً معترفاً به . على ان فرنسا ، وليست حركة المقاومة فحسب ، لا تؤمن بعودة الحياة البرلمانية القديمة ، لأنها تستشعر حدوث أعنف تحول يطرأ على الغرب منذ نهاية الامبراطورية الرومانية . وليس في ودها أن تواجه هذا التحول تحت قيادة السيد هريو . ثم ان نهاية الجمهورية الثالثة مرتبطة بالهزيمة . ولو ان هذه الجمهورية لم تسيء الدفاع عن نفسها خلال الحرب الأولى عام ١٩١٤ .

رفع سبابته كمن يريد أن يقول : احترس !

ـ ليست الجمهورية هي التي ربحت حرب الـ ١٤ ، ولكن فرنسا هي التي ربحتها . فعندما أعلنت الحرب ، أناموا الخصومات والأحزاب ، من موقعة المارن وابتداء بكليمنصو .

ـ كليمنصو ، أليس هو فرنسا الجمهورية ؟

ـ لقد أقمت الجمهورية من جديد . ولكن ينبغي لها ان

تكون قادرة على صنع فرنسا من جديد . الواقع القومي مختلف جداً عن القوميات ، وأنا أعترف بذلك . والشيوعيون يدركونه على طريقتهم . ولهذا تمسكوا بحكاية الميليشيا . هم يشعرون ان الدولة التي لا تتكفل بالدفاع عن الأمة دولة مقضي عليها . فلا الامبراطوريتان الفرنسيتان ولا الامبراطورية الألمانية ولا الامبراطورية الروسية استطاعت أن تبقى بعد الهزيمة . ومن هنا تتأتى للدولة شرعيتها العميقة . وأنت على حق عندما تقول : الشيوعية مكنت روسيا من أن تعيد تكوين جيشها . . .

- ومن ان تعثر على كيانها الروحي .

ولاحظت أني قاطعته . ذلك انه كان يترك بين فقرات حديثه فترات من الصمت ليست قصيرة ، ولكنه يتابع فكرته .

- . . . وآسيا لا تعثر على كيانها الروحي كما تقول ، إلا إذا هي عثرت على كياناتها القومية . ربما كانت الملكية الفرنسية قد ماتت في روسباخ . . . أرجوك أن تواصل كلامك .

- كتب تشرشل انه قد تمثل في كليمنصو رجلاً من رجال الثورة . . .

غمزت عيناه شيئاً قليلاً وعلا وجهه تعبير متهكم ، تعبير كثيراً ما لقيته كلما تطرق الحديث الى التاريخ .

- لقد أكثروا من الحديث وبرعوا فيه . وهذا أمر يُحسب له حساب . لقد أنشأوا الأمة المجندة ، في مواجهة الجيوش المرتزقة . إنما انهار كل شيء ، عندما نزلت الأمم الأخرى الى الميدان . . ولكن ذلك كان ضد نابوليون . . .

- هل تعتقد أن ميرابو كان حقيقاً بأن ينقذ الملكية ؟

- لقد مات في أوانه . أعتقد انه كان حقيقاً بأن يخيب كثيراً من الآمال ـ وأن يخيب نفسه كثيراً بالمثل . . .

أمام الرؤوس التي فصلتها المقصلة عن أجسادها ، كان ميرابو الرجل الفردي المستعد لخيانة الثورة من أجل عيني الملكة وفلوس الملك ، والذي مات على مهل ونبل بعد رحيل الفاتنين الموجودتين في سريره . كان يبدو كأنه مغامر عظيم . انما تنقصه الهالة المبهمة التي كان الوطن أو الشعب يكرسان بها كل الآخرين حتى يوم ٩ ترميدور . وكنت قد اطلعت على ما كتبه الجنرال ديغول عن هوش ، وربما تذكره لأن هوش مات مسموماً هو الآخر :

« هوش وجه جميل . وأينما وضعوه يظل جديراً بمنصبه » . . .

ثم كانت معارك « لافنديه » واقناع الناس بالاجتماع حول المائدة للحديث قبل الاقتتال . . . ولكن أحواله كانت قد ساءت عندما لقي حتفه بالسم . . .

نظرت اليه متسائلاً فابتسم بسخرية وقال :

- الدكتاتورية . . .

قلت :

- عندما أفرج عنه من « الكونسيير جيري » أفسح الطريق في ممر السجن لوافد جديد الى السجن : كان هو سانت جوست .

- أوه ! ان الأشخاص انفسهم هم الذين يتقابلون دائماً . . .

●

رأيت في بالي سان جوست في الممر ، وجوردن في الحجرة . ورفع سبابته كما فعل منذ حين وقال :

ـ لا تخطىء في ذلك : ان فرنسا لم تعد تريد الثورة . لقد فات الأوان .

أدهشني خلو لهجته من كل انفعال ـ كأنما هو يتحدث عن الامبراطورية الرومانية . كان مثقفونا يعيشون بولع وحماسة في ميثولوجيا سياسية وكانت جيوش الشيوعية والفاشية لا تزال تحارب . وشعرت للمرة الأولى كيف يمكن القيم العليا عند الآخرين ، حتى الذين ليسوا من اعدائه ، أن تصبح في نظره كما مهملا . وقد حدث أن أجاب من غير انتباه على عرض قدمه وزير التموين حول السوق السوداء التي كانت تشغل باريس : « أن للفرنسيين ان يستقروا على الاهتمام بشيء آخر غير السمك المدخن . . . » لم يكن مثل ماري أنطوانيت وحديثها المشهور عن البسكويت. وقال : « لقد فات الأوان » باللهجة التي يتحدث بها الصوفيون عن العشق . ولكن الصوفيين لا يؤمنون بالتاريخ .

ـ ان مانشيت جريدة « كومبا » ما زالت : من المقاومة الى الثورة .

ـ ما هو توزيع جريدة « كومبا » ؟

●

« لقد أعلنت انه في بحر السنة سيتم تأميم كل مصادر الطاقة والائتمان . لا من اجل اليسار ولكن من أجل فرنسا . ان اليمين

ليس متلهفا على تأييد الدولة ، واليسار متلهف أكثر من اللازم » .

« ان ما نقله إليّ السيد بالوسكي من حديثك عن الدعاية قد أثار اهتمامي . وصل المثقفون ؟ لا في الدعاية ولكن . . . بشكل عام » .

ـ هناك الذين قادتهم المقاومة الى الرومانسية التاريخية . وهذه الفترة جديرة بأن تشبع أمنياتهم . وهناك من قادتهم المقاومة أو قادوا أنفسهم الى الرومانسية الثورية ، وقوامها الخلط بين العمل السياسي والمسرح . لا أتحدث عن الذين هم على استعداد لأن يقاتلوا من أجل انشاء السوفييتات: أنا لا أتحدث عن الممثلين ولكن عن المشاهدين . منذ القرن الثامن عشر ، توجد في فرنسا مدرسة لـ « النفوس الحساسة » . وقد لعبت فيها سيدات الأدب دوراً متصلاً .

ـ ولكن ليس بصفتهن ممرضات .

ـ الأدب يذخر بالنفوس الحساسة التي ترى في البروليتاريين ما كانت تراه في المتوحشين الطيبين . ولكن ليس من السهل أن نفهم كيف استطاع ديدرو الاعتقاد أن كاترين الثانية كانت تشبه « الحرية » .

ـ فولتير كان ينظم المقاطع التهكمية عن معركة روسباخ . . . ولكن هذا خسارة .

ـ ان وضع المثقفين الجادين صعب . السياسة الفرنسية انتسبت عن طيب خاطر الى الكتاب ، من فولتير الى فكتور هوغو . وقد لعبوا دوراً كبيراً في قضية دريفوس . وظنوا أنهم استعادوا هذا

الدور أيام الجبهة الشعبية . ولكن هذه الجبهة كانت تستخدمهم أكثر مما تتمسك بهم . هذه الاستفادة ، من الجانب الشيوعي ، تم تصميمها بكثير من المهارة على يد ويلي مونزنبرغ - وهو الآن في عداد الموتى . ولكن منذ عام ١٩٣٦ ما الذي فعله هؤلاء المثقفون الذين لم يكفوا يوماً عن ادّعاء النضال ، الأمر الذي لم يكن يدّعيه موتيسكيو ؟ كتابة العرائض .

« ثم هناك الفلاسفة المحترفون . أولئك لا يرون في لينين أو في ستالين غير تلميذين لماركس . ويذكرونني بحاخام أصفهان الذي سألني في ما مضى : « لقد ذهبت الى روسيا فهل صحيح ان الشيوعيين أيضاً عندهم « كتاب » ؟ «أولئك يبحثون عن النظرية وراء العمل . نظرية ذات طبيعة خاصة . ماركس ولكن ليس ريشوليو . في نظرهم « لم يكن لريشوليو سياسة » . قلت للسيد بالوسكي انهم في الوقت الحاضر « لا يعيرونكم السمع » . وهم قليلو الوعي بالتناقض الذي يعيشون فيه ؛ لأن العمل لا يضع هذا التناقض موضع الاختبار أبداً . لكنهم يحسون به احساساً غامضاً كما ظهر في مؤتمر حركة التحرير الوطني . ثم ان المقاومة الحق فقدت ثلثي رجالها .

قال بحزن :

- انا أعرف ، أنا . . .

احسست كأنه أراد أن يضيف : أعرف أيضاً أنك فقدت ذويك . . . ولكن جملته ظلت معلقة ، ثم نهض وسألني :

- ما الذي لفت نظرك عندما لقيت باريس من جديد ؟

- الكذب .

كان الباور قد فتح الباب . وأوصاني الجنرال وقال :

- أشكرك .

●

نزلت أدراج السلم الهائلة ، حالما تختلط في عيني صورة السعاة والأسلحة ، وسرت في الشارع . ما الذي فاجأني من رؤيته ؟ لقد ألفت منظره من أخبار السينما ، بل ايقاع حديثه الذي يشبه ايقاع خطبه . لكنه في السينما كان يتكلم وقد لقيت منذ حين رجلاً يسأل ، فتتمثل قوته ، قبل كل شيء ، في طريقة صمته .

لم يكن استجواباً . فهو يحب مغازلات الفكر . لقد وجدت لديه « مسافة » ذاتية لم أجدها في ما بعد إلا عند ماوتسي تونغ . وكان لا يزال مرتدياً سترته . ولكن ابتعاد الجنرالات من أمثال ديلاتر ولوكلير لم يكن من شأنهم ولكن من شأن أوسمتهم . وكثيراً ما تساءلت امام هذا أو ذاك من الرجال العسكريين : ترى ماذا يكون في الحياة المدنية ؟ وتخيلت ديلاتر سفيراً أو كبردينالاً . ويبقى الجنرال ديغول في الحياة المدنية هو الجنرال ديغول .

كان صمته سؤالاً . وكان من الممكن ان يتجه ذهني إلى جيد ، لو لم يكن في صمت طرافة صينية . قابل ديغول في الجزائر فأضفى على صوته لهجة المحقق المتأدب ليقول له : « هل تسمح لي يا سيدي الجنرال بهذا السؤال : متى استقر رأيك على عدم الطاعة ؟ » وأجابه الجنرال بحركة في الهواء والأرجح أنه فكر في

الكلمة الانكليزية الشهيرة التي تقول عن الأميرال جيليكو : « ان لديه كل مزايا نلسون ما عدا ميزة عدم الطاعة » . لقد حدثني جيد عن « النبالة الرسمية » في ملاقاته للناس ، وقد التقى به في حفلة غداء . لم تحفظ له ذاكرتي استقبالاً رسمياً ، ولكن هذه المسافة الفريدة في انها لا تظهر بينه وبين مخاطبه فحسب ولكنها تظهر ايضاً بين قوله وشخصه . وكنت قد التقيت قبل ذلك هذا الحضور المفعم الذي لا تعبر عنه الكلمات . لم التقه عند العسكريين ولا عند السياسيين ولا عند الفنانين انما عند العقول الدينية الكبيرة التي تبدو كلمات أصحابها العادية وكأن لا علاقة لها بحياتهم الداخلية . ولهذا السبب اتجه ذهني الى الصوفيين عندما تحدث عن الثورة .

يقيم بينه وبين مخاطبيه اتصالاً قوياً جداً ، يبدو كأنه لا يمكن تفسيره بسبب البعد الذي ذكرته . ويعود هذا الاتصال الى انه يفرض على المرء الاحساس بشخصية شاملة ـ نقيض الاحساس الذي يدفعك الى أن تقول : لا يمكننا ان نحكم على الناس من حديثهم . لقد تبينت في ما قاله لي الثقل الذي تضفيه المسؤولية التاريخية على تأكيدات في غاية البساطة (مثل رد ستالين على سؤال هيرست عام ١٩٣٣ : كيف يمكن ان تجري الحرب بين المانيا والاتحاد السوفياتي اللذين ليس لهما حدود مشتركة ؟ ـ يمكن ايجادها » . [١] . ورغم تهذيبه كان يتهيأ للانسان دائماً أنه يقدم له حساباً . ولم نتطرق الى موضوع تجديد التعليم بالأساليب العصرية

---

(١) الترجمة الأدق لرد ستالين هي : ستوجد .

ولا حددنا المجال الذي يمكن أن أفيد فيه . لقد رأيت جنرالاً يحب الأفكار ويحييها في الطريق تحية لا تكاد تحس : كل امرىء يشعر أمامه بالمسؤولية ؛ لأنه كان يتحمل المسؤولية في مصير فرنسا ؛ هذا المصير الذي استولى عليه وملأ حياته وفكره وكان لزاماً عليه ان يكتشفه وان يؤكده . كذلك عند رجل الدين : الذات والتلبية والتسامي . التسامي كما تصوره مؤسسو الطوائف المقاتلة . قبل ان أعبر من الرصيف ، رفعت عيني : كنت قد وصلت الى شارع سان دومينيك .

وحاولت ان أستوضح في نفسي انطباعاً معقداً : هذا الرجل يوازي أسطورته ولكن بماذا ؟ كان الشاعر بول فاليري مساوياً لأسطورته ، لأنه يتحدث كما يتحدث « مسيو تست » ويمثل صرامته ونفاذ بصيرته . وكان أينشتاين جديراً بأينشتاين لما فيه من بساطة الراهب الفرنسيسكاني الاشعث ، الصورة التي أصبحت غريبة عن هؤلاء الرهبان . والرسامون العظام لا يشبهون أنفسهم إلا عند الحديث عن التصوير . ان الشخص الوحيد الذي كان يستدعيه الجنرال ديغول الى ذاكرتي في ذلك الوقت كان تروتسكي ولم يكن ذلك لما بينهما من شبه ولكن لما بينهما من تعارض ، مثلما يحملنا آنغر على التفكير في دولاكروا .

●

بعد أيام من هذا الحديث ، دعيت الى مكتبه بصفة مستشار فني . عندئذ أمكن البدء في دراسة خطة تجديد التربية الوطنية

بالوسائل العصرية ، وتسلم ستوتزل المليون فرنك الأولى التي مكنته من تنظيم استطلاعات جادة . وساعدنا القدر ، فجاء الاستطلاع الأخير الخاص بالاستفتاء الدستوري صحيحاً بنسبة ٩٩٧ في الـ ١٠٠٠ . ومن نيسان الى آب توفي روزفلت وموسوليني وهتلر ، وذهب تشرشل ، وتم تسليم المانيا ، وألقيت القنبلة الذرية على هيروشيما . وفي ٢١ تشرين الأول حملت الانتخابات الى الجمعية الوطنية ٣٠٢ من النواب الشيوعيين والاشتراكيين . وانتخب الجنرال رئيساً للحكومة باجماع الأصوات وألف مجلس الوزراء الذي أصبحت فيه وزيراً للاعلام . وكانت مهمة مفيدة فقد كان الأمر يتطلب ـ على الأخص ـ منع كل حزب من شد الغطاء الى ناحيته . وكان ثوريز يراعي قواعد اللعب : أن يوضع الحزب الشيوعي في خدمة اعادة بناء فرنسا . ولكن في الوقت نفسه كان الحزب ينشر أعوانه ، وتقارير مارسيل بول تأتي زائفة بشكل وقح . وفي هذه الحكومة الثلاثية ، أدت البيانات الزائفة التي يقدمها الشيوعيون الى بيانات زائفة يقدمها الاشتراكيون والجمهوريون الشعبيون . وبعد الاجتماع يبقى الجنرال يحاول اقناع هذا أو ذاك من الوزراء . وكان يرى في تحكيمه بينهم أمراً جوهرياً يحتاجه عمل الدولة ولكنه لا يمكن ان يصبح تحكيماً دائماً بين الاختلافات والروايات الوهمية وكنت أشك في أن يطول احتماله لمباراة الخداع هذه . وبدا لي كأنه يكتشف ما كان يعلمه من قديم الزمن ، علما أوهنت منه الحرب والمقاومة وربما أيضاً تآلفه مع الديمقراطية الانكليزية ، يكتشف ان ديمقراطيتنا معركة بين الأحزاب وان فرنسا تلعب في هذه المعركة دور التابع .

وقد حيره أن يسمع هريو ثم ان يسمع ليون بلوم ، بعدما عرض عليهما الاشتراك في حكومته بصفتهما وزيري دولة للمساهمة في النهوض بالبلاد ، يجيبانه بأنهما يفضلان الانقطاع الى خدمة حزبيهما . وحيره ذلك بالأكثر لأنه كان يعلم ان الدافع الى الرفض (وبالذات في ما يخص ليون بلوم) لم يكن مجرد الرغبة في الاحتفاظ بالمكانة الأولى .

وكان السبب في ما أحس به من المرارة عندما هاجمه هريو ، يرجع قبل كل شيء إلى تأكده من أن اللعبة البرلمانية أخذت تعاود سيرتها . فهل خطر له حينئذ أن فرنسا سوف تستدعيه قريباً . هذا ما خطر لنا جميعاً . قبل أيام من رحيله دعيت أنا وليون بلوم إلى الفيلا التي يقطنها في نوي . وبعد تناول العشاء جلسنا نحن الثلاثة إلى مائدة صغيرة ، وقال لليون بلوم بلهجة نصفها جاد ونصفها ساخر :

ـ أقنعه أنت !

يقصد أن يقنعني بالثقة التي يمكن أن نمنحها لتعاون الشيوعيين في الحكومة . قلت :

ـ كيف تريدون من شيوعيين حقيقيين ألا يروا فينا حكومة مثل حكومة كيرنسكي أو حكومة بيلسودسكي ؟ لا يخرج الأمر عن معرفة من الذي يطلق الرصاص أولاً : ليست هذه دولة ، بل هي مبارزة على الطريقة الأميركية . هل تذكر أن « الجبهة الشعبية » . . .

ـ ولكن « الجبهة الشعبية » صمدت .

ورفع ليون بلوم نحونا وجهه الطويل الرقيق ، وضم

راحتيه ، وردد بحزم ، في صوت هش يشبه قليلاً من يفيق من الوهم ويتناقض مع صوت الجنرال العميق :

ـ لقد صمدت . . .

وأجاب الجنرال بلهجة مرة :

ـ أجل .

والأرجح أنه قال في نفسه : « وبعد ؟ » كان في رأي ليون بلوم ، برغم شجاعته الأدبية العظيمة ، أن السياسة تتطلب التوفيق . لقد كانت اتفاقيات ماتينيون ضربة معلم . لا في القدرة على التوفيق السطحي الذي يصاحب الأعمال المشتركة ، فالجنرال يتملكها إلى حد بعيد ، ولكنه التوفيق العميق كأنه تحويل لعقيدة الخصم . (ما أكثر تعاطف البشر مع الفنون التي يتمتعون فيها بمواهب كبيرة . . .) أعتقد أن ليون بلوم كان يولي التوفيق القيمة التي يوليها الجنرال ديغول للصلابة .

قلت :

ـ صمدت لأن الاتحاد السوفياتي كان ضعيفاً . وأما مع الجيش الأحمر وستالين اليوم . . .

ـ قد لا تكون أميركا منلهفة على رؤية الروس في باريس . . .

ـ لو كان اسمهم الحزب الشيوعي الفرنسي ، ولم يحدث انقلاب ، فهل تتحرك الولايات المتحدة ؟ لكنني كنت أريد القول إن الجبهة الشعبية ، في عهدها الثوري ، قامت بإصلاحات حقيقية و . . .

قال ليون بلوم وهو يبتسم :

ـ حاولت ، مثلاً ، أن تعيد تسليح فرنسا . . .

ـ صحيح ولكن ما أن انتهت الفترة الثورية ، حتى وجدنا من جديد البرلمان التقليدي . وهذا ما يأمل الحكم الثلاثي أن يجده بدوره ، ولا يفصله عن ذلك إلا عمل الجنرال ديغول . ولكن كيف كانت جهودكم العسكرية عند إعلان الحرب ؟ لقد أرادت الحكومات أن توفق بين أنصار هتلر وخصومه ، بين أنصار المصفحات وخصومهم . عندئذ وضعوا نصف جندي في نصف دبابة ليخوض نصف معركة .

زاد من ابتسامه وهو يجيب :

ـ أنتم تعلمون أني لا أرى أن النظام البرلماني هو أفضل حكم ديموقراطي ممكن . . .

كنت أعلم ذلك ولا أشك في أن ما كتبه حول هذا الموضوع قد ساهم في تقريبه من الجنرال ديغول . وعاود الحديث قائلاً :

ـ في حقيقة الأمر ، انتم ترون أن المساومة تختص بسياسة القرن التاسع عشر . . . ممكن . وربما كانت الحياة نفسها مساومة . . . إلا أن . . . ستالين لم يضع أنصاف جنود في أنصاف دبابات لكنه وضع كثيراً من الناس في التوابيت . . . عندما كنت في الحكم تساءلت كثيراً إذا لم تكن المساومة هي فدية الحرية . . .

ـ إن مشكلة « التحرير » الرئيسية هي بلا شك التوفيق بين ما للدولة من سلطة واقعية وما للمواطنين من حريات واقعية . أمر يسهل أن نقوله ويصعب أن نفعله .

ـ لقد فعله الانكلوساكسون إلى حد ما .

ـ لكن الحزب الشيوعي لا حساب له في انكلترا ولا في الولايات المتحدة .

وجاءت مدام ديغول بالقهوة . وقمت لأحلس معها . ولم يكن الجنرال ديغول قد قال شيئاً . وبعد وقت قليل ، كان الرجلان في طرف الصالون تنظر إليهما المرأتان بحيرة . وكان الجنرال يعلم ، من مقالات جريدة « البوبولير » ، أن كل ما قاله مخاطبه منذ حين يقوم على الاعتقاد ـ الاعتقاد لا الرأي ـ أنه لن تكون هناك فرنسا بلا ديموقراطية ، ولا ديموقراطية سياسية بلا ديموقراطية اجتماعية ولا ديموقراطية اجتماعية بلا ديموقراطية دولية . إن ليون بلوم كان يرى في الاشتراكية أقصى أشكال الديموقراطية ، ويوفق بهذا الرأي بين مناداته بالنظام الجماعي وميله الشديد إلى الحريات الفردية . كانت لديه ثقة في الانسان لا تقل عمقاً عن الايمان الشيوعي ، ويبرر هذه الثقة مستشهداً بسبينوزا : « كل عمل نكون نحن سببه ، ويكوننا مدركين للصفة البشرية ، إنما أرجعه إلى الدين » . كأنه يضع أيام نضجه في خدمة أيام شبابه . كان لا يعتز إلا بما لا يمكن العقل أن يسوسه . . . كان هو أيضاً من الذين يسمعون الدعوة ـ وأشد ما يبدو عليه ذلك في تلك الأيام التي ما زال يحمل فيها آثار السجن . وكانت دعوته تقربه من الرجال الذين يعرفهم ، ودعوة الجنرال تقربه من الرجال الذين لا يعرفهم . الأول لا يؤمن إلا بعمل فريق العمل ، والثاني لا يؤمن إلا بعمل هيئة الأركان . والجنرال ، على الرغم من التلطف الذي يصاحب ضيافته دائماً ،

يبدو كأنه مدرع بفيض كريم . هل مست عاطفته سفاهة قضية ريوم ؟ لقد مستها بلا شك الاصلاحات التي فرضها مخاطبه والأعمال التي أنجزها والفهم المستنير في بعض تحليلاته التي كان يوجهها إيمانه الاشتراكي ولكن دون أن يخلط عليه الأمور . واعتقد أن الحوار بينهما قد تأسس على وعي كل منهما بقيمة الآخر ، وعلى حاجتهما المشتركة إلى تصور السياسة كوسيلة للتاريخ . ولكن الأمر كان مقضياً . وقبل الانتخابات بأيام قليلة ، اقترح الجنرال على ليون بلوم أن يخلفه إذا ما أدت به الظروف إلى الانسحاب ، فأجاب قائلاً : « لا أستطيع ذلك ، بسبب صحتي ، وأنا على الأخص لا أريد ذلك ، لأنني أجر وراثي كثيراً من الأحقاد . . . » .

كان الجنرال يعرف أن الفرنسيين تقبلوا الهزيمة ، ويعرف أنهم تقبلوا بيتان . وأعتقد أنه كان يعلم ، منذ أن رأى حماسة أيام التحرير ، أنه التبرير الذي يتعلل به ملايين من البشر . لقد رأت فرنسا في « المقاومة » الوجه الذي كانت تود أن يكون لها ، أكثر مما رأت الوجه الذي كانت عليه . غير أن حواره الحقيقي كان معها ، سواء أطلقنا عليها اسم الجمهورية أو الشعب أو الأمة .

قال نابوليون : « ان رجل الدولة دائماً وحده في ناحية ، والعالم في الناحية الأخرى » . ولا شك أن تفكير الجنرال يقول : « وحدي وفرنسا » . ان المتوحدين العظام كثيراً ما تربطهم علاقة عميقة بمجموع الأحياء والموتى الذين يناضلون من أجلهم . ولكن هل تغتفر له الأمة ما هي مدينة به لشخصه ، ان لم تكتمل لها أسباب التبرير ، برحيله ، (ولو بأن يصبح زعيماً سياسياً ، مثل

الأخرين ») ؟ مثلما تخلت انكلترا عن تشرشل ومثلما تركت فرنسا مجلسها يتخلى عن كليمنصو ! ولكن بعدما استبعد الجنرال فكرة الحزب الواحد ، لم يكن من الممكن أن تتم له العودة فوق الأحزاب إلا باسم الأمة . وكان الاستفتاء الأول يحمل في طيه فكرة انتخاب رئيس الجمهورية بالاقتراع العام ، ويتبوأ الشعب منزلة التحكيم العليا بين الرئيس والجمعية ، الأمر الذي يستنكره ليون بلوم بشدة . وربما كان رحيل الجنرال ، فيما كان ، استفتاء سرياً .

●

بعد اجتماعات مجلس الوزراء ، كنت أبقى معه ، كما تقضي العادة ، لتحرير البلاغ الصحافي . وفي يوم من الأيام وبينما كنا نهبط الدرج الذي يحاكي المرمر في فندق ماتينيون ، بادرني بقوله :

ـ ما الذي تنوي عمله الآن في وزارة الأعلام ؟

ـ لا توجد وزارة يا سيدي الجنرال . سينتهي الأمر بعد ستة أسابيع .

ـ أكون قد رحلت .

عندئذ ، ومن دون أي سبب معقول ، أدركت أن الجنرال ديغول لم يقم باستدعائي « إطلاقاً » . ولقد تأكد لي ذلك بعد أعوام . لقد نسجت حولنا مؤامرة غريبة ، ولا شك أنه سبقني إلى اكتشافها . وأظنهم قد نقلوا إليه دعوة بلساني ، في الوقت الذي أبلغوني بنداءه ، بعد أن اختلقوا كلا الأمرين . وهذا ما يفسر طابع

الغرابة الذي اتسمت به محادثتنا الأولى معاً . أما عن سلاح الطيران في القوات الفرنسية الحرة فقد تسلمت بعد ذلك بعشرين عاماً رسالة من السيد بنسويت مدير « الدليل الدولي للاسطوانة » اقتطف منها الفقرة الآتية : « التقينا مراراً في مكتب المركز في مرسيليا وتناولنا العشاء مرة بصحبة فكتور سيرج الذي كان يستضيفني في ذلك الوقت . لقد سبق ، لعلمك بما كان لدى قاريان فراي من إمكانيات الاتصال بانكلترا ، أن سلمته رسالة موجهة إلى الجنرال ديغول . وسلم فراي هذه الرسالة إلى زوجتي التي كانت سكرتيرته . وللأسف ، قبض البوليس عليها خلال التظاهرات التي قامت في ميدان « لاكانيبير » ، في المكان الذي اغتيل فيه من قبل اسكندر ملك يوغوسلافيا ، وبارثو . وفي حربة البوليس ابتلعت زوجتي رسالتك لكي لا يعثر عليها في حالة التفتيش . ولا أذكر الطريقة التي تم بها الاتصال النهائي بينك وبين الجنرال ديغول ، بعد هذه الحادثة المؤسفة ، لكني أظن أنه تم الوصول إلى وسيلة أخرى » .

٣

١٩٥٨ / ١٩٦٥

قدّر لي أن أراه من جديد في مارلي ، في كولومبي ، شارع سولفيرينو ، أيام « تجمع الشعب الفرنسي » ، ثم في الحقبة التي أطلقنا عليها « عبور الصحراء » . يقال : كان دائماً يعرف أنه سيستعيد السلطة . فهل تأكد من أنه سيستعيدها في الوقت اللازم ؟ كنت ، قبل ديان بيان فو ، أجلس مع بعض الأصدقاء في كوخ صيفي في اقليم فاليه ، وأمامنا عدد من السياح يتطلعون إلى الجبل الأبيض خلال نظارة ضخمة . وسألتني اليزابيث ده ميربيل : « كيف تتم عودة الجنرال ؟ ـ بمؤامرة يقوم بها جيش الهند الصينية ، معتقداً أنه يستخدم الجنرال لمآربه ، ثم يعض أصابعه ندماً » . ولم يكن جيش الهند الصينية هو الذي قام بها ، عندما كادت نبوءتي أن تصيب ، كنت أقيم في مدينة البندقية ، واثقاً من أنه لن يحدث شيء .

وطلب ليبدوان يقول ، بدافع مكيافيلي : « هو الآن يصطاد في البحر » ، ملمحاً بذلك إلى الكلمة التي نسبوا إلى قولها ، وأظنها من دليلك : « لا يذهب الانسان إلى شاطىء الروبيكون [1]

(١) الروبيكون نهر صغير كان يفصل بين إيطاليا وبعض قبائل الغول . ويقال بالفرنسية لمن يتخذ قراراً جريئاً : انه اجتاز الروبيكون . لأن مجلس الشيوخ في روما كان =

ليصطاد بالسنارة » .

لم أعلم بخطورة الأحداث إلا بعد عودتي .

كان السيد بليفن قد أعلن في اجتماع لمجلس الوزراء : « لم تعد تمثل إلا ظلالاً . . . لا تغرنا الكلمات . وزير الجزائر ليس في إمكانه أن يعبر البحر المتوسط . وزير الدفاع الوطني ، لم يعد له جيش . وزير الداخلية ، لم يعد في يده شرطة » . وكان الكثير من الجنود السابقين في الهند الصينية والمطليين القدامى يعملون في الشرطة الباريسية التي أعلنت الاضراب في شهر آذار .

بقي تكوين فرق الميليشيا . كان الرئيس بفليملين يعارض هذه الفكرة . ويرى في إنشائها تهديداً بالحرب الأهلية أشد خطراً من اللجوء إلى الجنرال ديغول ، وكان الوزراء ، على كل حال ، يتحدثون عن تكوين « لجان دفاع جمهورية » ، ولا يذكرون تسليح كتائب الميليشيا ، التي يخشى أن تصبح كتائب شيوعية . إلا إذا لم توجد كتائب بالمرة . وكانت النقابات تقول : « ان تعبئة الجماهير يمكن أن تتم حول موضوع الأجور ، لا حول النظام البرلماني . العمال الذين يذكرون أن الحريات أعيدت عام ١٩٤٤ ، ولكثير منهم أقارب في الجزائر ، يفضلون ديغول على الكولونيلات » . وعندما تحدث الشيوعيون عن التعبئة ، لحق المناضلون بخلاياهم ، لكنهم تركوها في الصباح وتركوا آخر المخلصين يلعبون بالورق .

= قد حرم اجتيازه لتأمين المدينة . وثار يوليوس قيصر على هذا التحريم ، وعبر النهر وهو يقول : قضي الأمر .

ويوم الأحد ، تتابعت على الطريق الغربي ٣٥٠٠٠ سيارة ـ بزيادة ٣٠٠٠ عن السنة السابقة .

ثورة مدينة الجزائر لم تكن أقل تشوشاً . وباريس لا تحسن فهماً لكلمة الدمج . قال سوستيل : انها تعني عكس ما يعنيه عدم الدمج . صحيح ؟ ان أسطورة الكيان الفرنسي من دنكيرك إلى تمنراست ، قد تولدت من تحقيق قام به قسم الدراسات النفسية التابع للجيش ، وهو في ميعة أمجاده . وكانت هذه الأسطورة تحمل معنى الاخاء للعسكريين العاملين ولضباط القسم الاداري بل لكثير من المظليين . وأن يكون قسم الدراسات النفسية هو الذي قام بتنظيم التحقيق ، ولو عن طريق نقل المسلمين في كميونات الجيش ، فذلك شيء قابل للتصديق ، ولكنه لم يتوقع ما حدث في ليلة الرابع من آب ، ولم يقدر على تحديدها . ان « يوم المعجزة » ، يوم ١٦ أيار ، قد فاجأ الذين أعدوا له ، وكانوا يقولون في كتاباتهم : « هذا الأمل لا يمكن مقارنته إلا بالأمل الذي طالعناه في باريس غداة التحرير ! » هذا اليوم فاجأ المسلمين الذين وجدوا أنفسهم في أحضان ذوي الأقدام السوداء [1] وفاجأ ذوي الأقدام السوداء الذين وجدوا أنفسهم في أحضان المسلمين . وأربك الشيوعيين الذين قرروا الا يصدقوه ، بل أربك جبهة التحرير الوطني لأنه لم يقع أي اعتداء في مدينة الجزائر خلال فترة التآخي . وأعلن قادة المظليين : سنعتمد حركتنا على عشرة ملايين من فرنسيي الجزائر ، الاوروبيين

(١) كناية تطلق على المستوطنين الفرنسيين في الجزائر .

والمسلمين . ولكن بعدما فترت الحماسة ، لم تكن أوضاع المسلمين قد تغيرت . وأصدرت « لجان الخلاص العام » قرارات بزيادة الأجور البائسة التي يتقاضاها العمال الزراعيون ، فكان المستعمرون يشغلونهم من الخامسة صباحاً إلى الظهر ويدفعون لهم نصف يوم محسوب بالأجر الجديد : أي أقل مما كانوا يتقاضونه قبل الزيادة . وامتد الغضب إلى الجيش الذي كان ينتظر من الحركة الجزائرية ثورة فرنسية مطورة بالتكنيك ، وحكومة فنصلية [1] تتألف من سان جوست وماوتسي تونغ ـ هذا الجيش الذي لم تكن تؤلف بينه غير الرغبة في عمل سياسي ، وكراهية نظام لا يعرف صناعة الحرب ولا صنع السلام . أما المدنيون فكانوا يرتابون في التآخي . وداخل تنظيماتهم الوطنية المعادية للعاصمة كانت الجزائر الفرنسية تعني عدم اللزوم فرنسا الجزائرية . والرجعيون المتمرسون يعلنون تأييدهم للاندماج ، فقد اعتبروا أن حق التصويت أصبح أمراً مكتسباً للمسلمين الذين هم تسعة ملايين من الأصوات سوف تكون أثقل وزناً من أصوات مليون من ذوي الأقدام السوداء ، ولكن أقل وزناً من أصوات عشرين مليون فرنسي . وفي مدينة باستيا في جزيرة كورسيكا ترك المعاون الاشتراكي دار العمدية التي احتلها المظليون ، وهو يغني نشيد « المارسييز » ، وصحبه المظليون وهم يغنون أيضاً ورددت الجموع المحتشدة في الميدان ، ولا من

(١) القنصل في روما القديمة ، كان هو المستشار المنتخب لمدة سنة ، ويقاسم مع زميل له السلطة العليا .

يعلم هل كانوا ينشدون « المارسييز » من أجل المعاون ، أو من أجل المظليين ، أو من أجل الكل . . .

وفي أول حزيران وصل إلى باريس مبعوث « لجان الخلاص العام » وكان يتوقع أن يرى المدينة في حالة حصار ، فبهت عندما وجد الناس يلعبون بكرة الخشب في ساحة الأنفاليد . ولقيت واحداً من أشهر مراسلي الصحف الاميركيين يؤكد لي أن الجنرال ماسو قد حرب التعذيب على نفسه ليكتسب الحق في أن يأمر بتعذيب الغير . إلا أن الأذهان كانت تستخلص من هذا الهرج والمرج أن هناك حركة مضادة لا يعوزها التصميم ، تمتلك الطائرات والمقاتلين ، في مواجهة حكومة باتت بلا جيش ولا شرطة . وكان سالان ، مندوب بفليملين ، قد صاح : « عاش ديغول ! » وما عاد القوم ينتظرون من الجنرال أن يوقف المظليين ولكن أن يمنع الحرب الأهلية ـ التي أوشكت أن تبدأ ، كما بدأت حرب اسبانيا ، وكما بدأت ثورة أكتوبر ، ودور السينما مفتوحة والمتسكعون يتنزهون .

بعد عودتي بيومين ، استدعاني الجنرال إلى فندق « لابيروز » .

●

جدد للقائنا الساعة الخامسة ، وقد يرجع ذلك إلى أنه اعتبر حديثنا فترة من الراحة . وأمر بإحضار الويسكي والشاي . وجلسنا في قاعة الجناح الذي كانوا يخصصونه له كلما جاء إلى باريس : طراز الفنادق في عهد لويس السادس عشر ، فضلاً عن الهدوء الذي

يفرضه الجنرال ديغول من حوله دائماً . وحمل الشاي من أمامنا ليعود إلى الحلبة التي كانت تصعد من البهو وتملأ الدرج ، مثل الفوضى التي تسود البلاد .

قال لي ما خلاصته :

ـ إن المسألة الرئيسية هي أن نعرف ما إذا كان الفرنسيون يريدون أن يبنوا فرنسا من جديد أو يريدون أن يأووا إلى فراشهم . لن أبني فرنسا من دونهم . وعلينا أن نكمل استمرار المؤسسات في عملها إلى أن يحين الوقت الذي ادعو فيه الشعب إلى اختيار مؤسسات أخرى . وهو مؤقتاً لا يرغب في الكولونيلات . فعلينا إذاً إعادة بناء الدولة ، وتثبيت العملة ، والتخلص نهائياً من الاستعمار .

وجدت مرة أخرى أسلوب الايقاع الثلاثي الذي يألفه الجنرال مثلما يألف غيره المقولة ذات الحدين .

ـ بناء دولة بحق ، معناه بناء دستور بحق . إذاً فالاقتراع العام هو مصدر كل سلطة ، السلطة التنفيذية والسلطة التشريعية منفصلتان حقيقة ، والحكومة مسؤولة أمام البرلمان .

« تثبيت العملة لن يكون سهلاً ، لكنه أقل صعوبة مما يقال ، إذا كانت الدولة قادرة على الاستمرار والحزم ، أي إذا كانت الدولة دولة .

« قضية المستعمرات . . . يجب أن أقول لكل الذين تتألف منهم الامبراطورية : ان المستعمرات أمر زال وانتهى . فلنعمل معاً على تكوين « مجموعة » ولنرتب معاً دفاعنا وسياستنا الخارجية

وسياستنا الاقتصادية .

« وفي ما يتعلق بالباقي ، سنساعدهم . وبالتأكيد سوف ترغب البلاد الفقيرة بأن تشارك البلاد الغنية التي لن تبدي اللهفة نفسها . وسوف نرى . فلينشئوا لهم دولاً . إذا كانوا قادرين .

« وإذا كانوا موافقين .

وأما الذين لا يوافقون ، فليذهبوا . لن نعترض على ذهابهم . وسوف ننشيء المجموعة الفرنسية مع الآخرين » .

كان هذا التصميم قريباً إلى ذهنه ، منذ الخطاب الذي ألقاه في برازافيل ، عام ١٩٤٢ . ولكنه اليوم لا يكتفي بالأمل . وبينما تستعرض المواكب الهزيلة من ميدان الباستيل إلى ميدان لاناسيون ، تريد أن تقلد « الجبهة الشعبية » التي لم تحمل وزر العدوان على السويس وحرب الجزائر ، والتي حققت من العدالة الاجتماعية ما لم تحققه الجمهورية الرابعة ، كانت فرنسا مقبلة على أن تعلن لكل مستعمراتها القديمة : « إذا كنتم تريدون الاستقلال حقيقة ، فخذوه ! » .

لم يذكر الجزائر في حديثه . كان يريد أولاً أن يصبح الجيش الفرنسي هناك جيش فرنسا التي قامت بإهداء الحرية لسبعة عشر بلداً ، لا جيش امبراطورية استعمارية . ويذهب إلى مدينة الجزائر بعد أن يتم إعلان ذلك . ان طريق الجزائر سيمر للمرة الثانية من برازافيل .

أين يمضي هذا الطريق ؟ الكاريكاتور يستطيع بعض الأحيان أن يعطينا شبه الأشياء ، وقد كنت ذاتياً أرى خصوم الجنرال - ومن

فيهم روزفلت - يرسمون له صوراً كاريكاتورية لا تشبهه . وخصومه الآن يعتبرونه رجعياً ، لقد كانوا يتناسون الاصلاحات الاجتماعية التي تدين بها فرنسا لعهده ، وهي الاصلاحات الرئيسية الوحيدة منذ أيام الجبهة الشعبية . وكانوا يعتبرونه زعيماً من زعماء المظليين ، ويرون أن الحكومة التي يعمل على تكوينها لن تعجب الجزائر ، وأنه لن يصبح رئيساً « للجان الخلاص العام » كما فاته من قبل أن يصبح رئيساً « للقوات الفرنسية في الداخل » أو رئيساً « للرماة الأحرار والأنصار » . هو يستعيد السلطة في مواجهة فوضى عظيمة ؟ انها لأخف من الفوضى التي كانت سائدة عام ١٩٤٤ . وظن خصومه أنه سوف يمارس السلطة وفقاً لما تمليه عليه أهواؤه ، ويبني توقعه لاستقرار فرنسا على انتهاء النزاع الجزائري . أما أنا فكنت أتساءل هل يبني على استقرار فرنسا ، انتهاء هذا النزاع ؟ وكان يريد مؤقتاً أن يراقب الأمور ويتدبرها بنفسه . وربما كان يريد أن يتحسس سلطته .

بالكاد ذكر في حديثه المشاكل الاجتماعية . ومن الطريقة التي أرجأ بها طرح هذه المشاكل ، بينما هو أولى اهتماماً شديداً لمشكلتي العملة والامبراطورية ولمشكلة الدولة في المقام الأول ، بدا لي أني أدركت ما يرمي إليه . فهو يناضل ضد اتجاه عقارب الساعة ولكن في غير هذا المجال (الاجتماعي) . وربما كان لا يغضبه أن يرى الشيوعيين وأن يرى اضطراب المعمعة السياسية وهم يضلون بعيداً عما يعتبره جوهر مشاكل البلاد وصميم إحساسها . وكان أن صرح لي بعد أيام من هذا اللقاء : « لا تنس أننا لم نقم بالثورة » . وكان في

ذلك قاطعاً كأنه قد من صخرة واحدة ، إلى درجة لم المسها من بعد إلا أيام المتاريس في مدينة الجزائر .

كل إنسان يتأمل الماضي فهو في خلوة ، وبالأخص من كانت ذكرياته ملحمة ، وقد عاد الآن من خلوته : كان قبل أسبوع عاكفاً على تصحيح « مذكراته » . لقد ترك العزلة الكبرى التي حملها دائماً في ذات نفسه ، لمفاوضات يباشرها ، ولكنه تركها أيضاً من أجل مصير فرنسا الذي تملكه ولازم وجوده منذ أعوام عديدة . لم يتغير شيء في حواره الرزين مع هذا الطيف . وفي هذه الأيام حين كان أعنف المنادين به يصفون أنفسهم بالفاشيين وأشد المهاجمين له يصفون أنفسهم بالشيوعيين وبدا كأنما قضى على فرنسا بالمجابهة بين الأحزاب الشمولية ، كان هو لا يفكر إلا في أن يقيم الدولة من جديد . على أنني ، قبل ان أغادره ، تكلمت عن الشباب ، فقال لي : « لو استطعت ، قبل ان أموت ، أن أشاهد من جديد « شبيبة فرنسية » فسوف يكون ذلك . . . » وربما أرادت لهجته أن تقول : « . . بمثل أهمية التحرير » . لكنه ترك جملته معلقة ، مثل اشارته . وبعدما استأذنت منه ، تذكرت يوماً من أيام الشتاء ، عند مشارف غابة كولومبي . وقفنا هناك ، وعلى مدى البصر ، أمام المقبرة التي ترقد فيها ابنته ، لم نطالع قرية واحدة . وكما فعل منذ حين في قاعة الجلوس الصغيرة ، مد ذراعه ، نحو الوهاد الكثيبة في هضبات لانغر وارغون ، وقال : « قبل ان تجتاحها الحروب الكبيرة ، كانت كلها آهلة » .

●

عند عودتي بالسيارة كنت أفكر في لقائنا الأول .

أصبح شاربه بلون الرماد ، لا يكاد يرى . وفمه الآن يتصل بخطين عميقين حتى يبلغ ذقنه . قال لي بالتوسي ذات يوم : « هل لحظت أن محياه يشبه الصورة التي رسمها بومسان لنفسه ؟ » لقد أصبح الآن كذلك . ربما كانت للتاريخ سمات يأتي بها . لقد تشرب قناع وجهه على مر السنين عطفاً بادياً ، ولكنه ظل وقوراً . وكأنه الآن لا يعبر عن المشاعر العميقة ولكنه يتسدل عليها . تنم تعبيراته عن التهذيب والتلطف ، وأحياناً عن روح الفكاهة . فتصغر العين عندئذ وتتقد في آن واحد ، ولمقدار ثانية خاطفة ، تستبدل بالنظرة المفعمة ، عين الفيل « بابار » .

اليوم تعني معرفتنا انساناً ما ان نعرف منه على الأخص الناحية اللامعقولة ، وما لا يخضع لزمامه ، وما قد يطيب لهذا الشخص أن يمحوه من الصورة التي يتخيلها لنفسه ، ان كان ذلك ، فأنا لا أعرف الجنرال ديغول . يا تعس المكر القائل : « اعرف البشر ، لكي تؤثر عليهم . . . » لا يتم التأثير على البشر بالمعرفة ، ولكن بالاكراه أو بالثقة أو بالحب . غير ان تعاملي الطويل مع الجنرال ديغول قد أطلعني عن كثب على بعض طرائق تفكيره ، وعلى علاقته بالشخصية الرمزية التي يسميها « ديغول » في مذكراته « أو هي ، اذا أردنا الدقة ، الشخصية التي حرر في مذكراتها ، حيث لا يظهر « شارل » في صفحاتها اطلاقاً .

ربما كانت المسافة التي حيرتني ، عندما التقيته للمرة الأولى ، تأتي جزئياً من طابع لاحظه ستندال لدى نابليون عندما قال : « كان

يدير الحديث . . لا يطرح سؤالاً طائشاً ولا يقدم افتراضاً ساهياً على الاطلاق » .

ولكن ما ان يخلع الامبراطور دوره (بل في بعض الأحيان وهو يلبسه) حتى يظهر نابليون السريع الغضب أو المشل ، زوج جوزفين وغاوي المقالب . وكانت الحاشية كلها تعرف هذا الشخص . والجنرال ديغول في حياته الخاصة ، ليس عند معاونيه بالرجل الذي يتكلم في الشؤون الخاصة ولكنه فقط الرجل الذي لا يتحدث في شؤون الدولة . لا يرضى لنفسه الانسياق وراء انفعالاتها ولا التواني عن ضبطها . وكان يتقبل عن طيب خاطر ، اثناء الحفلات او في مناسبات يختارها بنفسه ، أن يخوض في حديث سطحي ، ولكن ذلك لا يعدو ما تمليه عليه الكياسة التي لا تنفصل عن شخصه . نابليون أفزع جاراته . وأما الجنرال فهو في رأي جاراته متباعد و « جذاب » (جذاب معناها : يحسن الاصغاء) لأن هذا الرجل ، حتى وهو يحدثهن عن أطفالهن ، لا يزال هو الجنرال ديغول . ثم انه لمن النادر ألا نعثر في تراجم الرجال الذين صنعوا تاريخ بلادنا ، على نساء غير زوجاتهن . . . كل ذلك يتفق مع شخصية الرجل الذي استقبلني في ما مضى في وزارة الحربية وذكرني بمؤسسي الطوائف الدينية المقاتلة . وفي نظر الجميع ، باستثناء أسرته بلا شك ، كان يبدو مثل شعاع لطيف من شخصيته الأسطورية .

سيتضح يوماً ان الرجال يفصل بينهم ما تمثلوه من الذكريات بقدر ما يفصل بينهم ما اكتسبوه من الطباع . وتختلف الذكريات من

حيث الأعماق التي تمتد اليها ومن حيث الشبكات وما يقع فيها . . . ولكن أكثر الذكريات عمقاً لا يعبر عنها الحديث حتماً . وكان هذا الرجل الذي اشتهر بذاكرته وانتمت حياته منذ ثمانية عشر عاماً إلى التاريخ ، يبدو كأنه يواصل حواره الخفي مع المستقبل ، لا مع ماضيه . لم أسمعه يتكلم عن نفسه إلا مرتين ـ وكانت المناسبة في كل مرة هي موت انسان . ولم أسمعه يتكلم عن الاخرين بافاضة أكثر : لقد حدثني قليلاً عن تشرشل وعن ستالين (« طاغية آسيوي كما اراد أن يكون ») وفي نصف سطر عن روزفلت (« وجيه ديموقراطي ») وصور الشخصيات في حديثه ، كما هي في مذكراته ، لا تتعدى صدر قوامهم . كان يفكر في رجال التاريخ باعتبار أعمالهم ، وربما في الرجال جميعاً باعتبار الأعمال التي يراهم قادرين عليها . وكانت الأحاديث التي حضرتها تتجه ، عندما يخرج بها عن الأعمال الجارية الى ميدان الفكر أو التاريخ ، تتلاطم الحياة من حوله مثل البحر المضطرب ، ولا تختلط به إلا من خلال نبرات الخبرة المرة . وحديث داخله وذاته لا يظهر أبداً ، وكان يرجع في المواضع التي يستشهد بها والمقارنات التي يعقدها (ما أشد دلالتها على الانسان !) الى مجال التاريخ ، وكثيراً ما يرجع الى مجال الأدب عندما يريد أن يتهكم،لكنه لا يطرق مجال الأديان أبداً . ينسبون اليه القول عند الاجتماع بالبابا : « والآن يا صاحب القداسة ، ماذا لو تحدثنا عن فرنسا ؟ » غير ان النبرة المتميزة التي وصف بها ستالين في مذكراته ، تعود الى ذكرى الدكتاتور حين قال له : « في نهاية الأمر ، لا ينتصر الا الموت » .

كتب يقول ان الشخصية التي يروي عنها هذه « المذكرات » ولدت من الهتافات التي حيت عودته وبدت له كأنها ليست موجهة اليه . ولكن هذا الكتاب ليس من كتب المذكرات بمعنى « الاعترافات » ولا بالمعنى الذي يفهمه سان سيمون . ان ما استبعده المؤلف من شخصيته(استبعد«شارل»أولا)لا يقل دلالة عما انتخبه من تلك الشخصية ، وكما تحدث قيصر وكزينوفون عن نفسهما بضمير الغائب ، جاء هذا الكتاب عن عمل تاريخي يرويه الرجل الذي أتمه . بطله بطل رواية « حد السيف » الذي لا اسم له . وقد أذهل الناس طابع التنبؤ في هذا الكتاب الذي يتنبأ بشخص أكثر مما يتنبأ بالأحداث - هو صورة بطل بلوتاركي ، أبدعته في المخيلة تلك القيم التي ستبدع في التاريخ مصير هذا البطل ، وبهذا كانت الصورة تشبه صاحبها . لا شك أن الازدواج يمس معظم رجال التاريخ وكبار الفنانين : نابليون ليس بونابارت ، وبسيان ليس الكونت تيزيانو فيشيليو ،وهوغو عندما يفكر في الشخص الذي أطلق عليه في البدء اسم أوليمبيو ، كان يدعوه ، بكل تأكيد ، فكتور هوغو . ان تماثيل المستقبل تمتلك الرجال الجديرين بها ، أرادوا ذلك أو لم يريدوا . شارل قد شكلته الحياة ، وديغول القدر والمصير ، مثلما شكلت الحياة فكتور ، والعبقرية هوغو . ولكن عمل الانسان ، قدراً كان أو عبقرية ، يستدعيه شيء سبقه الى الوجود ، وهذا الشيء ، مثله مثل الحياة ، يصادف اتفاق الحوادث والظروف ؛ الآية تضمن العبقرية والعبقرية لا تضمن الآية . لا شك ان معظم البشر مزدوجون ولكن لا يستطيع كل منهم

ان يرى إلا ازدواج نفسه . على ان خلق شخصية ما هو اندر حدوثاً مما يبدو: الازدواج مشترك في الوجوه الدينية العظمى ،ومثير في الكواكب اللواتي لا تنتزع منهن شخصياتهن فقط ،ولكن وجوههن أيضاً ، بعد ان تحورها الشاشة . « فينوسات » لساعة من الزمن لا يتجسدن إلا في الأدوار التي تعرض عليهن . وليس الدور هو الذي يصنع الشخصية التاريخية انما هي الدعوة .

وكل الدعوات تثير من الأحقاد (معاداة الحرب أو معاداة الاكليروس) ما لا تثيره المهن . ان النصاب لا يثير المشاعر التي يثيرها الضابط الجبان أو القسيس المتلوث أو القاضي المرتشي ، لأن هؤلاء ، وقد خانوا الدعوة ، أصبحوا منتهكين لحرمة أرباتهم . ونضال الانسان مرتبط بطباعه ، هذا ما يعلمه الجميع . ولكننا أقل علماً بأن نضال الانسان يتطلب تنظيماً معيناً لعمله ، تمليه عليه الدعوة في الوقت نفسه الذي تختار له المعركة .

الجنرال ديغول كان عسكرياً بمقدار قليل ، ولكنه يتصور العمل وفقاً للعقلية العسكرية ، بالمعنى الذي نقول به عن انسان ما انه منشرب بالروح الكهنوتية أو بروح القانون . ولكن الفرنسيين ، وقد توزعت أذهانهم بين الروايات الخيالية والأهاجي الساخرة ، بين دارتانيان [1] وكروكبول ، قد انتهى بهم الأمر الى ان يتجاهلوا هذه العقلية . والقول بأن الاسكندر وقيصر وفريدريك الثاني ونابليون لم يكونوا إلا رجالاً ممتلئين يحملون السيوف (وهو قول اناتول فرانس) رأي يتسم بالخفة على أقل تقدير . وبفصل كورنيل ، وعلى الرغم

(١) بطل رواية « الفرسان الثلاثة » لاسكندر دوماس الكبير .

من معركةفردان ، كان الجيش ، حتى منتصف هذا القرن ، يعني الثكنات . ان أستاذ الكلية الحربية وخريجها المثقف أكثر الفة عند الألمان بفضل التقاليد التي أرساها فريدريك والهيئة العليا لأركان الحرب البروسية ، وعند الانكليز بفضل جنرالاتهم من العازفين على الكمان ومن حكام القدس ، مثل ستورس . والجيش أداة معقدة ، لم يكن يعلق منها في أذهان الفرنسيين غير الانضباط . على أن الانضباط ليس من الأمور التي تتأتى بداهة أو بطبيعةالأشياء : لقد اضطر نابوليون في جيش إيطاليا ، وبيتان في فردان ، أن يعيدا الانضباط أولا . واذا كانت الدعوة العسكرية ، في روسيا والصين ، قد اتخذت من جديد وبسرعة شكل الدعوة الوطنية ، فلا « الفرقة الأجنبية » ولا ألوية المرتزقة في قرننا هذا ، وحدات وطنية .

واعتقد أن العقلية العسكرية كانت تعمل فيه أثرها بطريقة عميقة ومحدودة : لأن الجيش ، عندما دخله ، كان مهيأ للقتال . وبدا له من هذه العقلية العسكرية انها توحي مناهج وأساليب في الحكم تتفوق على المناهج والأساليب المدنية . ان تنظيم سير العمل أولى مهمات رجل الدولة ، كما هو أولى مهمات الاسكندر وقيصر .

وكانت أشد الأساليب فعالية في هذا الميدان ، هي أساليب الجيش والكنيسة ، وقد أخذت بها الأحزاب الشمولية ، بل الى درجة أقل ، الشركات الكبرى الرأسمالية والشيوعية . لكن نابوليون لم يجعل فرنسا بلداً يحكمه ماريشالاته ، لقد أوجد أقوى ادارة مدنية عرفتها فرنسا . وكان الجنرال ديغول عام ١٩٥٨ ، كما كان عام ١٩٤٤ ، يريد ان ينشىء جهازاً يخدم فرنسا في السلام ،

كما كان ممن الممكن لجيش حديث أن يخدمها في الحرب .

ورث فكره من تكوينه العسكري طبائع أخرى . وقبل كل شيء ، تصور الحكومة على انها أداة لمعركة من أجل تنمية فرنسا وتطويرها . لم ير في الحكومة ثكنة أو جيشاً . لكنه اعتبر مفوضي « الحكومة المؤقتة » ، ثم اعتبر الوزراء هيئة أركان حرب ـ وعلى الأخص اعتبر في ما بعد معاونه المباشر ، سواء كان مدير مكتبه أو رئيس الوزراء ، قائداً لهيئة الأركان العامة .

وثمة طابع عسكري آخر : يقينه ان القرار المتخذ لا يجب تأجيله . لأن السرعة جزء من القدرة على الحسم ، ولأن الصيد لن يعود ثانية ، ولكن قبل كل شيء لأن القرار التاريخي لا يمكن ان ينفصل عن اللحظة التي اتخذ فيها . على هذا الأساس كان الحوار الآتي بينه وبين الجنرال جوان الذي قال له :

ـ لو انك انتظرت ، بما تهيأت لنا فرص أفضل ؟

ـ أجل . لكنها ما كانت ستتهيأ لفرنسا . ان المستقبل يدوم طويلاً .

ذلك لأن قدرته على القرار المفاجىء لم تكن تتعارض مع التنبؤات التي لا ينتظر لها التحقيق إلا من المستقبل : نداء ١٨ حزيران تأكيد قوة الجيش الأحر في الوقت الذي كان مهزوماً ؛ وفي ما بعد تتابع موقفه الفوري ، الى جانب الولايات المتحدة ، ضد ارسال الصواريخ السوفياتية الى كوبا ـ وموقفه ، البعيد الأجل ، ضد الولايات المتحدة ، في موضوع جنوب شرق آسيا .

لقد حاول دائماً أن يجعل الزمن الى جانبه ، أو بالأحرى أن

يجعل نفسه إلى جانب الزمن ، بقدر ما يستطيع الزمن أن يسهم في نجاح مقاصده . وكان في ذلك يشبه المزارع أكثر مما يشبه الرجل العسكري . كان ينتظر من الجمهورية القادمة أن توفر له استمراراً في العمل ، لم يتوفر من قبل ـ وبطريقة ما أسوأها ـ إلا للحظة . وعند العقلية العسكرية ان الوقت ، حتى الوقت الذي تقتضيه صناعة الحرب ، يكون جزءاً من الاعداد والتأهب ؛ وعنده أن الكلام وسيلة للنطق بالأوامر ـ وسيلة عمل . وكان الجنرال ديغول يرتب العمل ، وفقاً « لتصميم كبير » متغير ، ما دام محكوماً بحدود الممكن ، والممكن متغير هو أيضاً . ويعزم على انجازه بكل الوسائل الموجودة في متناوله . وكان واعياً للدور الفعلي الذي يمكن أن تمارسه ، في فرنسا وفي الخارج ، شخصيته الرمزية ؛ إلا أنه شديد الاهتمام بأن يكون على حق ، بأن يقول للفرنسيين ما يجب ، فعله من أجل فرنسا » . لم يكن في خطبه وفي مؤتمراته الصحافية شيء يشبه الوحي المنزل . ان قوته كانت ـ ولا تزال ـ في سلطانه على النفوس ، لا في سريان الحمية . يقول القائد العسكري : « نحن والعدو » ، ويقول القائد التاريخي : « نحن ومصير العالم » . ويدين الجنرال ديغول للخاطر الثاني بعقليته ؛ ويدين للخاطر الأول ، بمعظم أساليبه في العمل . وهو مثل الماريشال فوش الذي اشتهر بسؤاله الدائم عن « جلية الأمر » . كان قد أدهشني في اجتماعات مجلس الوزراء و « تجمع الشعب الفرنسي » والمقابلات اذ سمعته يلخص الأفكار والآراء التي تعرض أمامه . وسرعان ما أدركت أنه يريد تصفيتها . يبدو عليه أنه يعدد رؤوس المواضيع ،

بينما هو في الحقيقة يعدد الأجزاء التي تقبلها بعد ان يقوم بتجميعها ؛ ثم يعطي تعليماته وفقاً للتعديلات التي أجراها على الصورة الأصلية . وتقتصر المداولة على المسائل الرئيسية . كان الحوار التقليدي في شؤون الدولة ، غريباً عليه . كان يصغي الى محاطبه ، دون ان يقاطعه . وقد يستوضحه بعد ذلك في بعض النقط ، واذا اقتضى الأمر ، يصدر تعليماته . وأحياناً يقول للبعض ، بلهجة من يولي الثقة ، لا من يأتمن على سر : « طيب ! سأقول لك ما أراه » . والأمر يتعلق عندئذ بمسألة خطيرة أو برئيس دولة . بكيفية التصرف في واشنطن أو لندن أو موسكو ؛ في العد في مدينة الجزائر أو في مجال المنشآت الذرية .

من القرار الذي اتخذه في ١٨حزيران ، اعتقد ان الأمل قد احتفظ لديه بنبرة فاجعة . جلية الاستعداد للقتال تسود أرجاء الفندق ، حول القدر الذي عاد الى الظهور . ربما تخيل الجنرال فرنسا في ما مضى « أميرة أسطورية » ؛ ولكنني كنت على يقين من أنه أقل ارتباطاً بفرنسا أو أوستراليتز ، منه بفرنسا المحتضرة عام ١٩٤٠ ، فرنسا التي تسير نائمة والتي يقبل على لقاء جمعيتها الوطنية غداً . وعلى الجانب الآخر من الباب ، سوف أطالع الخماسة الدافئة . لكنني عندما استأذنته تذكرت المثل العربي الذي استشهد به أمامي في ما مضى : « اذا أهانك عدوك ، فاجلس على باب بيتك وسوف تمر عليك جنازته » .

●

الجلسات التي تعقدها الجمعية ليلاً ، لها دائماً طابع لا واقعي . كمثل مسرى الضوء في حوض الأسماك ، يرتد عن زجاج النوافذ ويتشر كضياء يوم يسقط فيه الجليد ، على اللوحة المنسوجة بعنوان « مدرسة أثينا » ، وفوق المنصات الثلاث المتوالية على شكل هرم - الرئيس والخطيب وكتبة الاختزال - والنحت البارز من الطراز الامبراطوري يشبه فصوص الجواهر العملاقة .

نصف الدائرة العتابي كان مشغولاً عن آخره . والمقاعد المخصصة للجمهور بالمثل . وبالأمس قال بيدو للنواب : « بينكم وبين السين لا يوجد غيره . هو المظلة الأخير ةضد الجراد ! » . جو من الخطر والتهديد ، لم يحل محله الهدوء ولا الهياج . الجلسات التاريخية في عهد الجمهورية الثالثة ، وروايات باريس عنها واضطراب النواب نحو المنصة ، والمجابهة بين كليمنصو وجوريس ، واعلان النصر عام ١٩١٨ ! . . هؤلاء النواب في مقاعدهم ، والجمهور المكتظ بين الأعمدة العالية ، يبدون لي كأنهم معلقون في الزمن ، وكأن الفيلم الذي يروي مئة سنة من تاريخ الجمعية الوطنية قد توقف عند صورة ثابتة . وه التصريح الوزاري » الذي أعلن في المساء كان يختلط بطلبات التعديل واستفسارات عن التصويت ، غارقة كلها في الضوء نفسه الذي تسرب في حوض الأسماك ، في اللاواقعية نفسها الآتية من أن أحداً لا يتكلم من أجل الاقناع . وكان الجنرال قد قال : « تحلل الدولة يسرع مهرولاً ، والوحدة الفرنسية يهددها خطر مباشر ، والجزائر غارقة في عاصفة من التجارب والانفعالات ، وجزيرة كورسيكا تفترسها الحمى

المعدية . وفي الوطن الأم حركات تسير في اتجاهات متعارضة وتعنف ساعة بعد ساعة في أهوائها وأعمالها . والجيش الذي طالما تمرس بالمهمات الدامية والرائعة ، يصدمه اليوم افلاس السلطات . ومركزنا الدولي مضروب بشدة حتى داخل التحالفات التي نشترك فيها . هذا هو وضع البلاد اليوم . وفي هذا الوقت نفسه الذي تسنح فيه لفرنسا فرص عديدة في كثير من النواحي ، تجد نفسها مهددة بالتفكك بل ربما بالحرب الأهلية » . وحجج الخصوم كانت معروفة مثل المعنى الذي يحتوي عليه بيان الجنرال . وما غشيني من كل ذلك لم يكن عدم المبالاة ، ولكن الانتباه المفعم والذي لا هدف له والذي يقف بالمرصاد لما لا يمكن توقعه . كان جاك ديكلو يدافع عن الديموقراطية ، فلا يمكن ان يكون جاداً ، ولكن منديس فرانس كان يدافع عن المبادىء التي وجهت حياته ، كلهم يؤكدون انهم الشعب ، والدولة ، وفرنسا ، وكلهم يعلنون ان الشعب لن يدافع عنهم . كانوا يخافون من أن يصبح الكولونيلات في ما بعد أقوى من ديغول . ولكن الكولونيلات كانوا أقوى من الجمعية ، وكيف يمكن أن ترمى بالفاشية حكومة تضم بين وزرائها الرؤساء السابقين غي موليه وبفليملين وبيناي ؟ الفاشية حزب وجموع وقائد . ولم يكن للأوروبيين في مدينة الجزائر حزب ، وكان لباريس أكثر مما يلزمها من الأحزاب . وكأن أجنحة التاريخ تتحطم على زجاج النافذة الكئيبة ، وآخر بسمات الاستخفاف البرلماني تمحي فوق وجوه وردية وتائهة . وجمهور منهك ينظر الى النذر وهي تتضاحك . في ختام آخر كلمة القاها ، قال الجنرال : اذا قدر لثقة البرلمان ان تمنحه الحق عن

طريق الاقتراع العام في تغيير مؤسساتنا . « فان الرجل الذي يحدثكم سيكتسب من ذلك شرفاً يحمله طوال ما بقي له من الحياة » . عندئذ دوى التصفيق معلناً نهاية المسرحية ، وراح السيد ميتران والسيد بينو يتحدثان أمام الستارة المسدلة .

هذا ما أطلق عليه الشيوعيون : « عملية الاغراء بعد عملية الشغب » متناسين أن الجنرال ديغول ليس الوحيد الذي يغري عندما ينتصر . وبعد انتهاء الجلسة ، انفض المسرح (ان مجلس العموم قاعة ولكن الجمعية الوطنية نصف دائرة) بلا ضجة . وفي طريق العودة ، تجاوزت في سيري امرأة فقيرة ترتدي ثياب الفلاحات ، انتعلت خفاً وشرعت في يدها مكنسة فكأنني التقيت بما كان يدعى في أيام فلوريس ، « الجمهورية » .

كان من السهل التكهن برد الفعل الذي يمكن أن تحدثه لدى المسؤولين في مدينة الجزائر ، حكومة تخلو من جاك سوستيل ويتولى فيها غي موليه وزارة دولة . ان غي موليه وبيار بفليملين ، قاما بمعاونة بعض الوزراء من البرلمانيين ، بتحقيق الاتصال المستمر بأعضاء الجمعيتين ، وبذلا مجهوداً مرهقاً حتى انهما حضرا في الصباح عند الساعة التاسعة دون ان يحلقا ذقنيهما ، ليشتركا في الاجتماع الأخير الذي عقد في فندق لابيروز . وفي المساء قام الجنرال كما تقضي العادة ، بتقديم حكومته لرئيس الجمهورية . وكانت أضواء قصر الاليزيه ضعيفة جداً ، تضفي على المكان اللاواقعية نفسها التي قابلتها في المجلس . وبينما راح الرئيس كوتي يتحدث بمرح وود الى الوزيرة الجديدة الآنسة سيدكارا ليرفع عنها الخجل الطفيف الذي

اعتراها ، لمع برق شكسبيري أصاب احدى الشجرات الكبيرة في حديقة القصر ، فبزغ من غبش الظل ، مقدار ثانية من الزمن ، الجنرال ديغول يحيطه مجلس وزراء مصعوق .

بدا كأن تثبيت العملة يجري بسهولة ، مثل الحرب وفقاً لما يقول نابليون . وأما الدستور فكان بالعكس موضوعاً لاجتماعات عديدة يعقدها مجلس الوزراء وكثيراً ما يواصلها ليلاً . وذات يوم سألني الجنرال عند الخروج « هل يسليك هذا ؟ - نعم ، تسلية غير قليلة . . . » لم يكن يخطر لي ان يرى القرن العشرون ولا أن ترى فرنسا مولد دستور يحاط باحترام روماني ، مثل دستور الولايات المتحدة ، وكنت أعتقد أن دستوراً يجعل من الاستفتاء وسيلة للحكم ، سوف يوضع من أجل الشعب ، لا الشعب من أجل الدستور . وكانت المداولات الخاصة بالمواد « الاجتماعية » تبدأ بحوار سرعان ما يتوتر ، بين غي موليه وأنطوان بيناي . وسوف يمر كل ذلك كما مرت الجلسة الليلية في الجمعية الشبيهة بساعتها الواقفة ، ومثلما ظهر الوزراء في ومضة البرق الأزرق . لكنني كنت أتابع بانتباه لعب هذه القوى المتناقضة المختلف أشد الاختلاف عن دور النشوة الثورية . وكنت أتبع الطريقة التي يقرن بها الجنرال بين هذه القوى . هذا ما كان « يسليني » . وربما كان يسليه أيضاً - على هامش العناد الذي يوالي به بناء القاعدة التي يأمل أن يقيم عليها فرنسا من جديد . ومن مقعدي في المجلس ، كنت أرى شجيرات الورد في حزيران شبيهة بشجيرات الورد أيام الهزيمة . (عام ١٩٤٥ لم أشاهد هناك غير المطر والجليد) . وفي يوم ٤ أيلول قدم الدستور

الجديد في ميدان الجمهورية . وتصاعدت بالونات الأطفال فوق رؤوس الجموع تحمل شعارات تؤكد وهي تتموج أن الفاشية لن تمر . وبعد أيام ، كان السيد ليتروكي ، رئيس الجمعية ، يؤكد للوفد الفيتنامي أن الجنرال ديغول لن يحصل على ربع الأصوات في الاستفتاء .

٤

١٩٥٨ / ١٩٦٥

كان الاستفتاء يتضمن دخول مقاطعات ما وراء البحر في المجموعة الفرنسية ، أو استقلالها . وقد أبدى المحافظون تشاؤماً مهماً . وإيمي سيزير نائب المارتينيك وعمدة « فور ده فرانس » لم يكن بعد قد حدد موقفه ، ولما كان الجنرال ديغول لا يستطيع أن يغادر فرنسا ، فقد كلفني تمثيله . وسألته :

- لم الذهاب إلى غيانا ما دام المحافظ يؤكد أننا سنخسرها ؟

- هي آخر أرض فرنسية في أميركا . . . ثم يجب الذهاب ، لأن الأمر مؤثر حتى التمزيق .

كنت أسمعه يستخدم هذه الكلمة للمرة الأولى ، وسرعان ما قدر لي أن أدرك لماذا استخدمها .

●

بدأت بالغوادلوب ، فوصلت في الصباح إلى مركز مدينة « بوانت اپيتر » ، وهو منزل باروكة يلتف حول حديقة من أشجار الموز ، ومصاريع الأبواب مشطورة إلى نصفها تروح وتجيء ، والمراوح معلقة في السقف . الدنيا التي رأيتها في غوريا والبلاد التي

كانت تدعى في الماضي ساحل العاج والذهب ، وكأن تجارة الرقيق قد جلبت بيوت المستعمرين القديمة مع العبيد . كنت اصطحبت بعض المعاونين ، ومنهم ترمو ، المحافظ الأمثل ، الذي أصبح بعد ذلك سكرتيراً عاماً لمقاطعات ما وراء البحر . وهو من كبار الموظفين ، رجل ليبرالي وذكي ، قتلت زوجته وهي تفتح طروداً ملغوماً ، عندما كان محافظاً لستراسبور .

وفي الحال وصلتنا الشكاوى والتظلمات ، ثم ذهبنا لنضع باقات الزهر على النصب التذكارية ، واستمعنا إلى المجالس البلدية وإلى خصوم الحكومة . وألفيت ما ينتظرونه من الوطن الأم ، مناقياً للعقل ويشبه التخريف في معظم الأحيان ، لكنني عندما طفت بالأحياء الفقيرة - وليس في المدينة أحياء كثيرة سواها - تبين لي أن لهم بعض الحق في التخريف . في المستويات الدنيا يتعاطون الجدل ولا يفعلون شيئاً كثيراً وفي المستويات العليا يبذلون الوعود ولا يفعلون شيئاً . وكان أعقل الذين تحدثت معهم وأوفرهم رزانة ، زعيم عمال الموانىء ، وكان على الأرجح من الفابيين الشيوعيين . أما المحافظ ، وهو محافظ طيب بلا شك ، ورجل صالح بالتأكيد ، فقد كان يطالب عبثاً بأن تيسر له وسائل العمل . ان وضع الأمور في نصابها لن يخلو من جهد ومشقة ، ولكن أوانه قد أزف منذ وقت بعيد . لا أظن النفوس قدمت في أي مكان آخر هذا القدر من الاخلاص والتضحية لفرنسا ، عبثاً وبلا طائل . أما الاستفتاء ، فقد كان سكان الأنتيل يريدون أن يقولوا « لا » تعبيراً عن استيائهم ، و « نعم » ليظلوا فرنسيين . ومن يفكر في احتمال

انفصالهم هو كمن يتصور استقلال مقاطعة لوزير (١) .

في المساء تجمع الأهالي في الميدان للاستماع إلى الخطاب . ومن النوافذ أطلت النساء بأثواب المدارس وفي الأشجار تناثرت عناقيد من الأطفال . وخلف كشك الموسيقى تدور خيول خشبية مضحكة ، قصها المنشار منذ مئة عام أو يزيد . ان ما يسمونه السياسة لم يلعب أي دور . فليس بين ثوابت الانتيل ، ديغولي واحد ، لقد لعب الدور الوحيد نداء فرنسا والثقة التي يبثها الجنرال . وكنت أتحدث للمرة الأولى في حياتي أمام جموع سوداء ، فكنت أحس سكونهم المرتعش يتآلف مع إيقاع الخطاب مثلما يتآلف رقصهم مع الموسيقى .

تقرر مبيتنا في قصر الحاكم القديم ، في الجهة الأخرى من الجزيرة وحيم الليل قبل أن يسير الموكب (بالموتوسيكلات والمحافظ الخ .) ليجتاز بنا قرى عمياء ، بتخيلها الأسود في الليل المضيء ، وأقواس القمر على أوراق الموز المنحنية . وقد بدأت الاذاعة في نقل الخطب . ومن قرية إلى قرية رأيت الأنوار توقد في النوافذ ، والأبواب المفتوحة تلقي إلى الشارع بفقرات تلتقطها في عبورنا ويصفقون لها أحياناً في البيوت الصغيرة . وجاء دور إذاعة خطابي ، فاستغربت ما سمعته من فقراته ، لأنها بدت وكأنها تصل في وقت واحد معنا ، ولان الانسان لا يعرف صوته عندما يصدر من المذياع :

---

(١) مقاطعة في وسط فرنسا .

« هو الرجل الذي قام ، في رقدة الوطن الرهيبة ، فحافظ على شرف البلاد مثل حلم لا ينهزم . . . » .

دكاكين وبيوت .

فقرات لا تفقه .

طوابير من الرجال السود .

قرية . وأنا أسمع الجمل على فترات ، لأن الراديو ينقل الخطاب في جميع المنازل تقريباً :

« وأمام نكبة من أفدح النكبات التي ألمت بتاريخنا ، وفي ليل المهاجرين إذ لا تزال طرق بلادنا على أفق الحريق ، تغص بعربات الفلاحين بلا نهاية ، ارتفع صوت ليعلن ، رغم الجميع وضد الجميع . . . » .

الغابة والنخيل والسكون . وأريج الزهر في الليل .

وبلدة . في ضوء فوانيس السيارة ، ظلال بعيون بيضاء تلوح بأيديها . الشرطة تركن الشاحنات التي سدت الطريق حتى تفسح لمرور بيت صغير مرفوع على منصة تجرها الخيول .

« وكانت فرنسا في خطر جسيم والاتحاد الفرنسي يوشك أن يمزق إرباً . فقام الجنرال ديغول بتصفية الحرب الأهلية . وفرض قبول الدستور الذي ستتولد منه المجموعة الفرنسية ، وأعاد الثقة إلى النفوس وكفل الاستقرار للحكومة . وفي أقل من أربعة أشهر أعاد إلى الجمهورية ، من أجل فرنسا ، وجه الأمل ، وفي بضعة أسابيع أعاد إليها ، من أجل العالم ، وجه العزة والإباء . . . » .

ومرت الخيول بالبيت وأصبح الطريق سالكاً .

« . . . دون أن يتخلى عن شيء من الحريات الأساسية ، ولا حتى . . . »

توالت القرى ، أسماؤها « البلدة الصغيرة » و « الجوافة » و « كابستير » و « شجرة الموز » و « الينابيع الثلاثة » .

دخلنا الغابة من جديد . وترامت لنا من الشلالات الخفية ، أصوات مهيبة .

وما زال الراديو يلاحقنا حتى اجتزنا القرى الأخيرة وسط الهتافات . ووصلنا أخيراً إلى الدار التي كان حاكم الجزر يقيم فيها ؛ انتشرت أزهار الجهنمية في ضوء الفوانيس ، ومن فوق أصوات الزيزان الليلية ، سرت في الجو أغنية هي من أشد ألحان « الكريول » اكتئاباً :

« وداعاً يا مناديل ، وداعاً يا وشاحات
يا ثياب الحرير والعقود الزاهية
فقد تولى حبيبي
يا حسرتي ، يا حسرتي ، إلى الأبد . . . » .

وقد ألف هذه الأغنية حاكم من أيام لويس الخامس عشر ، هجرته فتاة خلاسية ، فنسب إليها حزنه . كانت مغنيات حساوات ينتظرننا في الممرات الواسعة ، وهن يواصلن الترنيمة النادبة :

« صباح الخير يا سيدي الحاكم . . . »

وفي قاعة الطعام ، امتدت مائدة بيضاء على شكل الحدوة ، ومن حولها ثلاثون مقعداً ، وفي وسطها وقف الأسقف وحيداً ، في انتظارنا . ومن ورائه ، كانت النوافذ مفتوحة كلها ، تجلو لنا البحر

الكاريبي المرتعش بالقمر .

لم تكن المارتينيك أقل عجباً . وكان علينا ، لكي نبلغ عاصمتها القديمة « سان بيار » ، أن نعبر جبلاً تكثر فيه أشجار الصنوبر بعد الأدغال الأمازونية . ثم نصل إلى مدينة يقال انها هدمت بفعل سحر رجيم . ذهبت أسطحها ، ورأيت كل شيء فيها مهجوراً ولكنني لم أر شيئاً تصدع أو شدخته الجراح . شوارعها خاوية ، بلا أبواب ولا نوافذ ، تمتد حتى دعائم جبل « بيليه » . لا أثر من الرماد أو الحمم ، ولكن درجات الثلمت حجارتها ، تصعد نحو السماء الساهية . وفي الشارع الرئيسي الذي كان يشق المدينة في ما مضى ، تبدى لي متحف شبح ، دليلي بين أرجائه ترجمان شبح . وهنا عثرت على الحمم ، وقد تشرنقت بها أشياء متواضعة غريبة . كأنما هي مدينة بومبي ، واستبدل فيها بالمصباح القديم طاحونة فلفل ، وبالشارع الروماني شارع أعمى ضرير مثل الشوارع التي تصطف دكاكينها وساحاتها الزائغة حول مصانع الضواحي . أشياء متآكلة كجذوع الأشجار التي يلفظها البحر ، بدت لي كأنها لعب يلهو بها عفاريت البركان ، وتبوأت أعلاها وردة من رمال ، مليكة تحكم على هذا البلاط الرجيم .

ألقيت نظرة على بطاقات بريد تصور متحف « تاشير ده لاباجيري » ، كذلك بيتاً من بيوت الجزر ، وأنقاض أطلال . وكنت قد أبصرت العرافات العجائز بوسوسن في أذن « الأنسات » . ترى أفي هذا المكان مدت الفتاة روز ، ولم تكن بعد اسمها جوزفين ، يدها إلى قارئة الكف ؟ « ستصبحين أكثر من

ملكة . . . » قول يضيع صداه وتجرفه رياح المحيط من فوق الديار الموحشة .

كانت كل قرية أمر بها ، تأتيني بالأزهار ، فأذهب لأضعها عند أقدام تمثال الجمهورية . وكثيراً ما أفتقدهواجدبدلاً منه تمثالاً « لفكتور شولشر » مصنوعاً من الجبس . عدو الرق والعبودية القديم كان هو أيضاً عنواناً للحرية .

وتقرر أن أتحدث في مدينة « فور ده فرانس » مع ايمي سيزير . وكان قد استقبلني في دار العمدية بقوله : « اني أحيي في شخصك الأمة الفرنسية العظيمة التي تربطنا إليها علاقات الود الصميم » . وكان الميدان رائعاً ، رحباً ، يفيض بالناس ـ كأنما أعد للاحتفال بعيد احتفالي . والفساتين الفاتحة اصطفت في طمأنينة المساء التي خيمت فوق البحر . وقد سكنت كلها بلا حراك . وختم سيزير تقديمه قائلاً :

« فلتكن سفير الأمل المستعاد ! » .

وبدأت خطبتي بأن تلوت رسالة الجنرال ديغول :

« سيقول لكم أندري مالرو حين يحمل إليكم تحيتي ، أني تذكار أحفظه لكم وللحفاوة الرائعة التي لقيتها منكم عام ١٩٥٦ . ان فرنسا بأسرها لتذكر مساهمتكم المجيدة في انتصارها في الحربين العالميتين » .

ومضى خطابي على منوال الخطاب الذي ألقيته في الغوادلوب . وتم الاتصال نفسه بيننا ـ إلا أنه هذه المرة أوقع وأشد ، لأنني أصبحت أعرفه ، ولأنني كنت أفكر في القرى التي

تستمع إلينا (قال لي بعض المنظمين : « لا تنس أننا هنا نرسل على الهواء مباشرة ، ومن عادتنا أن ننشد المارسييز في ختام الحفل ») ولأن الميدان كان من الاتساع بحيث لم أعد أميز حدوده تماماً والمساء يهبط . وارتفعت النبرة فأدركت الجموع التي لم يكن يصدر منها أي صوت ، ان خطابي قد اقترب من نهايته .

« إن الوطن الأم الذي آثر أن يختار جزر الانتيل في ما مضى ، بدلاً من كندا ، والذي رأى أبناء الانتيل يسقطون إلى جانبي في معركة ستراسبور ، لن يتخلى عن الانتيل . وأنا أعتقد ، مع الجنرال ديغول ، أن المارتينيك تريد . اليوم مثل الأمس ، أن تظل فرنسية ، كما أريد أن أظل فرنسياً » .

« أشهدكم في هذا اليوم ساعة مغيبه ، أنتم يا رفاقي في معركة الأمس ومن الممكن أن تصبحوا رفاقي إلى الأبد . يا من خضتم الحرب العالمية الأولى ، ويا من قاتلتم في لواء الأنتيل مع رفاقي من أبناء « دوردونيه » ، ستجيبون نعم مثلما كان ليجيب الذين سقطوا شهداء ! » .

وكانت الكشافات تعبر فوق الجموع التي عمرها غسق المساء ، وتضيء جذوع الأشجار العالية والجدران التي ألصقت عليها في كل مكان إعلانات تقول : لا .

« يا من هربتم من الجزيرة منذ العام ١٩٤٠ ، وعملتم بحارة في قواتنا البحرية الحرة وصمدتم في لواء الباسفيك الذي أصيب بقسوة عندما أحرزنا معاً انتصارنا الثاني فوق نهر الرين ، ستجيبون نعم مثلما كان ليجيب الذين سقطوا شهداء ! » .

« يا أيها الرجال والنساء ، ستجيبون نعم مثلما أجبتم قبل ستين الرجل الذي قال ان ترحيبكم الذي لا ينسى قد محا ما لقيه من صروف النسيان ! » .

في قلب الليل تصاعد التهليل الذي يحيي النصر في ساحات الميادين . إلى أن قلت :

« يوم نقلت الاذاعة على أمواج الأثير نشيد المارسييز في عيد الجمهورية ، وقف المستمعون إليه في ديار فرنسا . والآن ننشده معاً . فليستمع إليه الفرنسيون من أبناء الالزاس وروان وقوفاً في كل القرى التي استشهد دونها أبناء المارتينيك ! وقوفاً يا أبناء المارتينيك في بيوت السهول والتلال ! » .

كان أمامي ثلاثون صفاً من الكراسي ، واحتست بالمستمعين كلهم وقوفاً . أما الذين لم يجلسوا من قبل فقد شرعوا في غناء المارسييز على مهل مثل نشيد الأممية في ما مضى عندما كنت اسمعه في موسكو وغابات من أعلام المخمل العنابي تبرز شيئاً فشيئاً من وراء قبة القديس باسيلي . ولكن نشيد الأممية رتيب حين ينشد ، وأما أنغام المارسييز فتختلج ارتعاشاً من كبح انطلاقها :

« هل تسمعون في قرانا . . . »

حتى نفرت الصيحة المدوية :

« إلى السلاح أيها المواطنون ! »

كان زئير الحرية السوداء ، زئير المناضلين تحت لواء « توسان لوفرتير »وهبات الفلاحين الخالدة ـ وهو زئير يشكل كلاً لا يتجزأ مع الأمل الثوري والاخاء الجسدي . لم أعرفه من قبل غير مرة واحدة ،

قبل خمسة عشر عاما ، في السجن . هبطت من المنصة في صحبة سيزير ، وخضنا في جموع الليل ، لا نستبين غير تدويمها . ولا تزال الكشافات تخطف أبصارنا وتشتبك أضواؤها فوق الجدران والأشجار والاعلانات التي تقول « لا » . ويعود مطلع النشيد لينمو بجلال وينتشر : « هيا أبناء الوطن . . . » ولا يغادر أحد مكانه ، كلهم يوقعون نشيد الحرب ، بدقة من الأقدام بطيئة تصاحبه مثل الطبل الأجش وتربطه بالأرض مثلما ترتبط أغاني الملاحين بالنهر .

« ارتفعت الراية الدامية ! » .

لم أستمع في حياتي إلى كورس من عشرين ألف صوت ، وديب كأنه يستشهد بالأرض : الرقصات الأوروبية تسيل فوق الثرى ولكنها لا تدقه أبداً . ومضيت مع سيزير جنباً إلى جنب في الطريق الذي يخترق الميدان ، جمع يتبعنا وجمع يحاول أن يعبر الميدان في اتجاه لقائنا . تقابل في الليل تحت أشعة الكشافات ، تطالعه في الصيحات التي تتدفق وتدور مع النشيد . حتى بلغنا الشارع الذي يساير الميدان وتصبه أنوار الفوانيس ، وما هي إلا ثوان حتى غطت على صوت الغناء هتافات بحياة ديغول وسيزير « عاش ديغول ! عاش سيزير ! » تدفقت من غياهب البحر الشاسع إلى قلب المدينة ، لا تريد أن تنقطع ، والنوافذ كأنها امتلأت بأثواب المدارس ، وأمامنا شباب يسيرون القهقرى ويصفقون بأيديهم على إيقاع الصيحات التي نغوص فيها وتضيع ، من ورائنا ، في صخب الحشود . قال لي سيزير : « هم يعملون « فيديه » هائلة » . و « الفيديه » هي حفلة العيد التي ترمز إلى موت الكرنفال حين

يحرقون تمثاله وترقص الجزيرة كلها حول أشخاص متنكرين في ثياب الشياطين . . . ربما كانت كذلك . . . وأما الآن فهو العيد الألفي الذي تتخلص فيه البشرية من نفسها ، احتفال الرجال الأسود كما رأيته في افريقيا ، ورجال نقشوا بالطلاء في أرض تشاد تسري منهم الرعشة إلى عشرة آلاف متفرج فوق ميدان « فورلامي » الذي لا يحده البصر . سيزير يوزع التحيات الودية في طريقه ، وأراه يعرف عن هذه الحماسة المشتعلة اننا ان كنا أطلقناها فلسنا نحن أبطالها ، إنما تتوجه إلى شخصية علوية تنتسب إلى الجنرال ديغول كانتساب الجمهورية إلى رئيسها : تشفع بين الحياة البشرية والعالم المجهول ، بين البؤس الراهن والسعادة المقبلة ، تشفع قبل كل شيء بين العزلة والتآخي . كثيراً ما قابلت هذا الهياج المضطرم في أوروبا فلا يدهشني أن أقابله في غيرها من البلاد ، غير أني لم أطالع في أوروبا الانتقال من الحماسة السياسية إلى النشوة العلوية وهذا الهياج الموقع الذي ألقى في روعي أنه يستشهد بالأرض . هو الرقص ، ولكن لا كما تلعب أوروبا أو كما تؤدي آسيا طقوس الباليه ـ هو الجلالة . « عاش سيزير ! عاش ديغول ! » . وصلنا إلى المحافظة بعناء . وبينما دارت كؤوس الشمبانيا وتبودلت السلامات الاوروبية ، كان اضطخاب الأمل يملأ جو الجزيرة ، يفاجيء الملاحين العابرين بشطآنها ، وكأنه صوت الآلهة القدامى .

●

كانت غيانا إذن تبشر بالخير . وأكثرت الطائرة من المحطات

على طول الشاطىء الكاريبي مثل الاوتوبيس ، وحلقت فوق الغابة التي تمتد إلى نهر الأمازون . وعبرت جزيرة الشيطان ، ودارت حول الحقل . لقد طالعت في ما مضى تحقيقات صحافية عن « كايين » وسجن اشغالها الشاقة الذي لم يعد له وجود . وكنت أتوقع أن أجد جحيماً مترباً مهجوراً ؛ فطالعتني منازل جديدة ، أقل تواضعاً بكثير من أكواخ المارتينيك ، وشارع جميل بلون الرمال . وأمام محطة المطار المبنية من الخشب ، رأيت فتيات صغيرات في ملابس فولكلورية ، يقفن في انتظاري وقد حملن باقات امتلأت بالأزهار مثل باقات الهند وتناثرت عليها بالمثل قطرات الماء . ومن ورائهن جميلات البلد فوق عربة أزهار ، مقبضها يمكن أن يرمز إلى قوس النصر ويمكن أن يرمز إلى سلة من السلال .

استقبلني المحافظ في سيارة كاديلاك باذخة . حتى الآن لم يكن لدى الموظفين (ولدى الوزراء في باريس) غير سيارات ستروين . وتحدثنا في تنظيم الخطاب الذي يجب أن ألقيه بعد ساعات . أو بالأحرى سألته عن التنظيم والمكروفونات والوضع السياسي وأجابني . . . تشريفات . أخبرني بأني قد أجد أثناء الخطابة بعض المشاغبين ، وأن الأفضل ألا التفت إليهم ، وأنه سيقيم بعد الخطاب احتفالاً كبيراً : كل المستعمرة مدعوة إلى دار المحافظة . ثم قال : « يهمني جداً يا سيدي الوزير أن توافق على استقبال السلطات الدينية . قبل الجميع . فقد أعددت حفلة كوكتيل صغيرة في قاعة منعزلة . الأسقف ، للأسف ! لا يزال في فرنسا ، وكبير القساوسة البروتستانت ، وهو من موظفي الادارة ، يقوم بمهمة في مدينة

« سان لوران دو ماروني » ، وهذا أقل أهمية بلا شك . على أننا سنستقبل مختلف رجال الدين ، وسيحضر رئيس المحفل الماسوني ، بل انني وجهت الدعوة إلى الحاخام أيضاً » . ثم كانت هناك مشاكل خطيرة تتعلق بالبوفيه ، استمعت إليها منذهلاً وساهياً أتطلع بين الحقول إلى المنازل الجميلة التي كنت أود أن توجد في الانتيل ، والأكواخ القديمة وقد تساقطت أنقاضاً . ورأيت كشك موسيقى ومحلاً يحمل هذه اللافتة : « بقالة وشراء ذهب » . والشوارع المستقيمة تمتلىء بأنغام الجاز وبالسكارى . وعبرنا ميدان « فليكس ايبوي » ، وفيه التمثال الحقيقي الوحيد لمدينة كايين ، وفيه ستلقى الخطابات . وأشجار نخيله قد زرعها الآباء اليسوعيون من مئتي عام ، وهي من أجمل النخيل في العالم . ليس ميداناً كما نتصور الميادين ، فلا تكاد تميز المنازل التي تحده ، ولكنه رواق عملاق ، أعمدته من النخيل الملكي ، في بلاد تحني رياحها أشجار جوز الهند الشعثاء . والشالات ومناديل المدارس من كل الألوان ، مثلها في المارتينيك ، تتراقص في الأصيل .

وتقع المحافظة في ميدان آخر وتشبه ديراً استبدلت أبوابه بمصاريع نوافذ تروح وتجيء . طلب زعماء المعارضة مقابلتي . وأبلغتهم أني مستعد للقائهم قبل الخطاب ساعة حضورهم إلى المحافظة . وامتعض المحافظ لذلك ، ولا بد أنه كان يعد لحفلة كوكتيل أخرى لغير رجال الدين .

كان الوقت كافياً منذ أن تركنا المطار ، ليستعلم المعاونون

الذين اصطحبتهم ويعلموني أن ليس بين المعارضين من يعتد به إلا زعيم واحد : خلاسي بدعى كاتاييه ، سيرشح نفسه في الانتخابات القادمة ، وهو خطيب هستيري قدير ـ ومن « زملاء التحرير » .

لم يكن يتوقع أن يراني على انفراد ولا أن يسمعني أقول : « يا زميلي العزيز » ، كما تقضي العادة . كان يرى في المحافظة معقل العدو ، ويرى في المحافظ « وجه الشر » . ولم يكن من السذج ، بل هو بالأحرى متأهب لأن يهجم أو لأن يفلت . نبي مطارد ، من النوع الذي يظهر في بداية الثورات : مثل لومومبا ـ ولكن في ذلك الوقت لم يكن لومومبا قد ظهر بعد .

ـ أنشأت عيادة للفتيات الحوامل ، أليس كذلك ؟

ـ كلهن فتيات حوامل ! أنا أعالج أسوأ الحالات .

ـ هل كنت طبيباً ؟

ـ لا ، بل كنت مريضاً . ولكنهم سيتمكنون في النهاية من إغلاق عيادتي !

ـ لا أعتقد .

ـ سيقولون إن الأطباء الذين يعملون عندي ليسوا جميعاً من الأطباء . . . وسيخترعون الحكايات عن حالات الاجهاض . . . وفي بعض الأحيان لن يحتاجوا إلى اختراعها . . . فالحال هنا كما تظن !

ـ أعتقد أنهم لن يغلقوا عيادتك !

ـ أنت لا تعرفهم !

ـ سوف أعرفهم . ولكن المستشفى لن يغلق .

ـ هل تعتقد ، أنت ، أن شارل العظيم يعلم بالذي يحدث هنا ؟

ـ سيعلم على الأقل ما قلته لي . بل أنا أستمع إليك لهذا السبب .

نظر إليّ ثم نهض وبدأ يسير وقد عقد يديه خلف ظهره :

ـ طلبت لقاءك لأني كنت أعتقد أنك لن تستقبلني ولكن الآن أتساءل إذا كنت تعرف مثلي هذه « الادارة » . لا في تفاصيلها بالطبع . . .

ـ أعمل على تغييرها !

ـ بماذا ؟

ـ يقال انك تريد ترشيح نفسك للانتخابات القادمة . في بلد كهذا يقدر النائب أن يفعل الكثير .

ـ أنت الذي تنصحني بالترشيح ؟

ـ أما أنك تؤمن بوجود أمة غابنية ينبغي لها أن تتطور بمفردها ، وفي هذه الحالة يجب أن يكون التصويت بـ « لا » ، وأنا أعتقد أنها لن تظل بمفردها طويلاً دون أن تقع في بؤس شنيع ؛ ولكن اطمئن ، فهي لن تظل بمفردها : ستجد الهواة . وأما انك ترى ان غابنا أرض فرنسية مثل الانتيل وأنها ستنمو وتتطور بمساعدة فرنسا . وفي هذه الحالة يجب التصويت بـ « نعم » ، والعمل من الداخل . سيزير ليس من رجال الحكومة . . .

كان مضطرباً ، لا يفعل الحجج التي أسوقها ، ولكن

للمشاعر التي تثيرها في نفسه .

ـ أي انك تريدني أن أرفع لافتات مكتوب عليها : فرنسا نعم والمحافظ لا ؟

ـ أنا لا أعرف محافظكم . ولكن هذا يمكن أن يوافق تفكير ٤٠ ٪ من الفرنسيين . . . وأقرب إلى الرشد من : « لتسقط فرنسا » والتوقيع : « زميل في التحرير . . . . » .

ـ لماذا ؟

ـ لأن اللافتة الأولى تعبر عن تفكيرك حقيقة . وأما الثانية ، فلا .

وكان الحاجب قد أطل من فرجة الباب مرتين أو ثلاثاً . فنهض كاتابيه ومد يده مصافحاً وهو يقول :

ـ يجب أن أفكر . وعلى كل حال هذه أول مرة يجري الحديث معي كما يجري في فرنسا .

وذهب . لم تكن الأممية ولا البروليتاريا من مفردات قاموسه . ولكنه ، أياً كان انتماؤه ، أخ من بعيد لرجال الكومونة . وجاءني تريمو ، بين لقاءين ، ليخبرني أن الحال كلها في الويل . واستقبلت بعد ذلك عدداً من الامعات . وذهبنا إلى ميدان فليكس ايبوي .

وبعد دقائق وصلنا إلى المنصات التي ارتفعت في الجهة الجنوبية من الميدان . وفي طريقنا إليها ابتسمت لنا فتيات يلبسن مناديل المدارس والفساتين الزاهية . وكنت في الانتيل قد سمعت عند حضوري بعض الهتافات المتأثرة بحياة ديغول ، وأما هنا فلم يقابلني غير الصمت . وكان شيئاً يشبه الحلم أن تمر موتوسيكلاتنا

وسياراتنا المستطيلة من دون أن تحدث صوتاً ، وسط جموع متعددة الألوان تنغلق وراءنا في الليل .

تتألف المنصة من مدرجات اصطف عليها الأعيان وأحاطت بمنبر الخطابة . وأقيمت خلفها الكشافات الموجهة نحو الجمهور تضيئه إلى بعد خمسين متراً ثم يغيب بعد ذلك كما غاب منذ لحظات وراء فوانيس سياراتنا . وافترضت أن هناك كشافات في الاتجاه المعاكس لتضيئنا . وقام أحدهم وقدمني وسط همهمة لاهية . وطالعت هنا وهناك شعارات تقول : « عاشت فرنسا » فوق لافتات ضيقة تحملها الفتيات الصغيرات اللاتي قدمن إليّ باقات الزهور في المطار . وهذا الديكور الذي يشبه ما يقيمه أصحاب العمل ، كان لا يتفق مع القلق والتوتر اللذين يسودان الجموع .

وصعدت إلى المنبر .

عرضت الحجج نفسها التي عرضتها في الانتيل . وعندما انتهت الفقرة الأولى من خطابي ، صفقت بعض الجماعات الصغيرة ، وتاه تصفيقها في السكون الهائل . واعتقدت أنهم منظمون . فقد كان منهم من يقف في الظلام ، ولكن بعضهم أيضاً يقف في الضوء . وقد ازدادوا كثافة في الفقرة التالية لكنهم لا يزالون تائهين في الخضم الذي لم يعد صامتاً ولكنه الآن يثرثر : مكبرات الصوت لا تعمل ، باستثناء بعض المكبرات التي يحاول أن يجتمع تحتها بضع مئات من الأشخاص ـ تائهين بين العشرة آلاف ـ . وبدأت أصيح في بطء كما كنت أفعل قبل زمن المكروفونات ، لكنني كنت واقفاً فوق الجموع ، ولا يمكن أي خطاب أن يسمع على بعد

ثلاثمئة متر . عندئذ طلعت في الضوء الساطع وفوق الرؤوس وفوق شعارات « النعم » لافتات تقول : « لا » ، وعلى مهل نشروا في الجو شريطين ، طول الواحد عشرون متراً ، وتمسك الصواري بأطرافها ، وسرى الخوف بين الجموع وهي تقرأ : « تسقط القاشية » .

ثم « يسقط ديغول » . . .

ثم « تسقط فرنسا » . . .

كان ما زال في حنجرتي ما يكفي من صوت لأصرخ :

ـ إذا كنتم تريدون الاستقلال . . . حذوه يوم ٢٨ ! ومن الذي ، قبل ديغول ، منحكم الحق في أحذه ؟!

سمعت تصفيقاً يتجاوب مع صوتي ، ورأيت الجموع تتأخر عن حامل الصواري . وأحسست بهرج في الصفوف الخلفية . وبعيداً ، على اليمين ، تعالت الصيحات : بعض المتظاهرين يحاولون أن يشقوا النظام ويقتحموا المنصات . ثم سمعت صيحات قريبة جداً وانقض الجميع من حول المنبر وصفرت في أذني اليسرى كتلة لامعة ، ارتطمت في ظهر المنصة بعنف وسقطت عند قدمي . وانحنيت لالتقطها وفي الحال رفعتها فوق رأسي وأنا أواصل خطابي . كانت نوعاً من السلاح لم أره من قبل : قطعة من الخشب طولها أربعون سنتيمتراً بمسمار ضخم زرع فيها عمودياً . ووصلتني حشيات أخرى . كان من السهل على الرماة إذا اقتربوا أن يصيبوني أكيداً . وأخذت أتفحص نظام الأمن وأنا أتابع خطابي : بين الرماة وبيني تقف الفتيات اللواتي حملن إليّ الزهور ، وعلى اليمين فتيان

الكشافة ، الذين أخذوا في الاقتراب ، ومن ورائهم أذرع تلوح وهي مترددة ، كأنها تخشى الضوء . لم يتحرك حاملو اللافتات . والرماة لم يتحركوا . فهم قلة ولا شك . اقترب مني أحد معاوني ليقول : « المحافظ ينصحكم بالانسحاب . ـ لا»؟ ووصلتني مسامير أخرى . في الجلبة التي حلت الآن محل الصمت ، لم يكن أحد يسمعني . لم تعد الجموع تصغي ولكنها راحت تنظر وتتطلع . قال معاوني : « ان كاتاييه يمتلك مكبراً عظيماً ، ويقترح أن يحضره لك . ـ لا . . . » لم يكن المكبر ليغير شيئاً : التجهيز الصوتي كله كان هزيلاً . ان جزءاً من سيل المهاجمين الذي يتقدم ويتأخر عند حافة الضوء ، لكنه يوشك أن يتدفق ، يتكون بلا شك من رجال كاتاييه : لم يتسع له الوقت ليلغي أوامره . ولن أضع نفسي تحت حمايته . الكتلة التي تلوح بأذرعها تنفذ إلى الضوء شيئاً فشيئاً ، بينما ظل الذين يحملون لافتات « لتسقط فرنسا » بلا حراك ، مثل الدعايات اللامبالية التي تطل فوق المباريات في الاستاد . ولم تكن كتلة الكفاح السياسي والمناضلين كتفاً إلى كتف لكنها كتلة العربدة القاتلة . وتذكرت أول رواية قرأتها : « جورج » لاسكندر ديماس . العبيد الثائرون في جزيرة «ايل ده فرانس » يهاجمون الفرق المنكبة ، فيأتي المزارعون إلى رأس الشارع ويدحرجون نحوهم براميل الغرق وتنتهي القصة بمهرجان ومذبحة . وحلت صيحات الغضب محل الشعارات . في الجو « فيديه » أخرى ، ولكن ضحيتها لن تكون « الكرنفال » . رأيت رجلاً أسود يمسك بفتاة صغيرة كانت تحمل بشجاعة لافتة « تحيا فرنسا » ، ويرفعها من خصرها ليطيح بها في

الظلام وراءه . ويفعل الشيء نفسه بثلاث أخريات . عندئذ دخل إلى منطقة الضوء موكب زائغ النظرات ، مترددا مبهوراً ، يحمل أمامه جريحاً مدمى ، تتدلى ذراعاه وساقاه من الغطاء الذي حمل عليه . وخلفه مئة في سورة الغضب ينتفضون بنشوة الهياج والدم مسلحين بالأخشاب ذات المسامير . واتجهوا نحوي وأنا لا أزال أواصل خطابي ، ثم انحرفوا نحو المنصة التي كانت تغص بالسيدات . كأنما يريدون ان يقدموا هذا الجسد اللاهث للاسترحام . وارتد زحفهم فجأة . وتركوا الجسد وهم ينكصون . أمام المنصة فرقة من مشاة البحرية ، جاءت بأمر من تريمو ، متجهة إلينا بسرعة ، وينادقها إلى الأرض .

وان صمت خارق وسط همهمة المشرئين الذين لم يروا بعد شيئاً . وأمام المنصة اصطف البحارة بلا حراك ، كل واحد منهم على بعد مترين من أخيه (كنت اعرف أن تريمو لن يأمر باطلاق النار قبل ان يوجه الانذارات) ؛ رأيت كل النساء واقفات ؛ وفراغاً كبيراً يتفض فيه الجريح المهجور ؛ والمئة الغاضبون يتقهقرون خطوة خطوة مثل الوحش المكسور ، الى حدود الظل حيث انفتحت الجموع أمامهم . واللافتات التي تقول « تحيا فرنسا » عدا الأربع فتيات ، والشريطان القائلان « يسقط ديغول » ، لم تتحرك من مكانها . وكأن كل شيء يدخل في الأبد ، فيما الموكب يتراجع في الليل .

وانتهيت من خطابي ، لكني صعدت الى المنبر مرة أخرى لأصيح بصوت متهدج وأعلن أني سأذهب في الغداة لأحيي نصب

الشهداء واني سأتحدث في فندق المدينة . وقدرت أن الذين سمعوني سيبلغون الآخرين . وكان نفير عربة الاسعاف يصاحب صوتي . والمرضون يحملون القتلة ويتجهون الى الجريح . وكل البحارة لفوا بزملائهم لحماية المنصات . وخفضت اللافتات وطويت الشرائط . وذابت الجموع وهامات النخلات الملكية تصعد نحو السماء المرصعة بالنجوم ، مثل أعمدة بعلبك .

في المحافظة ، كان رجال الدين ، من ذوي الرتب الصغيرة ، في انتظارنا . خسارة ان الآخرين غائبون ! وليكن ، سنعوضها في المرة القادمة يا سيدي المحافظ . وبدا لي أنهم رجال طيبون . ولكن بدا لي أيضاً من الصعب أن أتحدث الى المبشرين وإلى رئيس المحفل في وقت واحد . لذلك لم أقل لهم شيئاً ، لكنني قلت لتريمو :

أرجوك ان تأخذ كل معاونينا معك ، باستثناء واحد ، وأن تبدأ التحقيق فوراً .

ـ لقد استدعيت قائد الشرطة . هناك عدد من الجرحى . والأمر لم ينته بعد .

على أنه لم تكن تأتينا من النوافذ المفتوحة أصوات . والمحافظ يريد أن يشرح لي قواعد البروتوكول التي لا أفهم منها شيئاً . وحيث ان كايين أصغر بكثير من نيويورك ، كان يبدو لي من أبسط الأمور أن يقدم لي المدعوين الذين يرغب في أن أتحدث اليهم قليلاً . كلا ! اضطرت زوجتي الى الجلوس في مقعد واسع ، وأنا والمحافظ واقفان الى جانبها ، وأحدالحجاب يعلن بامتياز رفيع : « الكابيتان دوران ، ومدام دوران .. السيد ديبون ، مستشار البلدية ، ومدام ديبون » .

- أين وجدت هذا المنادي ؟

- أوه يا سيدي الوزير ، في السجن بالطبع : كان من المنفيين . وعلى كل ، فهو رجل عاطفي بسيط . . .

قيل لي بعد ساعة من هذا الحديث ، انه ذبح زوجته . ولكنه ، كما قال المحافظ ، صاحب أسلوب ! وكان يواصل التقديم :

« السيد مسجل المحكمة ، ومدام ماسون ، السيد النائب ! »

قال « السيد النائب ! » بنبرة مختلفة ، لم أدر منها هل يريد أن يحيي النيابة أو العزوبة . وأسفت بدوري على غياب الأسقف - من أجل التقديم . . .

- « السيد مدير الـ أ . ف . أ . ت ! »

من هذا ؟ تقول النبرة إنه مدير صغير :

- « السيد السكرتير العام لمؤسسة ب . أ . ف . و . ج . ا »

« السيد وكيل سان لوران دو ماروني » .

لقب مجيد . هذا « العاطفي البسيط » يروقني أكثر فأكثر . ربما اكتسب أسلوبه لا من أنه كان يطيع الأوامر، ولكن من أنه كان يصدرها . أمير روسي سابق ، سفاح الى حد ما ؟ . . . تذكرت اني كنت أكتب روايات ! ماذا لو طلبت من المحافظ أن يدعو غداً على الغداء عشرة من المنفيين ؟ قيل لي ان واحداً منهم اختصاصي مرموق في الفراشات . . . وفجأة أدركت ما غاب عن ذهني مدة بسبب المقعد لأن زوجة رئيس الجمهورية لا تجلس بالطبع عندما يقدم اليها

مدعوها : لقد كنا نحاكي مثل الفرود حفلات الاستقبال في قصر الاليزيه . . . ويجري ذلك بين الصيحات التي عادت ، والخرخى ، و « العاطفي البسيط » ، الذي أتوي أن أرسل اليه أعمال بروست - وغيانا التي ضاعت منا بلا شك .

ونصب معين مجتمع كايين . وانتقلنا أخيراً إلى البوفيه الذي قدمت عليه مأكولات باردة ، واجتمع حوله الناس أسأهم عن غيانا فجيبوني بما يجب ان يفعله الجنرال ديغول . أولا ، هل شاهد أفواج الدرفيل ؟ وهل يظن أنها جنيات العصور القديمة ؟ هناك جواهري في الشارع الرئيسي يبيع صفائح معدنية يمكن ان « تصنع منها عقود جميلة جداً » . هناك ضجيج ما زال يأتي من النوافذ المفتوحة ولكنني لا أسمع أية طلقات . حضر المعاون الذي بقي معي وقال : « حدثت مشاجرات كثيرة ، ويرى تريمو أننا يجب أن نتصرف هذه الليلة . - تعال معه الى غرفتي » . صافحت بعض الأيدي واستأذنت من المحافظ وذهبت الى غرفتي فوجدت المعاونين هناك .

قال تريمو :

- الشرطة جادة لحسن الحظ ، ومدير الأمن مصمم على مساعدتنا وعلينا أن نحميه . نحن في مكان يشبه أن يكون « كلوش ميرل » وان يكون فيلماً من أفلام الغانغستر في الوقت نفسه . والمحافظ رجل راديكالي لم نعد نجد مثيلاً له في فرنسا . . .

- اننا نصدّرهم إلى الخارج !

- من رأيه أن الأهالي سيصوتون ضدنا بنسبة ٩٠ ٪ وأن ما

نفعله لا يعدو أن يكون استفزازاً . ولديه ، رغم ذلك ، مرشح من رجاله للانتخابات القادمة . وعلاقاته أسوأ ما تكون مع النائب ، الديغولي الى حد ما . ويوشك أن يتقاتل بالسكاكين مع كاتاييه المعتبر مجنوناً ولكنه موجود بالتأكيد . المحافظ اذن لم يقم بتنظيم اية حماية . الأنه أكد لباريس ان غيانا مفقودة؟أم ليقيم الدليل على أن النائب ليس في استطاعته أن يفعل شيئاً ؟ أم ليحصل على الاذن باجراءات يتخذها ضد كاتاييه ؟ أم بسبب الغباء الصرف ؟ أحضر الكشافة والفتيات الصغيرات للاستقبال في المطار . واستأجر السيارة الاميركية من أجلك .

ـ ليكن كلامك كرشق الورد .

ـ واعتقد الآخرون أنهم لن يواجهوا بشيء . فلم يكن رماة البحرية في البرنامج . وقد ساروا كأنهم رجل واحد : اثار سخطهم الاعتداء على الفتيات الصغيرات . وقد تطلب الأمر ان أذهب بنفسي لاستدعائهم ، فلم تكن السلطات المحلية لتحرك ساكناً . والذين رفعوا الشرائط هم من رجال كاتاييه ، وهو الآن يلقي بنفسه بين أحضاني .

« كان لا يدري ان التجهيزات الصوتية لن تعمل . كان على المحافظ أن يقوم بتجربة في الصباح ، وأن يتخذ الاجراءات اللازمة ، وقد أراد كاتاييه أن يبرهن على عجز المحافظ . أما التصويت مع فرنسا ، فهو يؤجل التفكير فيه ، ويضايقه ذلك على الأرجح .

ـ هذا اعتقادي أيضاً .

ـ لو كان التجهيز الصوتي سليماً ، لرقصوا لك وانشدوا

المارسييز بحماسة في الختام . وهنا تتعقد الأمور :

« الذين يحملون الشرائط كانوا من رجال كاتاييه ، ثم من أشباه الشيوعيين ، الخ . . . ولكن رماة المسامير ليسوا منهم .

ـ هل تعرف هذا النوع من السلاح ؟

ـ لم أره من قبل . ولكن الأمر كان خطيراً . فقبل الخطاب حمل البعض براميل الروم ووضعوها في الأماكن التي وقف فيها متظاهرون معروفون بميلهم للعنف ، ثم خرقوا البراميل وذهبوا .

ـ من هم : هؤلاء البعض ؟

ـ أعرف ولن أعرف إلا غداً . لكن الأمر ليس محض سياسة وان كان عدد الجرحى غير قليل . قال لي رجال الشرطة ان الشيوعيين بعثوا برجال من غيانا البريطانية ، والانكليز يغمضون أعينهم . وقد قبضت على بعضهم ، وهو أمر مشروع لأنهم دخلوا البلاد خلسة ، وسهل لأنهم في حالة قصوى من السكر . وليسوا بأكثر شيوعية من كاتاييه ، ولا دخل للانكليز في هذه الحكاية . انهم من المهربين المعروفين . لقد وقعنا في « كلوش ميرل » يضاف اليها منافسة بين عصابات اللصوص مرتبطة ولا شك بالمنافسات السياسية . أما عن الشغب ، فيكفي أن أقول لك الآتي : ان المنشورات التي تهاجم فرنسا طبعت في مطبعة المحافظة ، والفتاة الأولى التي رميت في الهواء (استلقاها آخرون بين أحضانهم) هي ابنة الناظر . والمتهم واحد من المدرسين .

ـ هل عندك تأكيد أن المنشورات طُبعت في مطبعة المحافظة ؟

ـ تأكيد مطلق .

- من حقي ان أحل محل المحافظ مؤقتاً ، أليس كذلك ؟

- بل انه يتوقع ذلك . أنت تمثل الحكومة .

- بعد مغادرتي ، تأمره بأن يتوقف عن العمل ، حتى يبت ذلك وزير الداخلية . سأكون في باريس بعد غد في الصباح . وأنت تحل محله الليلة . كم من « المشاغبين » تريد أن تقبض عليهم ؟

- لقد تم القبض عليهم ، باستثناء اثنين أو ثلاثة .

- حسناً . يحجزون لأقصر وقت ممكن ، ما عدا الأغبياء الخطرين مثل المدرس . يجب فقط أن يدرك الناس أن المزاح انتهى . أما عن السكر ، فان موردي البراميل أهم عندنا من الشاربين . ما هي الحالة النفسية في المدينة ؟

- السخط على الجميع . لقد جاء الناس ليصغوا الى ما تقول ، فمُنعوا من سماعك .

- انتهى تحدي عند أبواب كايين ! . . . .

- كلا ، لأنك صاحب القول المحفور على تمثال الحاكم ايبوي .

- لا يضيع المعروف أبداً . اذاً فالمحافظ لا يجري له ذكر حتى يتم الاستفتاء . فليأخذ إجازة . من الذي يحل محله ، حتى يصل من يخلفه ؟ ستدير الأمور ، المدة اللازمة ، بالطبع . أي رجل هو السكرتير العام ؟

- كفء . هو ابن اندري فيليب .

- فليكن . ولكن يجب أن نطلب موافقته ، لأنه مقبل على المخاطرة بحياته . سيصاحبني الى نصب الشهداء والى فندق

المدينة .

- في حالة الرفض ، سأعمل محافظاً .

- شكراً ، ولكن السلطة المحلية أفضل ، كما تعلم .

« أما ان يأتيهم الليل بالنصيحة ، فلا يحاولون بالنهار ما حاولوه بالليل ، وتهدأ الفتنة إذا اتخذنا الاجراءات اللازمة وانت عرفها خيراً مني أو ان الأمر جاد - وهذا ما لا أعتقد - فلا حماية ممكنة اثناء نشيد المارسييز أمام نصب الشهداء . طابت متابعة التحقيق أو طابت ليلتك » .

وعادوا الى العمل . وكانت نافذتي مفتوحة وسريري تغطيه ناموسية مكعبة . وجموع لا تزال غفيرة ، تمر دون أن تحدث صوتاً ، وكأن الرجال السود بكم . وضجات متناثرة تخف تدريجياً وتنأى وتضيع في صخب أنغام الجاز . ووراء المنازل ، تصعد النخلات الملكية التي أظلت المبشرين وسجناء الأشغال الشاقة ، في سماء أسحق ليلة عشتها في حياتي . وعلى بعد عشرين كيلومتراً تبدأ الغابة ، كأنها عنصر بذاته ، حية مثل الجبال أو مثل المحيط ، وتمتد بحاراتها وبأنهارها المليئة بأسماك تأكل اللحوم ، حتى أقدام الهضبات العليا . قال لي الرئيس كوبتشيك ، في برازيليا : « عندئذ شرعنا طريقين كبيرين يشقان الغابة ، فوقعنا أحياناً على أعشاش من البشر لم يتغيروا في شيء منذ العصر الحجري » . وعلى مقربة مني بين المارون وميدان فليكس ايبوي الجميل الذي كان ميدان النخيل وذات العناكب البشعة تأتيه لتلدغ المنفيين النائمين تحت ظلاله لدغة الموت .

وفي انتظار أن يغلبني النعاس ، تناولت « ألبوم » الصور الموضوع على مائدة السرير . وفي أولى صفحاته طالعت مدخل سجن الأشغال الشاقة . كنت أتخيل منظره مثل قضبان الباستيل فوجدت بدلاً من ذلك زخارف بالأرابسك مثل بيوت الكتاب المعدول عندنا ، يعلوها فانوس تتدحرج منه أوراق شجرة الجهنمية . ثم رأيت الكنيسة المهجورة والأعشاب البرية والأشواك قد نبتت تحت التصاوير التي نقشها المحكوم عليهم فوق الجدران ، ورأيت « رسل » الكنيسة يلبسون زي الأشغال الشاقة والزنازين والحشرات تجري بين الكتابات المحفورة على جدرانها ، والسلاسل التي تقيد الأقدام ، والثقوب التي كانت تمر منها السيور التي تربط أجسام المسجونين . و« سكة حديد » الأدغال ، يجرها بعض الرجال : ومقابر الحراس غريبة في هذا الجحيم الذي يعم ، وفي قلب هذه الغزارة الشوكية ، ميدان مستدق الصغر ، مبلط لا ينبت فيه النبات ولكن تحيطه أزهار الجهنمية البنفسجية مثل مدخل السجن : ميدان المقصلة .

وارتفعت من الخارج المحافظة القريب أنات الناي الهندي : العالم الآخر . اختفى السجن كما اختفى هياج النصف تمرد الذي تذكرني به قطعة من الخشب تنشر منها المسامير ، موضوعة فوق المائدة . بقي التحنان العلوي ، والنزهة الليلية الصامتة في الميدان ، وذهاب آخر المدعوين من الحفلة التي تشبه حكاية من حكايات هوفمان يودعهم السفاح الوجيه . . .

بدأ الصباح بداية طيبة . الزي الرسمي ضروري للمحافظ في كايين . ولم يكن تحت يدنا إلا زي المحافظ المعزول ، والسكرتير العام أطول منه بعشرين سنتيمتراً . وبدت « الكاسكتة » ذات الخيوط الذهبية فوق هامة رأسه وكأنها عش غراب صغير ، فقرر أن يمسكها بيده . لكنه لا يستطيع أن يمسك بنطلونه الذي كان لا يصل الى حذائه إلا بفضل حالات محطوطة بشكل غريب . وبقيت السترة ، ولا بد من ارتدائها بسبب الشرائط والأوسمة . ويمكن أن تفتح ياقتها ، بدعوى الوقاية من الحر ، أما الأكمام فينقصها عشرة سنتيمترات على أقل تقدير ، كأنه يحاول بشراشيب في الرسوم المتحركة ، أكثر منه موظف كبير للجمهورية . شارلي شابلن محافظ . والسكرتير العام أخذ دوره في هذا الفيلم بروح طيبة . ذهبنا الى نصب الشهداء . وكانت السيارة الجميلة قد اختفت .

وما ان خرجنا حتى شعرت الى أي مدى كانت مغامرة الأمس مرتبطة بالليل . رأيت الناس ينظرون الينا بتعاطف . كانوا من صغار البورجوازيين لا من رماة المسامير . يقوم نصب الشهداء فوق ميدان ضيق ، فلا يمكن أن توجه الى الرماية إلا من مسافة عشرة أمتار على الأكثر ، بطريقة مرئية . ووقف الحاضرون حذرين وتناثروا في المكان . وبينما كان جرس الموتى يدق ، وقعت عيناي على ظل قصير الأكمام يمتد الى جانب ظلي ، أمام التمثال . . .

●

بعدما انتهت المراسم ذهبنا الى فندق المدينة . هناك كانت

الجموع لملأ الشوارع ، وقد تم تركيب المكبرات في أماكنها . وللمجلس البلدي بكامل هيئته يقدم لي نخب التكريم . وألقى العمدة خطاباً حاراً ، وصاح هاتفاً في ختامه : « تحيا فرنسا ! » وهتفت من الشرفة (وكان صوتي مسموعاً هذه المرة) وفقاً لتقاليد ١٨٤٨ . وأعدت المواضيع التي تناولتها بالأمس ، بقاطعني التصفيق كل حين . كان أهالي النهار يريدون أن يستذكروا تظاهرة الليل . وقصصت عليهم ، دون أن أرفع صوتي ، الحديث الذي دار بيني وبين الجنرال ديغول : قال لي من أجلكم أنتم : « يجب الذهاب إلى غيانا لأن فرنسا يجب أن تعمل على مساعدة غيانا » وقال لي ، من أجلي أنا : « يجب الذهاب إليها ، لأن الأمر مؤثر حتى التمزيق » . امتلأت أرجاء الشارع بالموافقة ، مثل تهليل المارتينيك . ونزل العمدة معي وتأبط ذراعي وذهبنا إلى المحافظة يتبعنا المحافظ الجديد وكاتانيه . ولكونت « القيديه » خلفنا ، مثلما تكونت من قبل في « فور ده فرانس » آلاف من الرجال ، وبضع نساء ، تشابكت أذرعهن ، ورواحوا يرتجلون رقصات هائلة : وعندما وصلنا ، ظل الهتاف يدوم يطرق أبواب المحافظة بضع دقائق . واستعاد السكرتير العام ملابسه .

رافقنا إلى المطار في ثيابه المدنية . لا فتيات ولا عربة أزهار على هيئة قوس النصر ، ولا حتى على هيئة مقطفي السلة . « وداعاً يا مناديل وداعاً يا وشاحات . . . » وبعض أشجار جوز الهند ، وطيور كثيرة ، والتراب الذي يثبت حول هذه المحطة التي يتعجب المرء كيف لها أن تنتظر الطائرات . . .

عند وقوفنا بالمارتينيك ، كان أصدقاؤنا الذين وصلتهم أخبار الليل ولم تصلهم أخبار الصباح ، ينتظروننا بقلق بالغ . لا داعي للقلق ، لقد صوتت غيانا وصوتت الأنتيل « نعم » بنسبة ٨٠٪ ، وأصبح كاتانيه نائباً ، وأصبح المحافظ سكرتيراً عاماً . ولم يتح لي أن أرى بائع الصفائح المعدنية ، ولا حتى الشارع الذي يقوم فيه دكانه . أتراه البقال الذي قرأت لافتته ؟

٥

١٩٥٨ / ١٩٦٥

بعد هذه الصورة وكل ما تحفل به من مناظر والوان ، كلفني الجنرال بالذهاب الى بعض الدول الأسيوية التي تراخت علاقاتها بفرنسا ، لأقابل قادتها ، مبتدئاً بنهرو .

كنت مطلعاً على أوضاع الهند ، فقد التقيت حديثاً بجايابركاش نارايان الزعيم الاشتراكي لمدينة بومباي . كما ان صديقي الكاتب راجاراو ، خير من يعرف فرنسا من الهنود ، مر بباريس أخيراً . وكان سفيرنا أقل تشاؤماً من حكام المحافظات في جزر الانتيل .

كان ينتظرني في المطار ، الساعة الثانية صباحاً ، ومعه وكيلة الخارجية وقد وقفت بالساري الأبيض في ضوء الفنارات . اسمها لاكشيمي . قد تُدعى وكيلة وزارة في دولة غربية ماري باسم العذراء ، ولكن ربات الديانات الأخرى أدعى الى سرحات الخيال . والكونت أوستروغ ، سليل الغزاة المغول ، وابن بيارلوتي سراً في ما تدعيه شائعات « الكي دورسيه » ، كان رجلاً جديراً بالمعنى الذي توحي الى الشعراء كلمة سفير في الهند . وكأن هناك كاميرا خيالية تلتقط أنامله المعقدة المرهفة التي تعمل في رسم صورة للهند من نسج العاطفة والهوى ، ثم تصعد الكاميرا لتجلو محيا

فرصان وجيه . كان هذا المتحدر من سلالة حكام البر ، هذا النبيل الاسباني ، والكارديناال الروماني ، مثال الفرنسي سفير البحر الأبيض وحضارته الألفية لدى بلاد كأنها اليوم في شرخ الشباب ـ في مثل هذا تهيم الأذهان ، عندما تعلم ما الهند وما عراقتها . وفي مأدبة عشاء أقيمت في الكابيتول ، ـ هكذا كانوا يسمون حينئذ قصر نواب الملوك الذي أصبح قصر الحكومة ـ رحت أتأمل يدي أوستروغ ، أثناء خطاب يلقبه رئيس وزراء وقور ، فتهيأ لي انهما تداعبان البوط الايطالي الشهير وكأنه ساق .

وصلنا الى الكابيتول (كنت ضيفاً على الهند) فلم أر منه في الليل إلا كتلته المظلمة ، وأروقة القصر ، وصورة كبيرة لغاندي بالوزرة ورئيس التشريفات في الجناح المخصص لي ، يحيطه خدم من أيام نواب الملوك : لكل باب خادم يفتحه . وبعدما انصرف وصفاء على بابا هؤلاء ، أخذنا في ترتيب شؤون مهمتي . وكان مقرراً ان يستقبلني وزير الثقافة في الساعة الثامنة .

قبل أن أصحو من نومي ، كانت الجرائد قد أحضرت . لقد بدأ الأسبوع الأفروآسيوي ! . . . وكان ترحيب الوزراء كما هو دائماً لطيفاً وحذراً كانوا ينتظرون محادثاتي مع نهرو .

هأنذا أخيراً قد رأيت الكابيتول وقدر لي ان أشاهد دهي الجديدة . ولم أكن قد احتفظت منها بأية ذكرى . عام ١٩٢٩ كانت الهند تهمني أكثر من انكلترا . ولكن ذهاب انكلترا يهب الآن روحاً هذا المعمار الذي كان خالياً من الروح . لقد نسبت الى غاندي كما نسبت الى كليمنصو جملة تقول : « سيكون خراباً جميلاً » . ولكنه لم

يتحول الى خراب ولا الى قصر تم الاستيلاء عليه مثل الكرملين . فنيودلهي ليست مدينة ولكنها « عاصمة إدارية » . غير ان مناظرها الشاسعة ذات الحجر الأحمر ، وحرسها من السيخ يحيون بالسلاح في عزلة الوحدة، لا تطل على مقرات الادارة ولو كان منها البرلمان ، انما تطل على الامبراطورية الزائلة .

قصور ووزارات وبوابات . الامبراطورية البريطانية كلها تحمل طابع العظمة الانكليزية ، ثم النبرة التي يضفيها الفن القوطي الفكتوري على نهر التاميز . وهنا ، مثل ممر خيبر ، كانت العظمة رومانية ، حلم قيصر في الاسكندرية ، كتلة عظيمة من الحجارة نسقت على منوال المسرح الهلّيني القسيح . يخالطه حلم آخر يريد أن يقوم قران بين انكلترا والهند ينافس قران الهند والاسلام . من الواضح تماماً أن الكابيتول كان يريد أن ينافس مسجد دهلي الكبير ، وهو من أكبر مساجد العالم الاسلامي ، ويريد أن ينافس فاتيور سكري ، والقلاع الحمراء والمعمار المغولي كله الذي كان بمثابة أميركا لفارس . الاسلام لم يزل قائماً هناك . وانكلترا ؟ هل هي موجودة أكثر مما يبدو ؟ لم يكن وجودها هو الذي يبث الحياة في هذه الطرق الامبراطورية المرصوفة بالحجر الرملي الأحمر ، والتي أصل منها إلى البرلمان ، إنما هو التصميم الذي تخلت به عن هذه الطرق . في هذه البلاد التي شيدت كثيراً من القبور الشهيرة ، أرى أن العمل المعماري الوحيد الذي ينافس أعمال خلفاء الاسكندر أصبح رائعاً برغم قصور هندسته ، منذ أن أصبح قبراً للامبراطورية .

قمت بزيارة نهرو في مكتبه في البرلمان ، فكأنني انتقلت من عظمة الكابيتول إلى دهاليز مبنى المحافظة وقاعات انتظار لأصحاب الالتماسات المتواضعة . ولكن الجدران ، كما هي في الكابيتول ، مزدانة بكثير من صور غاندي .

كان غاندي حينذاك موجوداً في الهند كلها ، بأعماله وبقدوته وبصوره . بينما أوروبا لم تعد ترى فيه غير محرر طاهر اليدين . وجه قديس والرونق الذي يصاحب معظم القديسين : وجه راهبة عاملة ، مصرة ، ذات بسمة خالية من الأسنان ، ترتدي نسيجاً شعبياً متواضعاً كأنه كساء الحرية وزيها . لقد بدأت الهند ترى فيه اخر تناسخات فيشنو ، ولكن هناك جوانب كبيرة من سيرته ما زالت دقيقة الملامح في أذهان الهنود : التبشير عام ١٩٢٠ تحت شجرة تين البنغال الوارفة ، ثم الجموع على ضفاف السابرماتي ، ومذبحة أمريتسار ، وأصابع يده اليسرى قد ارتفعت وبانت للجموع كأنها واجبات الهند ، والملابس الاوروبية والياقات والحمالات التي أصبحت محرقة غربية تصاعدت منها النيران بعدما طرحها الذين صمموا على ألا يرتدوا بعد ذلك غير الخادي ، وفوق هذا الركام كانت تشتعل القبعات ـ والخنمان الذي أشعلت فيه النار وتليت فيالته آيات الباغافاد جيتا . والعصيان المدني وعدم التعاون الذي بدأ يوم وفاة تيلاك . وبقيت في الأذهان ، على الأخص ، صورة الزحف لاستخراج الملح .

في الثاني من آذار ١٩٣٠ ، قام غاندي بإبلاغ نائب الملك بأن العصيان المدني سوف يبدأ بعد تسعة أيام من هذا التاريخ . وفي

الثاني عشر منه ، اتجه إلى البحر يتبعه بعض تلاميذه. وأقام الفلاحون الزينات ونثروا سعف النخل وأغصان الشجر فوق الطريق وجثوا عند مرور الحجاج راكعين . وتنازل ثلاثمئة من شيوخ القرى عن مناصبهم . وأمام السبعين وقد أصبحوا آلافاً مؤلفة ، التقط غاندي الملح الذي تخلف عن الأمواج بعد انسحابها ، خارقاً بذلك قانون ضريبة الملح . ان حرارة المناطق القطبية تجعل من الملح شيئاً لا غنى عنه لكل من يعمل من البشر والحيوان . ولكن الكل يعرفون أن غاندي الذي كان مريضاً لم يستخدم الملح منذ ست سنوات . بلمسة واحدة ، اهتزت الهند عن بكرة أبيها .

على طول الساحل ، جمع الصيادون الملح ولحق الفلاحون بهم . وبدأت الشرطة حملات اعتقال بالجملة . كان المتطوعون لا يقاومون الاعتقال إلا أنهم لا يسلمون الملح الذي في حوزتهم . وفي بومباي تجمع ٦٠٠٠٠ نسمة أمام دار المؤتمر ، وعلى سطح الدار كانوا ينقون الملح من رمله . وقد بيع الملح الذي جمعه غاندي بـ ١٦٠٠ روبية . وعندما حكم على نهرو بالسجن ستة أشهر ، أجابت الهند على الاعتقالات بتنظيم « الهارتل » . وفي باتنا ارتمت الجموع على الأرض أمام خيالة الحكومة الذين وقفوا عن التقدم . وفي كراتشي تجمهر خمسون ألف هندي للنظر إلى الذين يجمعون الملح ولا يتمكن البوليس من القبض عليهم . ولكن سرعان ما وصل عدد المسجونين إلى مئة ألف . وفي الليلة من ٤ إلى ٥ أيار قبض على غاندي في إحدى القرى ، وهو بين تلاميذه .

في داراسينا ، شمالي بومباي ، زحف الهنود على مصنع الملح الذي تملكه الحكومة ويحرسه أربعمئة شرطي ، وراحوا يلقون مصرعهم تباعاً كلما اقتربوا من المصنع ، وفي صمت كان آخرون يأخذون مكانهم ويسقطون بدورهم . واحضرت النقالات لتحمل أجسادهم الدامية . وبالقرب من المصنع الذي لم يتوقف ، فتح مستشفى مؤقت ، وأدركت الهند كلها رقها وعبوديتها . واضطر نشرشل بعدئذ أن يتحدث عن « هذا الفقير المتمرد ، النصف عريان في قصر نائب الملك » . ذهب الآن نائب الملك ، وأسطورة غاندي ، التي أصبحت في الغرب أسطورة السلمية النبيلة ، بقيت هنا أسطورة للنضال . أسطورة تشهد لها أفواله . فعندما أعلن أنه سيمتنع عن كل طعام ما لم يتم الاعتراف بحقوق « المنبوذين » ، لم يكن يخاطر « بالصوم » ولكن بالموت جوعاً . عذاب فرضه على نفسه لبحابه أعظم تحريم تعتقد به الهند ، وكلاهما لا يجري مع العقل . وتابعه الهنود كأنهم يتابعون عذاب صلب بطيء . وكان ٩٥ ٪ منهم لا يملكون الراديو ، ولكن كل واحد منهم يعرف أخبار غاندي ومتى يتهدده الموت . وكل واحد يعرف أن هدفه الأخير هو تطهير الهند ، وما الاستقلال إلا النتيجة المثلى لهذا التطهير . لقد أراد لدعوته أن تمس أشد الناس انكساراً ، حتى في قوله : « لن يأتي « السواراج » من انتصار بعض البشر ، ولكن عندما يصبحون جميعاً قادرين على مقاومة الظلم والصمود له » . وراحوا جميعاً في تلاوة الصلوات عندما علموا أن الخرطوشة قد سقطت من مشلح غاندي ، وان كل شيء قد انتهى برصاصة حمراء داكنة على رماده الأبيض . ولكن

غاندي كان لا يزال حاضراً في هذا البرلمان كما هو حاضر في الكابيتول . وفينوبا بهاف ، الذي لم يرفع سلاحاً غير الدعوة التي بشر بها ، قد حصل على مليوني هكتار (ليست من أجود الأرض طبعاً . . .) للفلاحين . وفي عالم لم يغب عنه بعد ظل ستالين وظل هتلر ، كانت الهند تعرض على الدنيا تحررها من انكلترا من غير أن تسقط ضحية واحدة من الانكليز . فكلمة الديموقراطية ، برغم البؤس ، تتخذ فيها معنى يكاد أن يكون دينياً . لقد أوضحت باندونغ سلطان نهرو ـ كما أوضحه الانزعاج الذي أصاب النفوس من جراء سكوته عن تصرف الروس في بودابست . ولكن سياسة الهند لم تكن ترسم في الكونغرس أو في البرلمان بأكثر مما كانت سياسة المانيا الهتلرية ترسم في الرايخستاغ : سياسة الهند هي وريث الرجل الطيب الصغير الذي اخترع أن يصطحب ملايين الهنود للبحث عن الملح في المحيط الهندي ضد الضريبة الانكليزية ، ليجدوا هنالك الحرية .

أدخلونا ، أنا وأحد ملحقي سفارتنا ، إلى مكتب صغير : بعض المقاعد ، وما من طاولة ، ولوحة تمثل غاندي في حجمه الطبيعي . يا له من ملحق ـ ولكن في الهند . . . كان أشيب الشعر والشاربين اللذين تدليا نزولاً . وكان ذا حركات متأنقة ومتحذلقة . تطلع إلى اللوحة وقال :

ـ إنك ترى غاندي في كل مكان وستراه في كل مكان . لقد جئت إلى الهند بسببه . ولكن لم يبق منه شيء .

ـ إلا الاستقلال . . .

ـ نعم . . . لا . . . نهرو ليس مغتصباً ، ولكنه رجل سياسة . إذا كان المهاتما قد رفض أن يصبح رئيساً للجمهورية ، أو رئيساً للوزراء، فليس ذلك بمحض الصدفة . كان يرمز بذلك إلى عالم من طبيعة أخرى ؛ ونهرو يعرف ذلك .

ـ ما العمل ؟ انه زعيم الهند وليس قديساً .

ـ أكيد . ولكن ثمة أمر يجب فهمه ، يجب ، أنت ، أن تفهمه . الجميع يعرفون هذا الأمر ـ على الأقل جميع القدامى ـ ولا أحد يقوله . والوقت يمر ، وربما بعد عشرين سنة لن يعود هناك أحد ليقوله . هذا الأمر هو : كل ما تكونت منه الغاندية ، كل ما ناضلنا من أجله ، والذي كانت نتيجته ، بالفعل ، استقلال الهند ، قد زال واختفى .

ـ تقصد المقاومة السلمية ؟

ـ نعم . . . نعم . ولكن ليس هذه فقط . لقد ولدت ضد الامبراطورية الانكليزية ، وهي لم تطبق في باكستان . الأمور لم تنته مع باكستان . . . واصبر لترى الصين ، عاجلاً أم آجلاً . . .

« وهو كان يعرف ، في العمق ، ما هو اللاعنف . قبل موته بقليل جاءه مجلسنا العام يودعه قائلاً : « لا بد ، يا حضرة المهاتما ، أن تكون راضياً الآن ؟ » فأجابهم : « انكم مخطئون . لم يكن هناك سوى شيء واحد مهم هو النضال . والنضال انتهى . وما صنعناه انتهى أيضاً . . . » .

« أعرف ، أعرف : مليون أعمى ، سبعون مليون منبوذ ، وكل هذا . ومع ذلك فان هذا الشعب يعبر عن أرقى روحانية في

العالم . روحانية كانت قد اخترقت الهند بأسرها . ولكن ما زال كل واحد يبحث في الطريق الكبير عن الاتحاد الصوفي ، بالابتذال الذي يحيّون به في أميركا عن المال . الناس يسألون بعضهم بعضاً آخر الأخبار عن صلواتهم . كل ما ستراه في هذا البيت هي السياسة ، أي أوروبا ، أي كل ما قطع علاقته بغاندي . لماذا أمكن انتقاده إلى هذا الحد ، وإلى هذا الحد الاعجاب به ؟ لأن فكره لم يكن فكراً سياسياً . لقد اتخذ أشكالاً سياسية . وكانت له مضاعفات سياسية - لكنه كان آخر ، الغورو ، الكبار .

« إن أوروبا تؤمن بالتاريخ ، أي بالاستمرار . أما الهند ، أو بالأحرى الهند السياسية ، فإنها تتظاهر بأنها تؤمن بالتاريخ . . . وهذا غير صحيح . ان العالم هو عبارة عن لحظات تمر وتعبر . . . » .

وجاء من شقّ الباب .

إلا أن الملحق بالسفارة لم ينتبه إلى ذلك ، ومضى يقول :

« ذات يوم كان يخطب أمام مئات الألوف من الأشخاص ، بصوته العريض ، ومن خلال مكبر للصوت . وراحت الأزهار تتساقط أرضاً . بسبب الجماهير ؟ من يدري ؟ » .

هذه القصة جزء من قصة حياة بوذا ، من علاقته بالطبيعة - هذه العلاقة الضعيفة جداً في الأناجيل ، والتي لا نجدها إلا في الأناجيل غير المعترف بها التي اخترعت الثور والحمار ، وعند القديس فرنسوا الاسيزي : عصافير الشحرور أو البلبل ، تحليق الأب زريق الذي يستدير على نفسه في السماء لحظة يدخل بوذا في

النيرفانا ، والغزلان التي تصغي إلى النبوءات . من الممكن أن تكون نفس جمهور مماثل في سقوط أوراق أو أزهار هشّة . الحكاية ليست مختلفة . فقد سبق لي أن سمعتها من راجا راو الذي كان حاضراً أثناء خطاب غاندي المذكور ، والذي صوّرت روايته عوهجة لهيب الجو الفائق للأزهار التي كانت تهبط بلطف وتصطبغ مثل حيوانات بيضاء أمام رسول الآلهة .

وأضاف الملحق :

« كنت أنظر إلى ذلك الثلج يسقط وأنا أفكر أن هذا الزمن لن يعود . واليوم ، رغم كل صوره ورسومه ، أعرف أن زمن غاندي انتهى إلى الأبد . أما لا . . . » .

هنا انفتح الباب على مصراعيه . وأدخلونا إلى مكتب آخر ، أكبر ، تزينه صورة أخرى لغاندي .

وفي المكتب رأيت « الصحافة » وزهاء خمسين مصوراً في حالة هياج يقفون في انتظار مجيء الحاجب ليطلبني . ولكنهم نكصوا على أعقابهم فجأة : فقد انفتح الباب الآخر ، ولم يكن الحاجب الذي أطل منه ، ولكن نهرو .

كان يعرف أن صحافة دلهي تلومه على استقبالي ، لأسباب قوية : منها الهند الصينية ومنها الجزائر . ولأسباب واهية : منها أن كثيراً من الصحافيين المخلصين لبعض المجلات الأسبوعية في لندن ، كانوا من فرط الفطنة يعتبرون الجنرال ديغول خليفة هتلر . ثم لسبب آخر كنت أجهله ، ولكنه لا يغيب عنه : إن معظم هذه الصحافة ستظل عدوة له مهما فعل . تراجع الصحافيون أمامه ،

وهم يهمهمون باسمه [1] ، كما يقال إن الجموع قد فعلت عندما حضر ليرى جثمان غاندي بعد مقتله . وعانقني وقال لي (والتليفزيون يسجل) وكأننا التقينا من شهر ، بينما نحن لم نلتق من عشرين عاماً : « يسرني أن أراك من جديد ، كانت المرة الأخيرة بعد إصابتك في اسبانيا ، وأنت خارج من المستشفى وأنا خارج من السجن . . . » أعجبت بالموهبة التي أسكتت هذا القطيع مؤقتاً ، وأعجبتني فيها ميزة الانسان ، فالموهبة وحدها ليست كافية . وأخذني من ذراعي وانتقلنا إلى مكتبه .

لا أذكر الآن سوى المائدة المصنوعة من الخشب الثمين ، التي عكست آخر ومضات التليفزيون ، ثم لم تعد تعكس إلا وجهه والوردة التي كانت تفصل بيننا ـ الوردة التي يحملها دائماً . ربما طالع الناس كلامي وهم أقل ألفة بهذا الوجه ، ومضى التاريخ فلم يحتفظ منه بغير القناع . كان وجهاً رومانياً تثقله الشفة السفلى قليلاً ، وتمنح ابتسامته « المهداة » فعل الفتنة التي تضيفها مسحة البراءة على رجل من رجال التاريخ . الأمر الذي لا يختلط على الانسان ، ولا يغر صاحبه . ولكن وراء قناع الصور الفوتوغرافية ، كانت هناك هذه الابتسامة الموصولة بتعبير حالم يوحي عينين زرقاوين ، برغم سوادهما ، تتآلفان مع لون بشرته الأسمر .

كنت قد عرفت له طلعة قائد من قادة المقاومة في الجبل ، تثبتها في ذهني فلنسوة الشرطة التي كان يرتديها قبل عام ١٩٤٠ .

---

(١) الاسم الأول .

وهو الآن يبدي تجاه الكون تهكماً ودوداً ، فيه شيء من الكلل ، يغلف حزمه دون أن يخفيه . (عندما لقيت أمه الاهانة وهي تحمل الطعام إلى المسجونين ، تنازل عن حقه في الزيارة ، لمدة سبعة أشهر ، في سجن دهرا دون ـ قال غاندي : « هو الشجاعة نفسها » . أصابت السن وجهه ، بل أبدلته ـ بالكاد ـ وجهاً جديداً ، مثلما يحدث لكثير من الرجال تشابهوا مع أمهاتهم ، ويتشابهون مع آبائهم عندما تتقدم بهم السن . وفي صوته وفي هيئته كانت تظهر (أم كانت تعاود الظهور) تحت ثوب المثقف السري ، صورة الهدوء والرقة التي كونها لنفسه في الصغر عن الجنتلمان .

قرأ رسالة الجنرال ديغول ، وهي رسالة اعتماد ، ثم وضعها على المائدة وسألني وقد اتسعت ابتسامته :

ـ إذن فأنت الآن وزير . . .

لم يكن يعني بقوله هذا ، أني مشترك في الحكومة الفرنسية . لكنها كلمة هندية يريد منها أن يقول : هذا آخر جسد تناسخت فيه . . . أجبته :

ـ كان مالارميه يقص ما يأتي : ذات ليلة كنت أستمع إلى القطط التي عقدت عند ماسورة السطوح مجلساً للحديث . إلا قط أسود يأتي ليسأل قطي السمين الألوف : « وأنت ، ماذا تفعل الآن ؟ » فيجيبه : « أنا الآن أتصنع أن أكون قطاً عند مالارميه » .

اتسعت ابتسامة نهرو ، وأبدى الرضى . حركاته التي كانت منطلقة أصبحت تتجه نحو الجسم ، وأصابعه مطبقة تقريباً . وفي هذه الحركات المنقبضة التي تمنح سلطانه على النفوس فتنة لم أصادفها

من بعد ، كنت أرى الاختلاف الحقيقي الوحيد بين نهرو في الماضي والرجل الذي يخاطبني الآن . فالهيبة عهد من عهود الحياة ، لا يغير منها مر السنين . عرضت عليه ، في عجالة ، كيف أتصور معرض الفن الهندي الذي نتمنى أن نستقبله في باريس . منحني موافقته وسألني عما نقترحه للتبادل ، فاقترحت النحت الروماني المسيحي أو معرضاً تاريخياً عن الثورة . أجاب :

ـ فرنسا ، لدينا ، هي الثورة . . . عندما اكتشفها فيڤكاندا أمضى يوماً وهو يصيح مع أصدقائه : تحيا الجمهورية ! هل تعرف أن « البؤساء » من أشهر الكتب الأجنبية في الهند ؟

سبق أن التقيت ، ثم التقيت مراراً بعد ذلك ، هذا الوجود لفرنسا . ان روسيا السوفياتية لم تطمسه . الآلة تصطنع للبلاد الحديثة النمو عمالاً مهرة ، أكثر مما تصطنع بروليتاريا عاملة . وفي كل مكان يدعو الشعب إلى الثورة ، وليس البروليتاريا ، فان دعوة الثورة الفرنسية ، وحماسة المعركة المعلنة من أجل العدالة ، من سان جوست إلى جوريس ، إلى ميشليه وعلى الأخص فكتور هوغو ، هذه الدعوة تحتفظ بتأثير يضارع الماركسية على أقل تقدير . وفي افريقيا وفي أميركا اللاتينية ، حتى عندما كان تكتيك الثورة روسيا ، كانت لغتها لا تزال فرنسية . لقد رأيت في برشلونة أيام الحرب الأهلية ، أكواماً من كتاب « البؤساء » بين باكونين وكتابات تولستوي النظرية .

وقال نهرو :

ـ النحت الروماني ؟ ان النحت الهندي في العصور القديمة ،

لم يعد يعجب أحداً في بلادنا حقيقة . وقد يكون له وقع السحر على الجموع إلى حد ما ، كذلك الأصنام على جانب الطريق . . . إن أعضاء البرلمان يحترمون « ايلورا » لكنهم لا يذهبون إليها . . .

ـ بين البرلمانيين والفن ، علاقة لا تخلو من التعقيد ، وأعضاء برلمانكم يعرفون « الباغافا وجينا » على الأقل .

ـ مثل معرفة النواب الانكليز للتوراة . . .

انه يشيء الهند يحيط به أعداء من رجال السياسة ، مثل الطوق الذي يحيط بكوكب زحل . وأبديت له دهشتي من الفكرة الغريبة التي تكونت لدى صحافة دلهي ، عن الحكومة الفرنسية . فأجابني « أوه ! وعن الحكومة الهندية أيضاً ! . . . » وأكد قوله بإشارة من يده ، كأنه يريد أن يأمل ويتوكل .

وألمحت إلى أن موقف الجنرال ديغول في ذلك لا يختلف كثيراً عن موقفه . وقد أثرت فضوله لكنني أشك في أن يكون قد اقتنع .

ولما كانت الأحزاب التوتاليتارية لا تزال تتمتع بماض مذكور أو بوجود قوي ، فقد كانت فرنسا ترى نهرو أشبه بستالين منه بروزفلت ؛ ولا شك في أنه بالمثل كان يرى الجنرال ديغول أشبه بموسوليني منه بتشرشل . إلا أنه من الذكاء وسعة الاطلاع على الأحداث والدراية بالأمور بحيث لا يمكن أن يعتقد أن الجنرال ديغول زعيم فاشي أو أن حزب السيد سوستيل يوشك أن يجرفه ، فقد كان يتابع ما يجري في فرنسا باهتمام . ولم يتدخل في الهند الصينية أو في الجزائر ، بسبب الأراء التي كان يعتنقها وتقضي بأن الاستقلال الوطني يجب تحقيقه من دون مساعدة أجنبية . وكان

لا يأخذ الجمهورية الرابعة مأخذ الجد ـ ذهب إلى فرنسا ، وكان الوقت ربيعاً ، فاستقبله رئيس الوزراء الحذر ، في مطعم في غابة بولونيا . وكان يرى عن كثب أفول انكلترا ، بعدما عرف قبلها ، لأمد طويل ، الدولة الأولى في العالم اجمع . وكان يرقب أفول أوروبا ، دون أن ينسى أنه شاهد ألمانيا وروسيا وهما تولدان من جديد . وكان من ناحية أخرى معنياً بافريقيا ، يصعب عليه أن يوفق بين إنشاء المجموعة الفرنسية وحرب الجزائر . وقد وردت كلمة الجزائر في الحديث ، ورأيت منه حركة تراجع خفيفة فأدركت أنه يأسف على نطقها وأنا في ضيافته . ولم أزد على قولي :

ـ الجنرال ديغول هو الذي سيحقق السلام في الجزائر .

ونظر إليّ نظرة من يحير الأمر أو من لا يصدقه .

اتجه ذهني إلى ما كان يدعى في ذلك الوقت بـ « سلام الشجعان » ، وإلى مظاهر التآخي التي لا أعلم حتى اليوم إلى أي مدى كانت صادقة أو مصطنعة . ولكن في رأيي وفي رأيه بالمثل ، لم يكن بقاء « المجموعة » ولا استقلال مستعمراتنا الافريقية القديمة إذا حدث وتخلف عن « المجموعة » ، ليسمح بمواصلة حرب الجزائر إلى ما لا نهاية . وسألني :

ـ ما الدور الذي يلعبه الشيوعيون ، في رأيك ؟

ـ دور كبير في باريس ، صغير في الجزائر . ولكن هل تعتقد أنه لا تزال توجد سياسة شيوعية ؟

واستوضحني بنظرته . قلت :

ـ أريد أن أقول الآتي : لقد تصورت بريطانيا العظمى ،

على طريقتها ، سياسة كونية ، في ما مضى . أما الولايات المتحدة ، فلا . لقد أصبحت أقوى بلد في العالم ، من دون أن تقصد . تختلف في ذلك عن الاسكندر وقيصر وتيمورلنك ونابوليون . فقد تمت لهم السيادة نتيجة للغزوات والفتوح . وربما كان هذا هو السبب في أن الولايات المتحدة تحسن مباشرة الحرب ، وتسيء مباشرة السلام .

رأيت سيارة فوستر دالاس ، وزير خارجية الولايات المتحدة ، تثب وهي تجتاز مدخل « ماتينيون » فأحسست كأنني أرى والياً من روما يعبر من إحدى البوابات في بعض المدن الشرقية . . . وغداة ذلك اليوم ، قال لي الجنرال : « اما أن هناك « غرباً » فينتهج سياسة مشتركة تجاه بقية العالم ؛ أو . . . ولكن لا ، لن يوجد « غرب » . وهكذا كان » .

وواصلت حديثي قائلاً :

ـ السياسة الاميركية الحالية على نطاق العالم سياسة معادية للشيوعية ، وبالتالي ، فان السياسة الروسية هي التي تحددها . حتى في مشروعها الضخم : « خطة مارشال » . وعلى عكس ذلك ، عرفنا سياسة روسية عالمية ، وضعت في خدمة الاتحاد السوفياتي القوات التي نشأت في خدمة « الأممية » . ولكن منذ وفاة ستالين ، لا يبدو على هذه السياسة أنها تواصل البقاء . هذا على الأقل ما توحيه الجزائر ، وحتى افريقيا ، بل حتى باندونغ . ان المثقفين اليوم هم الذين يطرحون المسائل السياسية ، تبعاً للشيوعية .

ـ وما هو موقفكم الآن منها ؟

ـ الشيوعية في فرنسا هي الحزب الشيوعي كما تعرفونه ،

بخيره وبشره . وكثير من المثقفين يمزقون بين العدالة الاجتماعية والأمة ، لا بين الشيوعية والرأسمالية . وفي أيام المقاومة اخترت فرنسا ، ولست الوحيد .

وأما في الولايات المتحدة فالأمر يبدو لي مختلفاً . ان أصدقائي الاميركيين ، بعد قضية هيس ، وبعض قضية أوبنهايمر ، رأوا في الشيوعية « مؤامرة » وفي الشيوعيين عملاء سريين للروس ، يناضلون من أجل البروليتاريا ، ولكن البروليتاريا هي النقابات التي ليست شيوعية » .

وابتسم من جديد وقال :

ـ «كل واحد يؤمن بالشيوعيين الذين عنده سواه . . . ولكن كل إنسان يذهب إلى الله من خلال آلهته ، كما تقول الهند .

هل يمزح ؟

ـ أيدهشك قولي ؟ منذ عودتي الأولى من أوروبا ، وأنا مندهش لدهشتك . هل يفعل الغرب ، في مجال الفكر ، شيئاً آخر غير الاتجاه إلى الله من خلال آلهته ، حين يعجب في وقت واحد بأفلاطون وسبينوزا وهيغل وسبنسر ـ دون أن تتحدث عن الذين يعجبون في وقت واحد بنيتشه ، أو بماركس ، وبالمسيح ؟ » .

واستطرد في الحديث عن الشيوعية . كان ، مثل الجنرال ديغول ، لا يعتبرها طرفاً أساسياً . قال « ان الشيوعيين هنا مشغولون على الأخص بالنقاش » . وقال : « إن إحدى ولاياتنا ، كيرالا ، شيوعية ، أعضاء اللجنة المركزية على كل حال من البراهمة . . . » كنت أعلم أنه لا يشاطر غاندي رأيه في معاداة

الشيوعية ، غاندي الذي قال : « لدى روسيا ديكتاتور يحلم بالسلام ، ويرى من الممكن الوصول إليه عبر بحر من الدماء » . ولكنه قال أيضاً : « ان المثقفين يمقتون آرائي وأساليبي » . وقد أصبحت نهرو من الثورة الروسية ، حرب تحرر من القيصرية الشبيهة بالاستعمار . وكان لا يشعر بخطر يتهدده من الحزب الشيوعي الهندي أو من الجيش الأحمر ، فهو يفكر في روسيا من بعيد ؛ ولأنه لا يعتقد في حدوث نزاع مسلح بين الاتحاد السوفياتي والولايات المتحدة ، فربما كانت لا تكدر باله الحرب الباردة التي تفيد فيها الهند من الخصمين الكبيرين . عندي ، ان تاريخ القرن منذ أربعين عاماً ، هو تاريخ المد الشيوعي وقيام أميركا محل أوروبا . وعنده أنه تاريخ الخلاص من الاستعمار ، وتحرير آسيا في المقام الأول . لم تكن الاشتراكية التي ينتهجها في سياسة الدولة مرتبطة بالسوفيات ولا هي مرتبطة بالرأسمالية ، التي لا تخلو أيضاً من العنف ، على طريقتها » . كان الغرب ، وربما كانت روسيا أيضاً ، ينظران إلى الهند باعتبار الحرب الأهلية ، ويتحدثان عن « العالم الثالث » وعن الحياد . ولكن بالنسبة إلى نهرو ، كان هناك عالمه هو ، الذي لا يتحدد تبعاً للعالمين الآخرين : عالم البلاد المتحررة والمتخلفة معاً ، التي يجب قبل كل شيء ، أن تغير حضارتها . هل يتم ذلك بأن تتغرب ؟ « إلى درجة ما ، ولكن العلوم والآلات قد صنعت في مئتي عام مدنية تختلف كثيراً عن المدنية التي عرفتها الثورة الفرنسية وحرب الاستقلال الاميركية ، وان الهند التي سوف تصنعها في مئة عام لن تشبه هند اليوم ، وربما لن تشبه أوروبا أيضاً » . كان الاتحاد

السوفياتي ، في نظر الغرب ، يرمز إلى ثورة ماضية ، وأحياناً إلى ثورة قائمة ، ويرمز في نظر نهرو إلى التخطيط قبل كل شيء . قال : « لم يدهشني شيء ، بعد اكتشاف عدم العنف ، أكثر من التخطيط في آسيا الوسطى . وربما كان الأوروبيون لا يدركون أن التصنيع أصبح الآن في آسيا شعاراً وأسطورة ولا تقل قوته عما كان الاستقلال في الماضي . . . » .

في بعض الحالات ، كان عليه أن يستخدم المناهج الروسية وروؤس الأموال الأميركية . دون أن تغلبه الأوهام ، فهو يرى أن المساعدة الأجنبية شيء لا غنى عنه لنمو الهند ، ولكن نمو الهند لا يمكن أن يتأتى إلا من العمل الهندي « حتى لا نرى استعماراً ذهبياً يولد أمامنا . وأنا على كل حال لا أعتقد أن كل هندي شديد التمسك بامتلاك البراد والسيارة » . أية برادات ؟ كانت المأساة التي تمسك بخناق الهند ، هي مأساة الجوع . فهل يتضح أن التخطيط الشيوعي أكثر فعالية ضد المجاعة ، من الليبرالية الرأسمالية ؟

كنت أدرك لماذا هزت كلماته ما اعتدنا أن نطلق عليه اسم العالم الثالث . كان في هذا المجال ، مثل غاندي ، يكشف للناس الأمور البديهية . وأشار في حديثه بالفعل ، إلى « مؤتمر المائدة المستديرة » ، وذكر غاندي وقد التف هناك بعباءته من شدة البرد ، بين السادة الرسميين يكسوهم طلاء من الذهب مثل العرائس المنقوشة على سقف القاعة . وقال : « كان هذا في الوقت الذي ظهر أغاخان مظهر المدافع عن الاستقلال ، وأطلق اشتراكيو الصالونات في لندن والهند لقب الرجعي المتطرف على غاندي » . أمام هذا

الملف ، كان ستالين لا يزال شامخاً ، لكن أيدنو كالدخيل . وقد حضر خروشوف وبولغانين إلى الكابيتول ، رئيسي دولة بين غيرهما من رؤساء الدول . ان التكوين الانكليزي لنهرو لم يكن ماركسياً ، وأما تكوينه الهندي فكان يدفعه إلى كفاح ضد الطوائف أكثر منه ضد الملقات « في سبيل المنبوذين الذين يموتون . رغم الدستور ، فوق أعتاب الكابيتول » ، أكثر منه في سبيل البروليتاريا .

إلا أن المحافظة على الاستقلال الحقيقي ، وتصنيع الهند ، لا يمكن أن يتما إلا على أساس وجود « دولة » . وكان نهرو واعياً « للدولة التي بتشيء » . وكان يرى أن كل ثورة لا يمكن ان تنفصل عن الارادة الأخلاقية وارادة العدالة ، وهذه الارادة في الغرب كانت ارادة الأفراد ، المبنية على العقل والمساواة أمام القانون ، وهم يعتبرونها من القيم العليا . ولم يكن لهذه الارادة وجود في الهند ، ذات الفردية ، بل كان الفرد نفسه ، يلعب هناك دوراً ضعيفاً . إنما الواقع الأساسي هو الطائفة . ليس الهندي فرداً ينتمي الى طائفة ما ، كما يقال عن الرجل الأوروبي انه فرد ينتمي الى هذه الأمة أو تلك . لكن الهندي عضو في طائفته كما ان المسيحي الحقيقي يتصير بالتعميد قبل ان يصبح فرداً . لا العلمانيون في ما مضى ، ولا حتى البراهمة استطاعوا أن يحدثوا تغييراً عميقاً في الفلسفة الأخلاقية الهندية . ولم يحدث مثل هذا التغيير إلا الزهاد : لأن الزاهد يعيش خارج الطوائف ولأن حياته نذر للآلهة . والهند لا تتصور وجود فلسفة أخلاقية علمانية . ان غاندي الذي كان في نظر الغرب زعيم الهند السياسي ، كان في نظر الهند ، وفي نظره أيضاً بلا شك ،

زاهداً تقليدياً عظيماً .

ان الكفاح من أجل التحرير لم يضع طبيعة المجتمع الهندي موضع سؤال . كان الشيوعيون يأخذون على حزب المؤتمر أنه حزب بورجوازي . متى ادعى انه حزب بروليتاري ؟ كان هدفه الاستقلال ، وهو هدف وطني وليس اجتماعياً . وقد ناضل من أجل الجميع . ولكن بعد بلوغ هذا الهدف ، أصبحت العدالة الاجتماعية مشكلة ذات أهمية بالغة . إلا ان الوعي الطائفي كان أقوى من الوعي الطبقي . ولم يكن الجهاز السياسي يؤلف فئة منظمة مثل الحزب الشيوعي ، والنواب لا يخلصون من طائفتهم إلا جزئياً . ان رجل البرلمان المثالي يصدر من الصورة المثالية للبرلمان البريطاني ولا يوجد إلا في تراث انكلترا وكان نهرو ، الانسان اللاادري ، يبحث عبثاً عن الصورة الهندية . ولكي ينشىء الهند الحديثة ، كان مضطراً إلى ان يعتمد مباشرة على شعبه ، ويشرك أقل الهنود شأناً في صنع ملحمة (لم يقل عنها إلا انها « مشروع كبير ») وقال : « ان الهند يجب ان تعبىء نفسها بنفسها ، لا بأمر من الحكومة . . . » ولكن الهند الألفية ترى في انتفاء العدالة الاجتماعية جزءاً من النظام الكوني ، والنظام الكوني عادل بالضرورة . كان غاندي مصمماً على ازالة النبذ ، فهل كان مصمماً على ازالة الطوائف ؟ وكان كفاحه ضد النبذ كافياً لكي يلقى مصرعه اغتيالاً لا على يد شيوعي ، ولكن على يد رجل من رجال التقاليد الذين ما زالوا يعلقون في منازلهم صورة القاتل ، وما زالوا يلعبون في الجيش دوراً لا ينظر اليه وزير الحربية باستخفاف . فليحيا النظام الأبدي ،

حرقة المضحية ، وأسطول طيرانه من « الكشاترية »(١) وادارته من البراهمة ، ولسقط جثة نهرو بعد جثة غاندي !

هذا ما كان يطلق عليه ، حتى خصومه الاشتراكيون ، مأساة الهند الثانية . قال :

- بالطبع أنا لم أحلم بمؤتمر كل نوابه من الزهاد .

وأضاف بلهجة حزينة :

- ولكن ما قيمة هيئتنا من السياسيين ، اذا قورنوا بأمثالهم في حزب شمولي أو في الديمقراطية البريطانية ؟ عليّ ان أدعم الدولة . الشخصيات التاريخية العظيمة في زمننا هذا كانت مرتبطة بمعركة ، وأغلب الأحيان باستيلاء الحزب المنتصر على الحكم . وحتى غاندي ظل مرتبطاً بتحرير الهند .

عندما كانت هذه المعركة هي معركة الاستقلال أو الثورة أياً كان الاستقلال أو الثورة ، فقد كانت تحمل في طياتها حنين محوها . لقد سبق أن سمعت تروتسكي يحدثني عن تروميدور(٢) . لكنني كنت على وعي ، في هذا المكتب العادي الذي يحيط به المجد والمجاعة ، بأن القوة الملغزة التي تحول مفوضي الشعب السائرين في ثياب من الجلد ، الى ماريشالات بأشرطة مذهبة ، تفوق بكثير مكاسب المنتصرين البائسة وتجرف الفاتحين في طريقها كما يجرف نهر الغانج بقايا الحطام . لقد ختم لينين حياته وهو يرتدي الكاسكتة كما

---

(١) و(٢) طائفة المحاربين .

يظهر من صوره الفوتوغرافية في السفارات السوفياتية ـ ولكنه قال : « ليس هناك ثورة لم ينته بها الأمر الى زيادة سلطة الدولة » . وكانت كاسكتة ستالين هي كاسكتة الماريشالات . كان الثوريون الذين يصفون تروميدور بالردة يدرسونه بروح البورجوازية نفسها . ان العقبات التي تعترض حكومة الهند لن تعيد السلطة الانكليزية ، لم يكن الماضي هو الذي يقف في وجه الثورة المستمرة وزمن المساواة ولكنه المستقبل . والبراعم التي يحملها الاستغلال والثورة في داخلها

ـ يجب أن أحافظ على المشاعر التي أثرناها ، لانشاء الدولة في بلاد يشعر ضميرها الوطني بأنه ديني قبل كل شيء ، بلاد كانت كلمة الدولة عندها تعني الادارة دائماً سواء في أيام الامبراطورية المغولية أو نواب الملوك الانكليز ولقد كنت في ما مضى ، أقول : ان تنظيمنا الذي تكون من أجل الاستقلال في سبيله إلى أن يصبح تنظيماً انتخابياً . . .

مسكينة الانتخابات ! كنت ألمح من وراء الكلمات العميقة البصيرة ، وقع القدر الذي لقيه من قبل لينين وماو وموسوليني ، والذي لم يكن يتمثل في سلطة الحزب فقط ، ولكنه أيضاً الدولة ، التي تحتها وجدها لا تكفل للهند البقاء والمصير ، الدولة التي ربما ساورت ذهن الاسكندر ، والحت بالتأكيد على ذهن قيصر وشارلمان ونابوليون . ولكن هل كانت الهند قبل الاسلام (وحتى في أيام الاسلام . .) دولة ذات يوم ؟

ـ لا تنس أن أوروبا تداوم على أن تطلق اسم اللا عنف على

ما نسميه نحن المقاومة اللا عنيفة . متى كانت الهند ، قبل الاسلام ، دولة ؟ لم يكن ذلك في ظل العوتا ، في ما أظن ؟

ثم أضاف بلهجة حزينة : « والى أي مدى تستطيع الدولة أن تتأسس على العمل اللا عنيف ؟ ولكن هل ما أردنا أن نصنعه كان بالفعل دولة ؟ »

كان مشفقاً على الهند . وكان يعرف بؤسها . لكنه يريد لها قدراً فريداً ، يريد لها أن تصبح ضمير العالم . ولا شك أنه لم ينس لقاءاتنا الماضية لعلمه بأني أحب هذه الهند . قلت :

الجنرال ديغول يرى أن الدولة التي لا تبني شرعية وجودها ، آجلاً أو عاجلاً ، على أساس « الدفاع » عن الأمة ، مقضي عليها بالزوال . . .

ـ أجل . . . وإذا أرادوا أن يقسموا الهند بالقنابل ، فسيقسمونها . . . يمكن القضاء على الجيش وعلى الحكومة وربما القضاء على النظام : لا يمكن القضاء على الشعب .

هل يقصد : الغربيين ؟ ولكنه أضاف :

ـ كلما عادت الصين من جديد ، عادت امبريالية . . .

لقد ذكر في كثير من خطبه أن شعوب الهند لا تزعم لنفسها التفوق على الآخرين ، ولكنها تعلم أنها مختلفة . وقد نذر حياته لهذا الاختلاف . هذه القيمة العليا التي جاءت بها الهند الى العالم . هذا العمل اللاعنيف ، الذي جعل من تحرير الهند منافساً للثورات التاريخية . وكان يعلم ، خيراً مني ، لماذا ترجم غاندي

«الباغافادجيتا» ويعلم ـ مني خيراً ـ لماذا أطلق هو نفسه على بوذا لقب «أعظم أبناء الهند» . ورغم مآسي الفصل بين الهندوستان وباكستان ، ورغم كشمير ، كان لعدم العنف بريقه الذي لايزال محتفظاً به . ولم تكن كلمة ديموقراطية تفعل الا تثير الابتسام . كانت أوروبا تخلط بين الأيديولوجيا الموروثة عن غاندي وبين نوع من السلبية . ولكن نهرو كان لا يزال مؤمناً بما كتبه في ما مضى : «قيل إن العمل اللا عنيف خرافة ، ولكنه كان هنا ، هو الوسيلة الوحيدة «الواقعية» للعمل السياسي . ولكل عمل سيء نتائج سيئة ، حتى في السياسة . وهذا ، في ما أعتقد ، قانون من قوانين الطبيعة ، يضاهي في صحته أي قانون فيزيائي أو كيميائي» .

كنت أذكر راما كريشنا وقوله : «لا يمكن أن يظهر الله حيث تكون الكراهية أو العار أو الخوف . . . » ولكنني أذكر أيضاً غاندي وقوله : «أفضل للانسان أن يناضل من أن يخاف» .

وكما أكد ستالين أنه يبني «الاتحاد السوفياتي» مثلما قام لينين بالثورة ، كان نهرو مضطراً الى أن يبدو كأنه يبني «الهند» مثلما ظفر غاندي بالاستقلال . فكل شيء في هذه الدولة الفيديرالية وفي المقام الأول وحدتها يقوم على هدى الدعوة . لكنها لا تبني على عقلانية بريطانية قد يلجأ اليها نهرو طواعية في كثير من الأحيان ، بقدر ما تبني على التعبير عن أعمق أحاسيس الهند . ومن هنا جاءت فعاليتها التي كانت تثير دهشة الغرب . وعندما التقيت نهرو للمرة الأولى في باريس عام ١٩٣٥ ، سألته : «ما هي الصلة التي تعقدها بين عدم

العنف والتناسخ ؟» وأطرق يفكر ، وكان ذهنه لا يزال يحمل من أيام السجن طابع التمهل الحاد في التفكير ، الذي يختلف كثيراً عن المرح البادي تحت وقاره الباسم وهو الآن رئيس للدولة . وكان يعلم جيداً أن «الأهيمسا» ، اللا عنف الهندي ، لا يختلط بطريقة للحصول على الاستقلال دون المخاطرة بالتناسخ في صورة سيئة ، وكان يرى في الأهيمسا شعاراً مقتدراً ، لا نظرية . وتذكر نهرو حديثنا ذلك ، فقال :

ـ يقال ان تولستوي طرح على غاندي السؤال نفسه .

ـ وبماذا أجاب غاندي ؟ بمثل ما أجبتني ؟

ـ ماذا أجبتك ؟

ـ قلت تقريباً إن التناسخ كان بمثابة السماد . . . الكفاح ضد البؤس ، ولكن دون مبالاة بمستوى الحياة ، ورفض الاختيار بين الأمم الشيوعية والأمم الرأسمالية ، ثم رفض تبرير الوسائل بالغايات ، ليس مصدرها ليبرالية القرن التاسع عشر ولكن آلاف السنين من الفكر الهندي . ألم يلعب غاندي في حياة نهرو دور الغورو[1] ؟ إن بالمدويع قد منحت الهند سلطاناً معنوياً أكثر منه سياسياً . وسألني ، بين الابتسام والجد :

ـ ألم يدهشك قول الباغافادجيتا : «من يفعل فعلاً ما ينبغي له ، سوف يحصل على ما يأمل . . . » .

كنت مهتماً الى أقصى درجات الاهتمام ، فنصيب السخرية في قوله لم يكن إلا قشرة سطحية . على كل رئيس دولة أو حكومة أن يعمل حساب مصلحة الدولة أجلا أو

---

(١) مرشد هندي .

عاجلا ، فيصطنع لها قناعاً من القيم التي يؤمن بها محدثه أو من أقدم القيم التي رسخت في ضمير شعبه ، وهي قيمة في أغلب الأحيان . لقد سمعت الشيوعيين الروس يستشهدون بقيم اورثوذكسية ، والشيوعيين الصينيين يستشهدون بقيم كونفوشيوس ، وقد استبدلت اسمها بالكاد . ولقد سمعت كل الناس يستخدمون مفردات الديموقراطية . أما هنا ، فقد كانت النظرة الأخلاقية ، أساسية حقا . وسألته :

ـ منذ الاستقلال ، أي شيء كان هو الأصعب ؟

وأجابني في نفس واحد ، بينما كان حتى الآن يتحدث عن الهند وكأنه يتحسس كلامه قال :

ـ إقامة دولة عادلة ، بوسائل عادلة ، في ما يبدو لي . . .

وأردف بعد لحظة :

ـ وربما كان أيضاً إقامة دولة علمانية في بلد متدين خصوصاً وأن دينه لا يقوم على كتاب مُنزل .

ألفيت نفسي واقفاً أمام الهند الخالدة وفي الوقت نفسه أمام هند تقارب ما ارتسم في ذهننا من صورة فرنسا وجنود العام الثاني من الجمهورية ، والولايات المتحدة أيام واشنطن . ختام زمن مثالي من أزمان التاريخ . « أيام عاشها البشر على مرام فؤادهم . . . » التاريخ يمر من أمامي ، حاملاً ما لن يعود . وفي هذه الساعة ، على الجانب الآخر من الأرض ، مثقفون غربيون ، يدخلون الهند في صناديقهم الصغيرة ، ماركسية كانت أو ديموقراطية . ونهرو يحاول أن يقوم بتحويل من أحمق تحولات العالم ، في هذا البلد المتحد اتحاداً فيديرالياً واهياً ، وباكستان في مواجهته تشيد بنيانها ـ في هذه

العاصمة التي يعسكر فيها المنبوذون على أعشاب النخيل الانكليزي ، والسيارات في الليل تدور حول الأبقار المقدسة التي نامت هياكلها الضاوية فوق اسفلت الطرق . كنت أتخيل ستالين وهو يسمع : « إقامة دولة عادلة بوسائل عادلة » ، وخلفاءه الصغار والكبار ، وهتلر من قبل . وأتخيل على الأخص ماوتسي تونغ ، وهو اسيوي مثل نهرو ، محرر مثل نهرو ، ولم يكن ليرى إلا أن يؤسس الفلاحين الهنود هو الواقع الوحيد ، وفي إمكانه سحق الطوائف مثلما سحق المرابي والمالك الصيني ، وأن جيشاً شيوعياً قوامه عشرة ملايين من الرجال يستطيع أن يحول ، وهو منتهج سعيد ، ممالك الأمير سيد هارتا والمهراجات الآخرين إلى كومونات شعبية ـ وأن أسطول آهة الخشب سيهبط نهر الغانج يوماً برفات بنارس .

وواصل نهرو حديثه قائلاً :

ـ من بعض النواحي ، كيف يمكننا الحكم بما هو الأصعب ؟ كان الأصعب عند غاندي هو التغلب على قسوة قلوب الناس المثقفين . وكان زعماء الكفاح من أجل الاستقلال رجالاً رسوليين . . . ويجب الآن أن تكافح الهند ضد نفسها . ولكن كل سنة هي أفضل قليلاً من سابقتها . الام ؟

« لن أرى كيلاسا من جديد . . . »

كيلاسا جبل الأسفار المقدسة ، سيناء الهند ، وهو من أجمل جبال الحملايا . لقد أحب في أيام شبابه صعيد كشمير وحلم برحلة إليه . وأعد لها بدقة وهو في السجن : اختار الأرض المقلوبة في ساحة السجن لأجل بحيرات التيبت وأجمل جبال كشمير . ثم أجل

حلمه عندما حمل عبء السلطة ، وكتب يقول : « ربما كان حمل الهند من الثقل بحيث يدنو الأجل دون أن أرى بحيرة أحلامي وجبلها . . . » .

كان ينظر ساهياً إلى غلاف مجلة الأطفال ، تصفحتها في الكابيتول ، حيث كانت « الصحافة » تصاحب وجبة الافطار . ووجدت حديثاً يقول فيه : « أنسى أحياناً أنني منذ وقت طويل جداً كنت طفلاً » . ورفع عينيه ليقول :

ـ لقد سجنت أيضاً أثناء الحرب ، أليس كذلك ؟ لم يعد في الامكان أن نقابل شخصاً لم يذهب إلى السجن . . .

أمضى في السجن ثلاث عشرة سنة . وكنت أذكر فقرات من مذكراته (التي كتبها في السجن) يتحدث فيها عن اكتشافه للون السحاب ، وابتهاجه بسماع كلب ينبح للمرة الأولى منذ سبعة أشهر ، وميله إلى كتب الرحلات ، وحبه في ساعات الحر الشديد للأطالس التي رسمت عليها جبال الجليد . وقلت له :

ـ أذكر السحاب الذي كان يأتي ليجلس في حجرك ، ويغير ساعة يقابل نظرتك . هل كان ذلك في ديراه دون ؟

ـ في لوكناو . . . وكانت هناك أيضاً السناجب الصغيرة التي تسقط من الأغصان ، فتهرول إليها أمهاتها وتكورها مثل الكرة وتعود بها .

ولم أكن أعلم أن السنجاب يمكن أن يكور بهذا الشكل ، ولكن سناجب الهند ليس لها ذيل مفروش مثل سناجبنا . وأردف نهرو قائلاً :

ـ كان غاندي يقول إنه لولا الفكاهة لما استطاع أن يعيش . . .

كنت أعرف أنه حدث مراراً أن اختفى نهرو من المواكب الرسمية ، تاركاً للسلطات مؤونة تفسير تصرفه . كان في نبرة صوته ما يبعد عن الظن كل مزاح ، إنما هو يريد أن يقول ما يقوله مثل من قابلت من رجال التاريخ ، ومثل أغلب الرسامين . وعاد إلى ذكريات السجن ليقول :

ـ بعد كل هذه السنوات ، هل تعلم ما تستدعيه إلى ذهني كلمة : السجن ؟ بناء بتوافذ متشابهة ، والكفاح الذي ما زال مستمراً في الخارج ، وبالقرب من السور عشبة صغيرة تطلع من الأرض المقلوبة ، وتبدو عليها الدهشة . وأنت ؟

ـ أرى الذين تم تعذيبهم محمولين تحت القناطر الكبيرة بينما رجال الغستابو يلعبون لعبة النط على الحبل .

وأمضينا في الحديث عن السجون وقتاً لم يتوقف خلاله عن الابتسام . كانت سجونه تذكرني بالأبنية الصفراء الكبيرة التي يرسمها كيريكو ويمتد ظلها فوق الشوارع الخالية . سجون انكليزية « إدارية » كان لنزلائها الحق في الخروج لحضور وفاة والدهم ، وكانت القطارات الخاصة تحمل إلى غاندي ونهرو زعماء الكفاح من اجل الاستقلال ، المسجونين مثلهما . وهي برغم ذلك ، عدم منفصل عن الحياة ، ولكنه محدود في الزمن . لا تعذيب ، وفي هذا الاطار الهندسي من الحجر ومن الساعات الميتة ، حيوان يعبر الساحة أو غصن ينمو ببطء فوق الجدار . . . أما ذكرياتي فقد أثارت

دهشته : كان سجني وسجنه ينشابهان من حيث عزلتنا عن الكفاح الذي يستمر في الخارج ، « ولكن الفارق رغم ذلك كبير ! » وبدا السفير يحس بالخجل لأنه لم يسجن بل لم يستدع إلى المخفر قط . ولم يكن يسيئه أن يرى رأس الحاجب يطل أكثر من مرة عبثاً . وقال نهرو :

ـ سنعلم غداً عن طريق الجرائد ماذا قلنا ليعضنا البعض . . .

ـ أنت تعلم أن الزواج الكاثوليكي يسبقه (ليلة الزفاف) اعتراف العروسين . وقد ذهبت أمي لتعترف وعادت بعد دقائق . وتبعها والدي . ومكث هناك خمس دقائق ثم عشراً ثم خمس عشرة ما عدد الآثام التي يستغرقها هذا الوقت الطويل ؟ وعندما خرج والدي من الكنيسة غامرت والدتي بهذا السؤال على استحياء ، فأجابها : « لم أقض الوقت في الاعتراف ولكن الكاهن كان يتولى الشؤون الدينية في فصيلتنا ، فتجاذبنا أطراف الحديث . . . » .

وأجاب نهرو :

ـ لكن الجرائد ، حتى إذا هي اعتقدت أننا تجاذبنا أطراف الحديث ، فسوف تعدد الآثام . . .

ونهض وهو يقول : « إلى المساء » . وكان السفير قد نقل إليّ الدعوة إلى حفل العشاء .

●

العشاء في الكابيتول يسكنه شبح الامبراطورية ، مثل

نبوذهي . كان نهرو مرتدياً زيه الرمادي المعروف ، وعلى رأسه طاقية الشرطة البيضاء ، يستقبل نحو مئة من المدعوين في قاعة ضخمة يظللها سقف ساذج كأنه بروي قصة فارسية . وقال لي نهرو :

« ألا ترغب في الذهاب لمشاهدة مغارتنا المقدسة ؟ أحب أن أعرف رأيك في عمل مصلحة الآثار عندنا . . . » هل أراد أن يسرني ؟ لقد مضى بخطوات قصيرة مسرعة بين الجماعات المزركشة ، وتذكرت الخطاب الذي ألقاه في الجموع المحتشدة أمام القلعة الحمراء ، يوم الاستقلال ، وقوله : « لقد ضربنا للقدر موعداً منذ أمد بعيد ، وها هو الآن القدر ! » .

●

اتجهت أفكاري إلى الحديث الذي دار بيننا عصر هذا اليوم ، وإلى رأس العشب الذي يشق طريقه مندهشاً إلى الحياة فوق ظهر الأرض ، وإلى الحيوانات التي كاد يتم تدجينها . كان السجن بالنسبة إليه كما كان بالنسبة إليّ ، هو الجدار الذي يفصل عن الأحداث . وفي ما يتعلق به ، كان وراء هذا الجدار ـ على مدى الثلاثة عشر عاماً ـ قدر الهند ومصيرها . أما هذا المساء فكان في الحياة ـ بل في مسرحها . يحيطه الاحترام الذي يحيط بالدكتاتوريين لا برؤساء البرلمانيين ، ولو أن الأسباب مختلفة . وأعلم أنه تساءل مرة هل يمكنه أن يحتفظ باللاعنف في حالة ما إذا رأى الشرطة تضرب أمه . لقد أمضى والده ليلة فوق الاسمنت ليعرف كيف ينام الناس في السجون . وقالت له زوجته وهي تموت : « لا تعط أبداً كلمة

بالتخلي عن الكفاح » . كنت أفكر في الرسالة التي بعثها إليه والده ، ودارت حول العالم حتى وصلته بعد خمس سنوات من وفاته . ولكن هذه الحياة الشخصية أقل قدرة على تصويره من التأثير غير المباشر الذي يمارسه على العالم ، والتأثير المباشر الذي يمارسه في بلاده . وأكثر من خطابه في القلعة الحمراء ، كنت أتذكر دفاعه في قضية جوراخبور (في ٣ تشرين الثاني ١٩٤٠ ، يوم هروبي الأول) ، وقوله : « لست أنا من تريدون محاكمته وإدانته ، ولكنهم مئات الملايين من أبناء شعبي ، وانها لمهمة ثقيلة حتى على امبراطورية متكبرة . . . » ووجدت الشعور نفسه الذي أحسست به في البرلمان ولكن بشكل أعمق : ان نهرو ، مثل غاندي ، كان غورو أمته . . .

إن انتظار عشاء ديبلوماسي لا يستدعي إلى الذهن صور التاريخ الكبرى . والهند نفسها تستبعد هذه الصور ، لأن رومانسيتها غريبة عنها ، لا وجود في عالم الباغافادجيتا لشيء يشبه تتويج نابوليون امبراطوراً ولا لمدافع السفينة « أوروزا » وهي تبحث بأناملها الغليظة عن مرمى قصر الشتاء . وحياة نهرو لا تناسب الألبومات كثيراً . لقد ارتبطت الأسطورة بغاندي من يوم الزحف إلى الملح ، حتى يوم اغتياله . لكنها أسطورة تبدو نائية بعيدة تكتنفها ظلال من بطء الهند وأحلام الهند ورقعتها الشاسعة . أسطورة لا تحضر جموعها إلى الحياة مثلما جماهير ثورة أكتوبر ، ولكن مثل النجوم في ليلة هندية . ورأيت في كل مكان صورة غاندي ، وكان نهرو ينتقل من جماعة إلى أخرى . لم يبق من كل ما صنعاه ، غير ملحمة عميقة ، مبهمة . لقد عاش خمسة مليون من البشر تحت

قانون أجنبي ، وفي جيل واحد ، استطاع العمل المعنوي الذي اضطلع به بعض الرجال أن يحررهم ، لا بسلسلة من المعارك المتتابعة ، ولكن بموكب من الرموز المتتالية تضيع منذ الآن في غمرة الاستقلال ، غير أن الوعي الذي منحته هذه الجموع ، والثبات والعزم اللذين أعطيتهما ، كانت تحيط نهرو مثلما تحيط المقبرة الشاسعة بأضرحة الفاتحين . ومن ناحية أخرى ، تبين لي من أحاديث الهيئة الدبلوماسية أن ليس هناك شيء انتهى أمره . عندما سألت نهرو عن أي شيء كان هو الأصعب في نظره ، جاءني الرد سريعاً جداً ، وكأنه يريد أن يستبعد رداً آخر ـ لا بد ان يكون : باكستان لا لأنه يخشى وقوع هجوم باكستاني كما توحي ذلك الصحافة الغربية ، ولكن لأن التقسيم يهدد اللاعنف أكثر مما هددته انكلترا . لقد سبق لغاندي ان أعلن : « اني أكافح ضد ثلاثة خصوم : الانكليز والهنود وذات نفسي » . ولم يكن يتوقع النصر النهائي إلا من تطهير الهند . دعوة لا انتهاء لها ، ومطاردة القتل والجريمة من قرية إلى قرية ، وبيوت الهندوس تحرق . ومنازل المسلمين تنهب ، والسيخ ينتظرون القطارات المحملة باللاجئين المسلمين في محطة أمريتسار وسيوفهم في أحجارهم ، كما كان المسلمون ينتظرون اللاجئين الهندوس في محطات البنغال ، « موعظة الجبل » يلقيها في أعداد وأعداد من القتل حتى يسجى جثمانه يوماً فوق كوم الحطب . قبل ساعات قال لي نهرو قبل أن يتحدث عن « السنوات الأفضل » : « على الهند الآن ان تكافح ضد نفسها . . . » خليفة النبي العجوز الضاحك يصنع الهند ، وظهره

إلى شياطين الدم ، كما أراه الآن وظهره إلى المدخنة الحمراء . ان ما أطلق عليه غاندي « رقصة الهند الجنائزية » ، تتبعه الآن مغامرة كبرى للانسانية تحاول وهي تتحسس الطريق ، أن تبني أمة من أربعمئة مليون نسمة على أساس إيمانها بالنصر الحتمي للمغفرة والرحمة .

●

واتجه المدعوون إلى المائدة بين صفين من رماة البنغال . وبعد الرماح المنحنية ، رأيت طابوراً من الخدم ، لا يقل عددهم عن عدد المدعوين ، يرتدون سترات بيضاء ، وعمائم حمراء ، ويملأون قاعة الطعام التي ما زالت تغطي جدرانها صور ضخمة لنواب الملوك الانكليز . عندما هبطت من جناحي ، قدم لي عامل المصعد اليوم الاوتوغراف لأوقع عليه باسمي . فأخرجت فلم الأساتذة الكبار بحركة عريضة ، ولكني وقفت مشدوهاً فقد رأيت عشرة توقيعات ملكية أمامي . أما زال الملوك بهذا العدد العديد ؟ فصل من روايات بروست تتبعه أقصوصة من تأليف فولتير .

وساءلت نفسي أين ومتى شعرت من قبل بهذا الشعور الذي يتملكني الآن ، وكأني حيال مشهد سيزول المدعوون إليه عند الفجر . الجو جو الحكومات المؤقتة وأهواء القدر . لا أحس فيه شيئاً من احتلال الثورات المبرجزة للقصور الشهيرة ، ولكن لا أحس بالمثل شيئاً من حكومة للهند . وحتى إذا أبطأ الفجر في قدومه ، فسوف يأتي يوماً برجال طلوا وجوههم بالرماد الأبيض ، أو

بمحافل المشوقين يشهرون مشاعلهم .

كان نهرو يلقي خطاباً عادياً رداً على خطاب عادي ألقاه أحد وزراء الخارجية الاسكندنافية . ورحت أكرر : أين ومتى شعرت من قبل بأني أحضر مثل هذا المشهد المقضي عليه ؟ كان ذلك في مندو « بوهارنيه » الذي تستند واجهته أعمدة من عصر بونابارت على هيئة التماثيل النسائية ، بعدما أصبح الفندق مقراً لوزارة « التعاون » . وكان زعماء افريقيا الوسطى الذين حضروا لتسلم أعلام « المجموعة » ، يصعدون على بسطة السلم درجة درجة . وتمرح الجموع البرلمانية أمام أزيائهم المعتمة وأمام المداحين الذين يعنون بأمجاد قومهم . . .

●

بعد العشاء ، اصطحبني نهرو ، عن طريق سلم حلزونية ، مع بعض مدعويه الرئيسيين ، إلى مسرح صغير أقيم تحت الأرض . وتابعت الرقصات الكلاسيكية بينما كانت الاوركسترا تعزف « الموسيقى التي ينبغي أن تعزف ليلاً » . وبعدما جلسنا جميعاً ، مال نهرو وقال : « كان السجن بالنسبة إليك حدثاً عارضاً ، وكان بالنسبة إلينا ، غاية . وكلما قبض على واحد منا ، كان غاندي يبرق إليه تهنئاته» . وفي تلك الأيام ، كان يقول : « تطلب الحرية بين جدران السجون وأحياناً فوق أعواد المشانق ولا تطلب أبداً في المجالس والمحاكم والمدارس » .

وكانت الشخوص العريقة تمد حركاتها المتماوجة على أنغام

حتين لا يُحد بزمن .

●

وعندما انتهت الرقصات ، تركنا في الكابيتول وعاد إلى منزله .

٦

١٩٤٤ / ١٩٦٥

قال غاندي وقال نهرو « اطلب الحرية بين جدران السجون » . وأنا لم أنزل سجوناً بمعنى الكلمة أو لم يطل عهدي بها . لقد أدخلت المعتقل عام ١٩٤٠ ، فسرعان ما تيسر لي سبيل الهرب رغم حذائي الضيق . كان مرجاً واسعاً ضربوا نطاقاً حوله . تيران وردية في ساعة الفجر ، وعربات فوق الطريق وراء الأسلاك الشائكة ، وعلب الطعام المحفوظ ملطخة بالدم ، وأكواخ بابلية صنعت من أعمدة قصيرة ومن مواسير المصارف ومن فروع الشجر ، فيها جنود يحررون رسائل لن ترسل ، وقد انكمشوا في جلستهم مثل مومياءات بيرو .

أما عام ١٩٤٤ ، فقد كان الأمر أشد خطورة . ان رفاقي الذين قبضت عليهم الشرطة الالمانية (رجال الغستابو في أغلب الأحيان) قد سلكوا إلى الموت النهج الذي نعرفه ، بينما كنت أرتدي سترتي الرسمية عندما قبضت عليّ دبابات فرقة الرايخ .

في حقل من الحقول بدأت سجوني . ساعة أفقت فألفيت نفسي في نقالة مدت فوق الأعشاب ، أمسك بها جنديان المانيان . وعطشت بالدماء من تحت ساقي . وقد أعمل فوق سروالي ضماد كيفما كان . اختفى جثمان الضابط الانكليزي . وفي العربة

جسدان بلا حراك هما زميلاي . أحد الألمان ينتزع العلم . اتجه اللذان يحملانني نحو « غرامات » بدا لي ان المدينة متبعدة بعض الشيء . الى جانب النقالة ملازم يصطحبني .

كنت قد ذهبت لأحكم في نزاع قام بين فريقين من منظمات المقاومة (فريق من « البوكماستر » وفريق من « الرماة الأحرار والأنصار ») . وعند العودة ـ قبيل الحادث بعشرين دقيقة ـ نال منا النعاس ونحن نقترب من غرامات ، وصليب اللورين على بيرق السيارة يخفق في الريح الساخنة . طلقات كأني لم أتيقن من سماعها . ثم انفجر الزجاج الخلفي وغاصت السيارة في الحفرة بعدما انقلبت رأساً على عقب ومات السائق برصاصة في رأسه فارتمت قدمه على الفرامل بعنف شديد . وسقط الحارس فوق السلاح . الضابط الانكليزي قفز الى الطريق من جهة اليمين ، وسقط وقد تشنجت على بطنه يداه المخضبتان بالدم . وقفزت الى اليسار وركضت وقد تخدرت قدماي من ثلاث ساعات قضيتها في السيارة . اتضحت في مسمعي رماية مدفع رشاش ، يطلق من سيارة أخرى تحميني منها سيارتنا . أصابتني رصاصة قطعت رباط الساق في ركبتي اليمنى . على أن أتوقف . رصاصة في الساق اليمنى . ألم خفيف جداً . لا أستدل على اصابتي إلا من الدم . التواء فظيع في الساق اليسرى .

هذان اللذان يحملانني مثل الصرة الملفوفة ، لا يبدو عليهما الشر بتاتاً . سوف يأتي غيرهما . هو شيء لا يعقل أبداً ـ كيف تمكن الألمان من الوصول الى غرامات ؟

الله يعلم كيف ينتهي الأمر بعد هذا الطريق ، وسماء تموز المشرقة من فوقه كأنها تريد الاقامة في الأبد ، وهؤلاء الفلاحون ينظرون إليّ وقدْ تشابكت أيديهم على ظهر الفؤوس ، والفلاحات يرسمن علامة الصليب كأنها سلام جنائزي . . . قد لا أرى يوم انتصارنا . فما معنى هذه الحياة ، وأي معنى يكون لها أبداً ؟ غير اني أتوق بفضول فاجع إلى معرفة ما ينتظرني .

ـ طالعني منذ البيوت الأولى صف من الدبابات تملأ الشارع . والفرنسيون ينظرون إليّ بقلق والألمان بدهشة . دخل بي الحمالان الى مكتب في كاراج . استفهم أحد الملازمين من الضابط الذي يصطحبني . ثم سألني عن أوراقي .

كانت في جيب سترتي ، فلم يشق عليّ أن أخرجها . ومددت اليه المحفظة وأنا أقول :

ـ انها أوراق زائفة .

ترجم كلامي دون أن يأخذ المحفظة . كان منظر الملازمين منظر فرختين تقفان أمام الفونوغراف . عاود الحمالان السير . ودخلنا هذه المرة في جرن صغير . ونصبت النقالة على أرجلها المفصلة . وخرج الألمان وأدير المفتاح في القفل . أبصرت أمام الطاقة الضيقة جندياً يتولى الحراسة . حاولت الجلوس على النقالة . ان ساقي اليسرى لتكاد تؤلمني . أحس بخمول شديد وخبل . لا بد أني فقدت كثيراً من الدم فما زال يسيل برغم المناديل التي ربطت حول فخذي .

رأيت طيف الحارس وهو يقدم السلاح ، ودار المفتاح ودخل

ضابط يشبه باستر كيتون :

- أية خسارة لعائلتك المسكينة ! انت كاثوليكي ، أليس كذلك ؟

- أجل .

لم يكن الوقت مناسباً لعرض في فلسفة اللاأدرية .

- أنا الكاهن الكاثوليكي .

ونظر الى المناديل الدامية وقال :

- أية خسارة لعائلتك المسكينة !

- لم يكن طريق الجلجلة بالشيء اللذيذ على قلب عائلة المسيح يا أبي . صحيح اني لست المسيح .

نظر إليّ وهو أشد خبلاً مني . خباني الارهاق وخبله البله .

سألني :

- هل لك أبناء ؟

- للأسف . هل أحاكم أم لا ؟

- لا أدري . لكنك تستطيع أن تستدعيني إذا احتجت الى نجدة الدين .

وفتح الباب . ولاح منه شبح أسود تماماً على سياه لا يزال فيها الق ، وقال كمن يريد الاستئذان :

- على كل حال فهي خسارة كبيرة لعائلتك المسكينة .

أما أنه كاهن عجيب لو أنها ديانة عجيبة . لو كان كاهناً زائفاً لألقى عليّ بعض الأسئلة على الأقل .

جاءني صف ضابط آمراً بالخروج باشارة من يده . وكان

الفناء مليئاً بالعساكر . واستطعت أن أسير بضع خطوات . أدار وجهي إلى الحائط ورفع يدي فوق رأسي وأسندها الى الحجارة . وسمعت أمراً يصدر بالألمانية ، أحتويع ؛ (انتباه) فاستدرت . كنت أمام طابور الاعدام .

- كتفاً سلاح !

تذكرت أن السلاح يرفع قبل الاعدام وتبادر الى ذهني حلم أبصرته حديثاً : كنت في قمرة باخرة ، وطار زجاج الكوة فتدفقت منها المياه ، ورأيت حياتي قد انقضت ولا مناص ، وعلمت انها لن تكون غير ما كانت ، فانفجرت في ضحكة لا تريد أن تنتهي (مات أخي رولان بعد ذلك بوقت قصير في حادثة غرق ، الكاب - أركونا) وقد إشرفت مراراً على الموت العنيف .

- تصويب !

نظرت الى الرؤوس المنحنية على خط التصويب .

- استرح!

تأبط الجنود بنادقهم ومضوا وهم يتمايلون بضحكة آسفة . لماذا لم يطلقوا النار من حولي ؟ ولم يكن في اطلاقها خطر على الآخرين ، فقد كنت واقفاً أمام الحائط . فلماذا لم أعتقد حقاً بوقوع الموت ؟ لقد رأيت الموت أشد تهديداً لحياتي على الطريق الى غرامات . وأما هنا فلما أحسست بالشعور (الذي أعرفه خير المعرفة) بأنني موشك أن يرديني الرصاص ، ولا أحسست بشعور الانفصال العاجل عن الحياة .

سألني سانت أكروبيري في ما مضى عن رأيي في الشجاعة

فاجبته بأني احالها نتاجاً غريباً وعادياً لاحساس الانسان بأنه محجب . ووافقني سانت اكزوبيري وإن لم تكن موافقته خالية من الدهشة . والتمثيلية التي حضرت فصولها لم تنل من هذا الاحساس في نفسي . أعوزتها الحالة التي تحكم الموت والجو الذي يسود طقوسه ؟ أو ربما كنا لا نوقن بالموت الا اذا رأينا رفيقاً يسقط الى جانبنا ؟ عدت الى السجن وقد بدأت آلفه . ورقدت من جديد . دخل ضابط وجنديان أمسكا بالنقالة وخرجنا . ملازم ثان ، ليس من شباب الضباط ، فقد تجاوز سن الأربعين . منتصب القوام ، فارع ، أحمر الشعر ، خشن . حليق . تقدم النقالة بعد قليل فلم أعد أرى منه غير ظهره .

ذهبنا الى العيادة . حدجتني الممرضة بنظرة حاقدة . أما الطبيب والممرضون الذين عاشوا ورأوا ، فقد بذلوا عنايتهم في تضميد جراحي . ومضيت في النقالة من جديد . ونزلنا إلى قبو . كنت أعرف في ما تستخدم الأقبية ، وأذكر قول داميان : «سيكون اليوم عصيباً» .

كلا . فقد صعدنا من جديد ، وسرنا ما يقرب من الكيلومتر ، وليست عمارات بالمدينة الكبيرة . الدبابات في كل مكان . والسكان أمام النقالة ، يهربون . بلغنا قرية منتحية ودخلنا الكرار . زحافة وجرافات ومدار خشبية . لقد رأيت في معارك ١٩٤١ أمثال هذا الكرار الذي يبدو كأنه من صنع الأزل . ولكنني لم أتبين حينذاك الى أي حد تبدو هذه الأدوات (والزحافة بالذات) عدة للتعذيب . وانطلق الموكب من جديد وتوقف مرة بعد أخرى في مكانين مشابهين .

وانتابني شعور بأني في رحلة تبحث عن ديكور للتعذيب . ولم أعد أرى الجنود فلا بد أنه تم تجميعهم . العزلة مدينة تسكنها الدبابات النائمة ومنازل افترشتها مدار وزحافات تصلح لتعليق الجثث . بعد خمس دقائق توقف الحمالان أمام « فندق فرنسا » وقال الملازم :

- كومندانتور .

كان للمقاومة في هذا المكان صندوق بريد . . . لقد قام الألمان باخلاء المكتب . وجلست صاحبة الفندق عند خزانتها . شعر أبيض وملامح متناسقة وياقة مشدودة : مديرة بنسيون . لقد رأيتها قبل ذلك مرتين .

والقى الألماني بسؤاله :

- هل تعرفينه ؟

اجابت منصرفة ولم تكد تنظر إليّ :

- أنا ؟ لا

سألني :

- وأنت ؟

- رجال المقاومة لا ينزلون في الفنادق للاسف !

لم يكن يفصل المكتب عن البهو الصغير غير باب بمصراعيه اللذين يرتفعان عن الأرض .

جلس الملازم خلف المكتب . وضعوني على البلاط الأسود والأبيض رفع دون مساند النقالة . ودخل جندي يحمل لفة في يده ، وتفحصني بفضول أكثر منه بعداء ، ثم جلس الى يسار الضابط . الشارع ضيق وقد أضيء منذ هذه الساعة بنور الكهرباء . الكاتب امتد جبينه وذقنه مثل قرن الفاصوليا . والمحقق استطلع أنفه الهواء واستدار فمه الصغير مثل العصفور الدوري . ليس فيه من الألمان

غير شعره الأحمر قص مثل الفرشاة وجز من حول أذنيه المنفصلتين . وقد ترفه كلاهما في جلسته .

ـ أوراقك ؟

قمت وتقدمت خطوة وناولته محفظتي . ثم استلقيت من جديد وكنت مشرفا على الأغماء . ولكنني ما زلت في وعيي ، فقد بدأت الجولة .

ـ قلت لزميلك إن هذه الأوراق زائفة .

كان يتأملها بامعان . بطاقة شخصية وتصريح بالمرور وما الى ذلك من الترهات باسم "برجيه" . وورقة من فئة الألف فرنك . وصورة فوتوغرافية لزوجتي وابني . صنع منها كوما صغيراً وضعها الى جانب المحفظة .

ـ هل تتكلم الألمانية ؟

ـ كلا

ـ إسمك وصفتك ؟

ـ الليوتنان ـ كولونيل أندري مالرو ، المسمى بالكولونيل برجيه . أنا القائد العسكري لهذه المنطقة .

نظر متحدياً الى سترتي الخالية من الشرائط . أية حيكة كان ينتظر ؟ لقد أسروني وأنا في سيارة تحمل علماً مثلث الألوان عليه صليب اللورين .

ـ من أي تنظيم ؟

ـ ديغول .

ـ لديكم . . . أسرى ، أليس كذلك ؟

كان يتحدث بلهجة أهل الشمال ، ألمانية خشنة ، وليست

نمسوية أصلا . وعلى إستجوابه صفة الوعيد ولكن ليس فيه روح العدوان .

ـ نحو مائة من الأسرى ، في الوحدة التي تتبعني مباشرة .

أية لعبة غريبة يلعبها القدر ! كان العرف يقضي ، ولا أعرف لماذا ، بأن يحاكم أسرى المقاومة أمام مجالس حربية . وقد حضرت مثل هذه المحاكمة وقد نصب قادة المقاومة من أنفسهم قضاة . وسمعت مرافعة الاتهام وكانت مقبولة لأن الحقد يشبه الحقد دائماً ، ثم تمثيلية دفاع يلقيها كاتب من كتبة المحاكم يشبع فيها رغبة عشر سنين في تأدية دور المحامي . وكان ذلك في قاعة واطئة رطبة في قصر في مقاطعة لوث ، ومن الخارج يأتينا صياح الماعز في جو شديد الحرارة وبين زهور صفراء . . . وقد سلمت بالأمس العشرة التي كنت أرتديها ، لكي ارئس مجلساً حربياً . وكنا قد حررنا زهاء العشرين من أبناء الألزاس . وكان الالزاسيون كثرة في صفوف الفرق التي تحاربنا وفي صفوف المقاومة . وقد أنشىء منهم في ما بعد لواء الألزاس لورين . وقد اقترح أحد الملازمين من ضباطنا ، وكان يعمل مدرساً في منطقة كولمار ، أن يتولى الدفاع عن الألمان ، وقال باللغة الفرنسية ، ثم بالألمانية : «ليس بين هؤلاء من ينتمي الى فرق العاصفة أو الى الغستابو . فهم جنود ولا يمكن أن نعدم جنوداً لأنهم جندوا للحرب ونفذوا الأوامر التي ألقيت عليهم» . وكان رجالنا كثيرين في آخر القاعة ، وكنت أحس بقلق أبناء الألزاسيين . ثم قرر أن نسلم الأسرى لأول وحدة من الحلفاء نلحق بها .

- كيف يعاملون ؟

وضع كاتب الاختزال قلمه .

- يقضون وقتهم في اللعب ويطعمون مثل رجلنا . لقد إنتهت الحرب بالنسبة اليهم .

كان يتساءل هل أنا أسخر منه ، دون أن يأخذ بهذا الظن . قلت :

- كانوا يتوقعون وحوشاً في ثياب مهلهلة ، فوقعوا على جنود في كسوة عسكرية .

- مظليون ؟

- بل جنود المقاومة الفرنسيون .

- أين هم ؟

- من ؟ الأسرى ؟

- الأمر سواء !

- رجال المقاومة أكثر من الأسرى على كل حال .

- أين هم ؟

- لا أعرف شيئاً لحسن الحظ . ولكن واضحين . لقد كانوا في غابات سيوراك . ومنذ ساعتين على الأقل ورجالي يعلمون أني وقعت في أيديكم . ومنذ ساعة ونصف الساعة تولى خليفتي القيادة . وهو حائز شهادة الامتياز من كلية أركان الحرب . ففي الوقت الحالي لم يبق في المعسكر أحد من جنودكم أو من رجالنا .

أطرق ثم قال :

- ما هي مهنتك في الحياة المدنية ؟

- أستاذ وكاتب . وقد ألقيت بعض الأحاديث في جامعاتكم . في ماربرغ وليبزيغ وبرلين .

الأستاذية لقب وقور .

- أنت تعرف الألمانية بالتأكيد . ولكن لا أهمية لذلك .

- كتابي الأول «الأمل» ، ترجمة ماكس كلاوس .

لقد أصبح ماكس كلاوس نازياً . وكان يعمل وكيل وزارة في مكتب غوبلز أوشيئاً من هذا القبيل . وازدادت حيرة الرجل الذي يحقق معي . فبدأ يلعب لعبة القط والفأر . وبعد عشردقائق كنت أقول:

- يا سيدي الملازم ، أرانا نضيع الوقت سدى . انت في العادة تستجوب أسرى يزعمون انهم ابرياء ، أو هم ابرياء فعلا ، وعليك أن تحملهم على الاعتراف . وليس لديّ ما أعترف به : أنا عندكم منذ يوم الهدنة .

- ولكن الماريشال بيتان هو الذي وقع الهدنة .

- تماما ، فلست أنا الذي وقعها . تراني اذن من القناصين . ويمكنك لهذا أن تحكم بإعدامي - بعد أن تزن عواقب الأمور . أما اذا أردت أن تعرف الباقي فان مساعدي كان يقود الفرقة في مراكش وأنا كنت أقود . . . في مكان آخر . وليست حرب العصابات حرفتنا . وليس لنا موضع واحد للهبوط . ولا اتصالات الا على المسالك المكشوفة يغطيها أربعة من الراصدين . والقوات الألمانية لم تأسر واحداً من جنودي اطلاقاً .

وما وجودي هنا الا لأنكم قمتم بحركة بارعة جدا واني ألقيت نفسي مثل الأحمق تحت نيران رشاشاتكم . ولكنكم بالقبض عليّ

قد أطلقتم جهاز الانذار . فتم اخلاء كل المواقع المركزية الى مسافة مئة كيلو متر . واذا أردت أن تعرف مدى انتشار قواتنا وتعرف بالمثل الطريقة التي يعامل بها الأسرى ـ فما عليك الا أن تستدعي الميليشيا . ويمكنك أن تأمر بتعذيب جنودي اذا قبضت على بعضهم ، دون أن تنال منهم شيئاً . لأنهم لا يعرفون شيئاً . فان تنظيمنا كله يقوم على أنه ليس في إمكان أي كان من البشر أن يعلم كيف يكون تصرفة عندما يواجه التعذيب .

ـ ان الفيرماخت [1] لا تعذب .

ـ وفوق ذلك فان وحدة مثل وحدتكم لديها ما يشغلها اذا اجتمعت كل الفرقة .

وسألني عن الأماكن القديمة لمواقعنا المركزية . وذكرت له قصوراً هجرها المتعاونون ، وباحات في الغابة قد يجد فيها بعض المسالك وآثار نيران . لا حديث عن أشجار السنديان الفزم التي يظنها الألمان غير صالحة للاستخدام . أما عن حقيقة الشخصيات القيادية في عصابات المقاومة الأخرى فإن الغستابو والميليشيا يعرفان أسماءهم الحربية مثلي ، وأما أسماؤهم الحقيقية ، فلا أزيد معرفة عنها (بأسماء بعضهم على الأقل . . .) ولا شك أن الملازم قد تلقى أمراً بمعاملتي معاملة أسرى الحرب ، ولكن هذا كله ليس بالطبع إلا بداية . وتكلمنا في شؤون المقاومة .

---

(١) قوات الدفاع الوطني .

وضحمت من عدد قواتنا . وأوشكت الجلسة أن تنقلب الى حديث يتجاذبنا .

ومضى الألمان عني ، ربما ذهبنا لتناول العشاء ؟ على الجانب الآخر من الباب جندي يتولى حراستي . أراه الى ارتفاع الساقط فقط . وكثيراً ما يمر الألماني بالبهو الصغير فيقف ليثرثر معهم . كنت أريد التفكير . لكنني عبأت قواي كلها لمواجهة التحقيق ، فغشيني الأرهاق ونمت بوطأته .

في التاسعة مساء (كان فوق المكتب ساعة حائط ضخمة سوداء) وصل الماليان آخران ومعهما أوراق لابد أنها تحتوي على ملخص لاستجوابي . ألقيا عليّ الأسئلة التي ألقيت من قبل . ورددت عليها بالاجابات نفسها . هل كان ذلك لمراجعة أقوالي ؟ لا يهم . ذهب الألمانيان .

وبعد ثلاثة أرباع الساعة ، إقترب مني وقع جزمات . وفتح الباب على مهل وكان في العادة يدفع دفعاً . ودخل ضابط برتبة عقيد وجلس خلف المكتب . وليس معه سكرتير . هو يشبه الذين سقوه . كلا . ما تبادر ذلك الى ذهني الا لأني لم أتعود أن أرى البشر من أسفل الى أعلى . ولكن شعره كان أبيض .

سألني :

ـ ما الذي تأمل فيه ؟

ـ من أعمالنا العسكرية . . . أم من قدري ومصيري ؟

ـ من أعمالكم .

ـ أعاقتكم ، بالطبع .

اطرق برأسه كأنه يصدق على كلامي أو كأنه يريد أن يقول : هذا ما كنت أظنه .

ـ علام ترتكبون أعمال التخريب وفي إمكاننا إصلاحها بسرعة ؟

ـ هذه هي الخطة .

(وكان أيضاً لأننا لا نستطيع أحياناً أن نفعل خيراً من ذلك) .

ـ ألم تشترك في الحرب الأولى ؟

ـ كنت صغيراً . بطاقة شخصيتي مزيفة ولكن تاريخ الميلاد صحيح : ١٩٠١ .

ـ وحاربت في هذه ؟

ـ أجل .

ـ في أي سلاح ؟

ـ الدبابات .

(وأية دبابات! هذا شيء لا يعنيه . كنت احسده على دباباته ، أمس كان ينظر إلى أوراقي لاهياً عنها ، كأنما يريد أن يشغل يديه بشيء ما .

ـ هل لديكم أسلحة مضادة للدبابات ؟

ـ نعم .

لايمكن أن يجهل الغستابو أن لندن تلقي الينا مدافع البازوكا بالمظلات منذ شهروأكثر . فهو شيء يعلمه ، أو يخشاه اذا أردنا الدقة .

فالدبابات في الغابة لا تتأتى لها التغطية إلا عن طريق المشاة . وكانت الفرق المصفحة الألمانية مزودة بمشاة محملين ولكن إذا بقي المشاة في الشاحنات فهم لا يحملون الدبابات ضد مدافع البازوكا . وإذا انتشروا لحماية الدبابات على جانبي الطريق ، لم يعد في إمكانها أن تسير بأسرع من خطوة القدم . ولم يكن يبدو عليه دهشة ولا اهتمام . يبدو عليه الفضول بالأحرى . هل أراد أن يرى ضابطاً يرى فيه خفايا المقاومة التي تحيط به ؟ أمهويعاودالتقاء بالجيش الفرنسي «وبروز وس الخنازير» أثناء فردان ؟

رتب الأوراق الى جانب المحفظة . ثم نهض ولف من حول المكتب ، فمر أمامي وتناول محفظتي وأعادها إليّ . تأكدت من اللمسة الأولى أنها لم تعد فارغة . ودق الحارس كعبيه في الخارج . كان الضابط الألماني قد أعاد الى جيب محفظتي صورة زوجتي وابني .

●

لم يخلفه أحد . فهل انتهينا لهذه الليلة ؟ النوم يطفو على الفندق . والمصباح الكهربائي لا يزال مضاء في المكتب . ظننت اني لن أنام . أخطأت . غلبني النعاس كبعض أيامي في اسبانيا عندما كنا نتبع معارك الطائرات بوجبة غذاء . ورحت نائماً طينة مثلما يقال سكران طينة .

الشروق . والنهار . بدأت الأبواب تخفق في الطبقات العليا ، وأبواب الدور الأرضي تروح وتجيء . صوت مياه . عاد الملازم ذوالرأس الفرشاة. وجلس خلف المكتب من دون أن يقول شيئاً . كثرت الجزم فوق الدرج . تبينت الهمهمة التي تسري في الفنادق والعنابر وتسري على الأخص في ساعات الرحيل . لماذا تبدو اللغة الألمانية عندما يتصايحون بها كأنها تعبر دائماً عن الغضب ؟ كانت الأصوات تتلاقى وتتشبك .

- هل عندك زبدة يا مدام ؟

- لا .

- عندك شوكولاته ؟

- لا .

- عندك خبز يا مدام ؟

- بالبطاقات !

ثم لا يعودون الى الطلب . لاشك أن صاحبة الفندق تركت خزانتها . فترة تمضي . أسمع وقع الجزمات صاعداً رنين القروان . ثم جاءتني من الطبقات العليا همهمة غريبة ، تزايدت وهي تدنو ، همهمة الأطفال عندما تكشف أمامهم شجرة عيد الميلاد . وفتح الباب ، أزاحت ما بين مصراعيه صينيةعليها طاسة قهوة بالحليب ما زال دخانهايتصاعد،وشرائح كبيرة من الخبز الأبيض مدهونة بالزبدة. تحملهاصاحبة الفندق. هي قد أجلت زينة رأسهاالشائبة، وارتدت كأنها ذاهبة الى الكنيسة فستاناً أسود ، ولأنها قادمة من المطبخ مريولاً أبيض . نظرت الى رفع البلاط ملطخة بالدماء

(نزفت جراحي في الليلة الماضية) فأقبلت نحوي وركعت : ثنت الى الأرض ركبة ثم أخرى . ليس من السهل على امرأة مسنة أن تركع وهي تحمل صينية . نهضت بعد أن وضعتها على صدري ، واتجهت الى الباب ، وهناك التفتت - وفي موضع الركبة ، بقعتان كبيرتان قانيتان على المريول الأبيض - ومثلما كانت تقول من أربعين سنة مضت ، عندما تزجر بعض أبنائها : « سيسعدني ألا تمد يدك الى شطائر اخوتك » ، قالت ولكنها أكسبت هذه المرة لهجتها شيئاً من الجلال لا يكاد يبين .

- هذا للضابط الفرنسي الجريح .

وانصرفت . وكنت أسمع الجزمات تفسح لها الطريق .

كان الملازم يتأملني وقد فغر منقاره . انتزاع الشطائر من رجل جريح فعل هزء . ولكن الأمر مثير من كل نواحيه .

قلت له :

- فلنتقاسم .

نهض من مكانه وخرج . وعاد بكوب . وتناول احدى شطائري ووضعها على المكتب . وتناول الطاسة ليصب منها نصف القهوة والحليب في كوبه . لسعت يده ، وضع الكوب على المكتب وتناول الطاسة بمنديله وصب وهو معني بحساب النصيبين . وأعاد الطاسة . وعلى الدم السائل فوق البلاط الأبيض ، اصبحت الآن اثار نعال كبيرة تتجه الى المكتب ، وأخرى صغيرة .

فمنا زهاء الساعة الثامنة ومضينا . وكانت صاحبة الفندق قد عادت .

- أشكرك يا سيدتي . لقد كنت رائعة منذ حين . كنت تشبهين فرنسا .

توقفت عن الكتابة . لقد ظل وجهها بلا حراك ، وتبعتني نظرتها حتى أغلق باب الفندق من جديد .

بعد اقتيادي الى العيادة ، وتضميد جراحي ، حاولت الوقوف والسير بضع خطوات . بلا جدوى . دسوني في سيارة نقل مصفحة ، ربما كانت عربة الاسعاف . في مؤخرتها باب مزدوج مغلق من الخارج . كان فيها أربعة قطاعات ولكنني كنت وحيدا ، ممدداً على ظهري أرى المناظر وهي تفر من شبكة النافذة الصغيرة المثقوبة في الباب ، وصفا متتاليا من الشاحنات . هل يهاجمنا رجال المقاومة ؟ لا أعتقد ، لان المنطقة ، وكانت جبلية الى حد ما ، خالية من الأشجار ، وليس هناك في ما أعلم ، وحدات مقاومة مهمة قبل الغارون . لا بد أن الفرقة المدرعة تقوم بحملة تأديبية . فقد شاهدت فوق الطريق ومنحنيات النهر قرانا وهي تحترق تحت خيط طويل من الدخان ، منحرف في الهواء .

أصبح من حقي أن أنزل كلما وقف الطابور .

وفي فبجاك (التي كان يسكنها روجيه مارتان دوغار . . .) حمل إليّ أحد الفلاحين عصا واختفى .

تقول لي كل عين فرنسية أقابلها : أنت مقضيّ عليك . ولم يكن ذلك اعتقادي حتى الساعة على الأقل . كنت أفترض أنني مساق إلى إستجواب جديد او الى المحاكمة . على أنه يتحتم أن يحدث شيء ما .

في فيلفرانش دورويرغ ، عرفت من الوهلة الأولى كنيستها التي يقترب بناؤها من الكنائس الأسبانية ، والتي استفدت منها ديكوراً لبعض المشاهد في رواية «الأمل» . وتوقف الطابور هناك لتمضية الليل . وأنزلت في الدير . وما أن رقدت على فراشي حتى جاءتني رئيسة الراهبات بالقهوة . جميلة لم تتجاوز سن الأربعين . إبتسمت وهي عابرة للجندي الذي يتولى حراستي ، بسمة لا نفاذ اليها .

لقد تساءلت أحياناً عن الانجيل وما يصبح من شأنه أمام الموت .

- يا أمي ، هل يمكنك أن تعيريني أنجيل يوحنا ؟

- طبعاً !

وجاءتني بنسخة من الكتاب المقدس وذهبت . أردت البحث عن إنجيل يوحنا ، لكن الكتاب إنفتح حيث وضعت هي الشريط . كان في الامكان أن ألقى مصرعي أكثر من مرة في آسيا وفي إسبانيا وفي بلادنا . أنا لا أسأل هل كان في الامكان أن أظل في حال من لي بدلا من إنتظار المحاكمة أمام مجلس حربي أو الاعدام رمياً بالرصاص على شفا حفرة من الأرض ، فهي فكرة أتفه من أن تعطر . حتى في هذه الليلة ، كانت التهلكة تبدو لي شيئاً غير ذي بال . أما ما يستحوذ على اهتمامي ، فهو الموت .

لم أصادف القديس يوحنا أمام الموت . لقد التقيته في أفسوس وبالذات في العالم البيزنطي والسلافي الذي يجل ضريحه تبجيلا يضاهي به قبر المسيح . وحفظت ذاكرتي من خلاله صورة أسوأ على جانب من التعقيد : صورة مقنعة وقريبة مثل القديس

فرانسوا الأسيزي . ولم يكن ذلك الا من بين شغاف النص الذي يشير فيه يوحنا الى نفسه بقوله : « التلميذ الذي كان يسوع يحبه » . وكنت أذكر تجار الحمام الذين طردهم من المعبد ، وأذكر بعض الفقرات التي تجعل من الانجيل ترنيماً مرتلا : « لأن ساعته لم تكن قد جاءت بعد » و « ألعل شيطاناً يقدر أن يفتح أعين العميان ؟ »وأذكر نبرة الليل في قوله « ابتاه ، أبعد عني هذه الكأس » ، وفي الكلمات التي توجه بها الى يهوذا : « ماأنت تعمله بأكثر سرعة» . كنت أذكر قصة المرأة الزانية التي تروي كثيراً على أنها حكم ، بينما المسيح لا يلتفت الى المدعين ولا يلتفت الى المرأة ، ويقول : « من كان منكم بلاخطيئة . . . »وهولايزال يكتب على الأرض . وعثرت من جديدعلى قول الانجيل : «لأنه هكذاأحب الله العالم حتى بذل ابنه الوحيدلكي لا يهلك كل من يؤمن به بل تكون له الحياة الأبدية . لأنه لم يرسل الله ابنه الى العالم ليدين العالم بل ليخلص به العالم» . أنا لم أصدق طابور الاعدام الهزلي الذي وقفت أمامه في غرامات ، ولكن لا شك أني قد ألتقي قريباً بطابور لا يهزل . وكان من الممكن فوق الطريق أن تصيبني الطلقات في رأسي مثلما أصابت السائق ، بدلا من أن أتلقاها في ساقي . أحسست إحساسا قوياً بأن كل إيمان يذيب الحياة في الأبدي والسرمدي وأنا منها مبتور . لقد كانت حياتي من المغامرات البشرية التي يصفها شكسبير بالأحلام كي يبرر وجودها ، وليس هي بالأحلام . قدر يختتم مصيره أمام عشر بنادق ، بين مصائر أخرى كثيرة ، تزول وتمر مرور الأرض . إن جزءاً لا قيمة له من ذاتي ، لشديد الاهتمام بما سوف يقع بي ، كالرغبة في الافلات من

الماء ، عند الغرق . لكنني لا أطلب مغزى الدنيا من وثبات منقضة . إنما كانت العبقرية المسيحية في إعلانها بأن صراط أعمق الأسرار الخفية هو صراط المحبة . محبة لا تحد بعاطفة البشر . ولكن نسمو بها وتجلو منها روح العالم ، أقوى من الموت ، وأقوى من العدالة . « لأن اللهلم يرسل ابنه لكي يدين العالم ولكن ليخلصه» . لقد التقيت ، وأنا وحدي أمام الموت ، هذه النجدة المسعفة التي حدثت وأحاطت لمئات السنين بآنات اليائسين وحسراتهم ، عداد الصور التي سوف تدحرج في يوم الدين . « يا رب أعنا في سكرة الموت » . ولكن الايمان يقوم على التصديق . قد كنت معجباً بالمهمة المسيحية التي غطت هذه الأرض التي سأرقد قريباً فوقها ـ ولم أكن مصدقها . إن ذكرى القديس يوحنا تقوى على الشفاء أكثر مما يقوى وجوده على الموت . ترى في أي سفر شرقي قرأت : « يمتنع معنى العالم على الانسان ، مثل سير مركبات الملوك على العقارب التي تسحقها » ؟ وكانت الأمور من حولي تجري كأنما القيمة العليا عندي هي «الحقيقة» ـ ولكن ماذاكان يهمني من«الحقيقة»في هذه الليلة؟

ماضيّ وسيرة حياتي ، لم يكن لها أية أهمية . فأنا لا أفكر في طفولتي . ولا أفكر في أهلي . كنت أفكر في الفلاحات غير المؤمنات بحبس جراحي برسم الصليب ، وفي العصا التي جاءني بها الفلاح الحائف ، وفي قهوة فندق فرنسا وقهوة الأم الرئيسة . لم يبق في ذاكرتي إلاّ الأخوة . وطوال الساعات التي قضيتها في سكون الدير الذي تؤدي فيه الصلوات من أجلي ولا شك ، وتطرقه من بعيد مناوبة بعض الدبابات ، طوال هذه الساعات ، وحتى عندما

خطرت في بالي عقارب بابل ، كانت تعيش في صميم نفسي ، عميقة مثل اقتراب منيتي ، تلك اللمسة اليائسة التي تغمض بها الأيدي عيون الميتين .

●

كان اتجاهنا دوماً إلى الجنوب ونمر دوماً بقرى تحترق . وفي مدينة « ألبي » رقدت على أريكة في قاعة كبيرة لا بد انها كانت لدار العمدة . وجاءني الحارس المناوب ـ الذي لم يكن يتبع سلاح الدبابات ولكن سرية تعسكر في المدينة . وجلس الى جانبي وأخرج من جيبه صورتين ، فرأيت الماريشال بيتان ـ ولفرط دهشتي ـ الجنرال ديغول . وضع اصبعاً على بيتان وقال : « جيد جداً » . ثم انتقل إلى الجنرال ديغول وقال مستهجناً : « إرهابي ! » وتطلع إليّ فوجدني في انتظار البقية . رفع إصبعه كمن يريد أن يلفت الانتباه وقال « غداً » وأنزلها إلى ديغول : « يمكن : جيد جدًا ؟ » ثم الى بيتان : « إرهابي ؟ » وأتى بحركة تعني : من يعلم ؟ وهز كتفيه وعاد إلى حراسته .

في « ريفيل » أنزلت في الدور الأرضي من فيلا مهجورة ، فكان عندي حديقة صغيرة . وتمكنت من السير قليلاً وأنا أستند الى العصا . وفي وجبة العشاء (وكانوا يصرفون لي طعام الجنود ، كما يصرفونه لضباطهم ايضاً) طالعني الى جانب الطبق ، سيجارة وعود كبريت .

في اليوم التالي ، حضر ضابط وجنديان لاصطحابي .

وجلست في مؤخرة السيارة إلى جانب الضابط ، الذي عصب عيني منذ مغادرة البلدة . لم أشعر بخطر يتهددني بل احسست كأن في وجود العصابة حماية لي . وعندما انتزعها الضابط كنا ندخل في حديقة قصر أقرب إلى القبح . وأمام عتبة القصر وقفت خمس عشرة سيارة : هوذا المجلس الحربي .

لم تكن تمثيلية الاعدام مقنعة . أما هذا القطيع من السيارات فقد كان مقنعاً . وهذا القصر الأبله ـ هل هو آخر قصر أراه ؟ ـ قد ذلك الوجود الجم الذي يتميز به كل ما يمس المصير . قال لي والذي قبل أن ينتحر بأيام ، ان الموت يلهمه حباً شديداً للفضول والاستطلاع . وكنت أحس بالمثل ، لا بالنسبة إلى الموت ، ولكن بالنسبة إلى هذا المجلس الحربي . وربما كان ذلك لأنه الشيء الذي ما زال يفصل بيني وبين الموت . فوجيء حراسي بأني أسرع من خطاي فانقادوا عليها . وكانت أبواب النوافذ التي تطل على الدرج يشع على بهو في طرفه قاعة كبيرة فيها زهاء العشرين من الضباط راقصون « فأرات رمادية » .

لم يكن هنالك مجلس حربي ، ولكن حفلة راقصة . . . .

في الطبقة الأولى ، سرنا في دهليز طويل أوصلنا إلى باب مزدوج . دخل الضابط ، دق كعبيه ، أدى التحية الهتلرية ، وخرج . . . أغلق الباب الذي أقف أمامه . غرفة واسعة يأتيها الضوء من ثلاث نوافذ كبيرة مفتوحة على حديقة وبحيرة صغيرة . خلف مكتب من طراز لويس الخامس عشر ، يلمع فيه البرونز المذهب ، جلس جنرال . صليب حديدي مزخرف بأوراق

السنديان . جلس معاكساً لضوء النهار فلم أتبين وجهه تماماً . كان يلبس نظارة سوداء والضياء يبرق على شعره الشائب . اتجه إلى منضدة صغيرة تحيط بها مقاعد ، فجلس وأشار إليّ بالجلوس . على المنضدة ، علبة فضية . قدمها إليّ :

- شكراً . لم أعد أدخن .

أشعل سيجارة . ظهر لي في الضوء الفجائي ، قناع غريب ، يتلاشى من جديد في الضوء المعاكس .

- أريد أن أسمع منك لماذا لا تعترف بالهدنة . إن الماريشال بيتان جندي عظيم . هو بطل فردان كما تقولون . لقد انتزمت فرنسا . ولم تكن البادئين بإعلان الحرب عليكم .

- الأمم لا تلتزم بالموت ، عن طريق التفويض . اسمح لي أن أفترض فرضاً : أن يكون الماريشال فون هندنبرغ رئيساً للجمهورية الألمانية ، فينشب نزاع عالمي ، تهزم فيه ألمانيا كما هزمنا ، فيتعاقد الماريشال على الاستسلام . فيلقي الفوهرر (وهو ليس في هذه الحالة مستشاراً بالطبع) نداء من روما يدعو فيه المناضلين الألمان إلى مواصلة الحرب . من الذي يلزم ألمانيا ؟ ومع من تقفون ؟

- لماذا يقيم ديغول في لندن ؟

- قادة الدول في لندن ، ما خلا واحداً يقيم في فيشي . والجنرال ديغول لا يقود فرقة فرنسية تعمل في خدمة الحلفاء .

- فيم يفيد ما تفعلون ؟ وأنتم تعلمون جيداً أن كل مرة تقتلون فيها جندياً ، نعدم مقابله ثلاثة من الرهائن .

- كل من يعدم بالرصاص ، يأتي المقاومة بثلاثة جنود . ولكن وجهة نظري أن ليست هذه هي المسألة . وسوف أطلعك على رأيي ما دمت مهتماً به . هناك في صفوف المقاومة كل لون من الناس . . .

- وعلى الأخص الذين يخافون العمل الاجباري .

- فيها بالفعل أناس يرفضون أن يخدموا ألمانيا . ولكنك تعلم جيداً أن كل نضال يفترض روحاً تحركه . وأنتم لا تدركون روح نضالنا . تظنون أننا نقاتل لننتصر .

رفع رأسه . وكانت نظارته تخفي عينيه المندهشتين بلا شك .

- إن المتطوعين في القوات الفرنسية الحرة والمتطوعين في المقاومة ، لا يزيدون على حفنة أمام الويرماخت . ولهذا هم موجودون . لقد مثبت فرنسا عام ١٩٤٠ بهزيمة من أنكر الهزائم في تاريخها . والذين يقاتلون هم شهداء على بقاء فرنسا ، سواء انتصروا أو هزموا وأعدموا بالرصاص أو عذبوا .

- الويرماخت لا تعذب . ولكن أظن أني أفهمكم . وأرثي لحالكم إلى درجة ما . أنتم الديغوليون شيء يشبه فرق « العاصفة » عندنا . ستكونون أتعس الخلق . إذا قضي علينا في النهاية أن نخسر الحرب ، ستجدون محكومة من اليهود والماسونيين ، في خدمة انكلترا . ثم يبتلعها الشيوعيون .

- إذا خسرتم الحرب ، فاعتقادي أنه لن يحدث شيء مما تذكر أو يمكنك التنبؤ به . عام ١٩٢٠ ، كان العالم كله يظن أن

الأمر الحاسم في حرب ١٩١٤ هو انهيار القوة العسكرية الالمانية . ونعلم اليوم أن الأمر الحاسم كان هو الثورة الروسية . وقد يكون هذه المرة نهاية أوروبا بوصفها سيدة العالم . ولمدة عشرين عاماً ، أو خمسين ، ستسوء الحال بالنسبة إلى فرنسا ، وتسوء بالنسبة إلى المانيا . ثم تعود فرنسا من جديد ، وتعود المانيا ـ وربما عادت الحرب مرة أخرى . . .

قام فظننته متجهاً إلى مكتبه . لكنه راح يمشي بلا هدف وهو ينظر إلى السجاد . وأمام النافذة الوسطى انتقل وجهه إلى الضوء . وأدركت ما الذي أقلقني عندما اشتعل عود الكبريت : تحت النظارة وبقعتيها السوداوين ، كانت الوجنات عالية جداً تضفي على قناعه شكل الدمية المتحركة .

ـ هل ما قلته الآن عن المانيا يعبر حقاً عن رأيك فيها ؟

ـ سنصبح أخيراً أعداءكم من جديد . ولكن أياً كان مصير الحرب وأياً كانت الأنظمة الحاكمة ، فأنا لا أعرف كثيراً من المثقفين الفرنسيين على استعداد ألا يتقبلوا هولدرلين ونيتشه وباخ بل فاغنر . . .

ـ أنت تعرف روسيا السوفياتية ؟

ـ نعم . ان المانيا لا تنتزع من أوروبا .

ـ أرجوك أن تعيد ؟

ـ لا يمكن انتزاع المانيا من أوروبا ولا من العالم .

ـ سيحاولون . . . وحوش الشرق ولجار السيارات والأطعمة المحفوظة الذين لم يحسوا الحرب يوماً ، وانكلترا التي تسير وراء

سكيرها الشكسبيري . . .

وكان قد التفت نحوي والنظارات الملونة تحجب نظرة عينيه . كان هناك جنرالات ألمان يعدون للمؤامرة على هتلر . وكنت أجهل ذلك ، وربما كان هو لا يجهل .

ودق الجرس .

اجتاحت الأنغام الراقصة غرفتنا . وبدت من النافذة بحيرة صغيرة لأصحاب الزوارق ، تلوح من حولها الكبائن المهجورة . ودخل الضابط الذي كان يصطحبني وأشار إليّ بأن أتبعه .

عدت إلى حوض القرنفل في حديقة ريفيل . عدت إلى سيكارتي وعود الثقاب . وفي اليوم التالي جاءت سيارة مصفحة أخرى في طلبي . وجلس إلى جانبي في المقعد الخلفي ، جندي بالمدفع الرشاش . لم نكن نتجه هذه المرة إلى الجنوب ولكن شرقاً . وبعد ساعات دخلنا تولوز . وكان الليل يهبط . ميدان ويلسون ومقهى لافاييت . جلست هنا أثناء حرب أسبانيا ! ذات يوم كنت في الحديقة الصغيرة التي تتوسط الميدان ، ويدي في جيب معطفي ألعب بالمسدس وفوهته إلى الأرض ، وأطلقت سهواً . ولم يلفت الصوت الذي أحدثه الرصاص أحداً . وجاءت سليمة لم تكلفني غير ثقب . وكنت أصفّر بهجة ومرحاً ، لأني رأيت في واجهات المكتبات رواية « آل تيبو » يلفها شريط جائزة نوبل . . .

زجوا بي في منزل في الميدان . غرفة جلوس بورجوازية ما من عادة فيها غير نصف طاقة دائرية .

في الداخل قضبان . وفي الخارج أزواج يدورون حول

الحديقة الصغيرة ويجلسون على أسطح المقاهي : انها حياة المساء لولا أزياء الجنود الألمان . زوجة أخي تقطن في شارع الألزاس لورين على مسافة مئة متر من الميدان (أما أخي فقد قبض عليه منذ أكثر من شهر) . وأمر لي القائد الالماني بطبق من البيض بالجامبون وزجاجة من نبيذ بوردو . هل يعتبرونني من الأسرى ذوي الحيثية ؟ لا يمكن أن تكون فيشي هي السبب ، فلم يحقق معي أي شخص من الفرنسيين . تذكرت نصيحة تقول : لا تفرغ زجاجة أبداً ، لأن الغستابو يستخدمها في الضرب ، والزجاجات الفارغة أشد المراوات إيلاماً . لم أصل بعد إلى هذا المقام . وكان الحوار تحقيقاً بالكاد ، تجري فيه كالعادة كلمات مثل : « الماريشال بيتان وقع الهدنة » و« الويرماخت لا تعذب » . وتكلمنا عن معركة فردان ، فقال القائد : « في ذلك الوقت كنت أسير الفرنسيين » . وحملتنا السيارة المصفحة إلى حي واسع الطرقات ودارت حول نصب الشهداء الكبير وتوقفت أمام فندق فاخر . سرنا في بهو ليس فيه من الأثاث غير مكتب يعمل خلفه اثنان من الضباط . ناولهما القائد أوراقي وقد انتقلت إليه من أسلافه الذين تتابعوا على حراستي . قال واحد منهما : « أربعة وثلاثين » (رقم غرفة ؟) . وقام زميله لصاحبة القائد . وسرت بينهما . تركنا المصعد وطلعنا على الدرج الذي يغطيه بساط سميك تثبته شرائط من البرونز الناصع . وكنت متعباً ولكن الالمانيين قد أبطآ من سيرهما ليتفق مع خطواتي . وفي الممر وقف رجال الحرس الحربي ولا سلاح إلا المسدس في الجراب . وصلنا إلى الطبقة الثانية . وإلى الباب رقم ٣٤ . فتح الحارس الباب

وأغلقه ورائي . ومضى الالمان الثلاثة ، وكتم بساط الممر خطواتهم .

كنت في قاعة استحمام كبيرة ، حولت إلى غرفة . في أحد أركانها سرير عليه غطاء وملاءات بيضاء . وقد اصطنعوا خزانة في الحائط الآخر . لا جرس . ولا مقبض للباب ، فخبطت عليه بقبضة يدي . جاءني الحارس ، والغدر في عينيه .

ـ المراحيض ؟

قادني إلى قاعة فيها عشر مباول من الفخار ، عمودية ، كالتي في المقاهي . ووقف خلفي . عدنا . أخذ يزعق . هل يريد أن يقول لي يجب أن لا أدق الباب ؟ هل يطول زعيقه ؟ نظرت إليه ثم صحت فيه بصوت لا يقل حدة عنه :

ـ ربما أحضرت إلى هنا لكي أعدم بالرصاص ، لكنني لم أحضر لكي ترفع صوتك عليّ ! كفى !

وقف مشدوهاً ، كما لو كنت تحولت بين عينيه إلى أرنب ، فخرج وأغلق باب غرفتي ، بعناية تحتمل الوعيد .

كأنها مصحة ، غير أن الحارس كان يزعق منذ قليل . فتحت الخزانة . وجدت على الرف بعض الفضلات وأقلام الرصاص ومسطرة يرى طرفها بعناية . ولم يكن الحارس قد فتح الباب بالمفتاح ولكن بطفاشة . تفحصت المزلاج . اللسان داخل في الثقب . لم يكن الباب مغلقاً إلا لأنهم انتزعوا مقبضه والساق الحديدية التابعة له . ومن الثقب المربع الذي أدخل فيه الحارس طفاشته ، كنت أرى ضوء الممر وكأنني أنظر من خرم المزلاج .

كان طرف المسطرة مواتياً للثقب . ومسكته كافية لأفتح . وهذا ما فعلته دون شعور . كان الحارس في الممر ، واقفاً على مسافة مني ، يعطيني ظهره . أغلقت الباب في صمت وأعدت المسطرة إلى الخزانة .

لم أكن لأقوى على الجري . ولا السير على أطراف قدمي . ولكن في إمكاني أن أتخلص من حذائي . لا يكتب النجاح لعملية الهروب دون الأخذ بمخاطرة تربك العدو . وهذه مخاطرة مثل غيرها . لكنني استغربت وجود المسطرة في الخزانة . لعل من سبقني إلى هذا المكان قد براها ثم استدعي قبل أن يتمكن من استخدامها ؟ لا تترك الآلات الحادة في حوزة السجين . يستطيع أن يصنع سلاحاً من أي شيء كان (على ما يقال) . ولكن هذه المسطرة قد أحكم بريها تماماً . وكيف لا يفتشون الخزائن ؟ « لقي مصرعه أثناء محاولة الفرار . . . » . ما هذا السجن الذي يظهر فيه انهم يكتفون بتسجيل المسجونين ؟

افترضت أن القائد يمثل السلطة التي سلمتني إليها الفرقة المدرعة . وقد رأت هذه السلطة أني جدير بالنزول في بنيون للعائلات غريب ولكنه لا يمت بصلة إلى غرفة تمهيدية بعدها طابور تنفيذ الاعدام . والمكان خال من النوافذ . . . إذا كانوا لم يتخذوا قراراً بإعدامي ـ على الأقل في الوقت الحالي ـ فلا بد أنهم يزمعون استجوابي في باريس . وعلى أن أعلم هل المسطرة يمكن أن تفيد ، وإذا كان النهار في هذا البيت المحترم يشبه الليل . بدأت في خلع ملابسي . فُتح الباب . الجندي الذي كان يرافق القائد ، يرافقه

هذه المرة صف ضابط . ارتديت ثيابي من جديد . وفي الدور الارضي أخذ الضابط أوراقي . وركبنا السيارة المصفحة مرة أخرى .

إلى حي ناء وبرج وسور طويل جداً . أزّت فرامل السيارة وهي تنعطف إلى الشمال ثم دخلت تحت قبة بناء . وكان سجناً . إجراءات التسجيل التقليدية . لم يأخذوا مني غير الساعة ، وسلموني إيصالاً ! حبسوني في قاعة كان فيها نحو العشرين سجيناً تم إحضارهم في اليوم نفسه . كل واحد منهم يرتاب ويتحرز من الآخرين ولكن داء الاعلام يتحكم ويستبد بالجميع . الداء الذي عرفه قديماً في معسكر سيتس : « بيتان قتله ويغان في قلب مجلس الوزراء ! ـ غير صحيح ! بيتان وويغان قبض عليهما ماندل ! » وأما في هذه الليلة فكانت الأنباء تقول : « لقد تصدعت جبهة نورماندي واستولى المظليون على مدينة شارتر » .

وفي الغداة ، تم توزيعنا نحو الساعة العاشرة . بعد الدهليز المفروش بالبساط جاءت طرق السجون الواسعة وأبوابها ذات النوافذ . كنت أتوقع زنزانة لكنني دفعت في عنبر ـ نافذتان كبيرتان مشبك من القضبان ، تحجبهما من الخارج صناديق لا تسمح بدخول الضوء إلا إذا كان عمودياً . وجدت عشرة من المسجونين في ثيابهم المدنية ، نظروا إلى قدومي دون أن يتركوا أسرّتهم . إلا واحداً ، أعور الشعر ، عريض البسمة ، صافحني بحرارة وهو يقول :

ـ أنا رئيس العنبر . أرحب بك باسم الزملاء . وأنا أدعى

- وانا أيضاً . شكراً .
- متى قبض عليك ؟
- الأسبوع الماضي .
تأمل سترتي الخالية من الشرائط وقال :
- أنت من قادة المقاومة ؟
- نعم .
- من حسن حظك أنهم لم يهينوك .
- لم يفعلوا بعد . ربما كان ذلك بسبب السترة . ثم لأننا نحن أيضاً أسرنا منهم عدداً لا بأس به .
- لا ؟
من كل فرشة اتجه المسجونون نحوي ، متئدين ، مثلما يحدث في المسرح .
- ما هي أخبار نزول الحلفاء ، لقد مرت ثلاثة أسابيع على آخر وارد إلى هنا . عندنا التليفون ولكنه يكثر من نقل الأخبار الملفقة .
- أتتصلون ببعضكم البعض ؟
- نعم ، ولسوف ترى . ولكن بعد أن يحضر الالمان الشورية . وجاءت الشورية . فظيعة ، دون مبالغة . وقطعة الخبز تكفي ليعيش الانسان من الخبز .

وعندما اختفى صوت الصفائح من الممر ، اتجه اندريه إلى النافذة وقال بصوت مسموع دون أن يصيح : « ألو ، ألو ، ألو » .

سكون تام . ردت الزنزانة المجاورة « ألو » . اتجه اندريه إلى الركن وجلس على الأرض ، ودق بيده ثلاث مرات على الجدار الفاصل . وجاءته الدقات نفسها من الناحية الأخرى . وكان المساجين يقفون بينه وبين المنور . قال بالصوت نفسه :
- الأحوال ؟
كان هناك اثنان من زملائنا ، ينقلان الاجابات ، وقد ابطحت آذانها على الحائط .
- حسنة . وأنتم ؟
- استقبلنا اليوم عقيداً من عند ديغول . قبض عليه يوم ٢٣ تموز . يقول انه تم الاستيلاء على كان وسان لو . وان طائرات الحلفاء أنزلت المظليين في وضح النهار . ولا يعرف شيئاً بعد ذلك .
- أخبار أكيدة ؟
- نعم .
(قال لي أندريه : ولا يهمك . الكل هنا متأكدون من كل شيء) ؟
- طيب . سنقوم بنقلها .
وجرت اللعبة نفسها عند الحائط الأيسر . ورائي الممر وأمامي الشبابيك . وكانت الفرشة التي تركها صاحبها مجاورة لفرشة اندريه ، فسنحت لنا بعد « التليفون » فرصة الحديث بصوت خافت . غلب النعاس على الآخرين ، وقد فرغ ما لديهم من اقاصيص يتبادلون حكايتها .

- هل تظن أنه لا يوجد هنا خرفان ؟ (١) .

- لا تكثر من الحديث عن نفسك . هذا كل ما في الأمر .

وفهمت ما يعنيه . ان الخرفان لا يمكنهم أن يبلغوا إلا عن مشاريع هرب بعيدة الاحتمال أو مبالغات الذين يحبون التفاخر . فسجن سان ميشال محطة للانتقال . عميد المقيمين فيه لم تزد مدته على الثلاثة أشهر . وكل شهر تقوم قافلة الترحيل إلى المانيا . فكان الجو في السجن جو محطة مقلقة وياتصبب وقلعة . ولم نكن نجبر على القيام بأي عمل . وكان السجانون من جنود المشاة ، فهم لا يهتمون بأمرنا كثيراً . كان أندريه يقول : انهم « لايبحثون عنا » . وهم لا يجهلون الاتصالات الدائرة ، لأن كل عنبر يلتقط الاشاعات مثلما يلتقط الأمواج جهاز اللاسلكي . وكان الترحيل إلى المانيا لا يعني إلا إرجاء يوم الخلاص إلى أجل بعيد جداً . ولكن عند الساعة السادسة كنا نسمع خطوات تسير في الممر لجنديين وموظف ، يقومون معظم الأحيان بفتح باب أو بابين ويقتادون سجيناً أو اثنين . للغستابو .

فما أن تدق الساعة السادسة في أبراج الكنائس ، حتى يهبط الصمت على طول العنابر .

وقد عاد بعضهم . وكان منهم واحد من عنبرنا . قص علينا تعذيب « البانيو » بروح الفكاهة السوداء التي تسري في السجون .

- ليس مؤلماً جداً ولكنه يعاود ويكرر ، حتى تصبح كأنك

(١) مرشدون لادارة السجن .

لا تفهم شيئاً بالمرة . ولا يتوقفون عن الزعيق والضرب ، فعليك أن تنتبه تماماً لكي لا تجيبهم إلى ما يطلبون . عليك أن تنتبه تماماً . المرة الرابعة من أقسى ما يكون . ويمتلىء البانيو بالقيء وما إليه . ظننت أنهم سيغرقونني مثل الجرذ !

وانطلقت منه ضحكة متشنجة ، وريت على فخذيه وهو يقول :

- مثل الجرذ !

« وعلى ذكر الجرذان كانت هناك فأرة في الزي العسكري ، وهي أيضاً تدق - ولكن على الآلة الكاتبة» .هل تعرفون ماذا قالت لي تلك القحباء في المرة الثالثة ؟ « اخلص . كفاية . اني لا أطيق هذا ! » . كانت الحيوانة ترى أنني أتغندر ! أليس عجباً ؟

« إذا كتبت لنا النجاة فخير لها ألا تقع في يدي . . . » .

من هذه الحكاية وأمثالها ، كان يتألف فولكلور سان ميشال . فمن وصولي قام أحد الضباط بجولة في السجن لا بد أنها كانت لمراجعة القوائم . فقد أخذ يسأل كل سجين عن اسمه . وكان الجميع واقفين ما عدا صاحبنا الذي كان لا يقوى على النهوض . وعندما جاء دوره نطق باسمه فنظر الضابط إلى القائمة وقال : « تيروريست » (ارهابي) . فتقدم جاره الذي أطلق عليه المساجين بعد هذه الحادثة لقب الأستاذ (وقد رحل إلى المانيا) ورفع اصبعا منتهية وقال باحترام شديد : « لا تيروريست ، ولكن توريست (سائح) » . ثم عاد إلى مكانه . وواصل الضابط تفتيشه حتى إذا أراد الخروج ، ألقى على العنبر نظرة دائرية وصاح بسخط وازدراء :

« أنتم كلكم توريست ! » .

وصفق الباب من ورائه ، واندلع الضحك . . .

كانت القوافل الذاهبة هي شغل المساجين . كل منهم يريد الا تضمه القافلة المقبلة . والذين نوديت أسماؤهم للترحيلة الأخيرة عادوا إلى أماكنهم مع أمتعتهم . ولم يكن للمسجونين شأن في ما يرد في الكشوف . إنما يجتهدون في الا يجلبوا الانتباه لكي لا تدرج أسماؤهم فوراً . هذا قال لي اندريه : لا تكثر من الحديث عن نفسك . الا أن الجميع ـ عدا قلة من الذين قبض عليهم للاتجار في السوق السوداء كانوا يتحدثون عن ظروف اعتقالهم . هو الموضوع الأثير المبتذل الأساسي الذي لا يتعب معينه . وبفضله علمت أن الفندق الذي قضيت فيه بضع ساعات ، بالقرب من نصب الشهداء ، كان مقر الغستابو في تولوز ، وأن قاعات الاستجواب تستخدم في التحقيق والاستجواب . لكنها في العادة تخلو من الأسرّة . والحارس الصياح الذي اشتبكت معه حتى صعق من جرأتي ، كان بلا شك من الذين يتولون التعذيب . سخرية مشؤومة تشبه رؤى بني الحفلة الراقصة في رحاب القصر . وشعور بأني لامست القدر المحتم . يزيد من هذا الشعور أن روح السجن منذ ان تأجل قيام القافلة الأخيرة ، تحولت إلى الانتظار العقيم العاجز ، لما تأتي به الأقدار : ترحيلة جديدة أو الغستابو . وتمضي بنا الأيام ، كما تمضي في كل السجون ، فارغة الملامح ، الا توزيع الطرود التي يرسلها الصليب الأحمر أو الماريشال أحياناً ووقع أحذية التعذيب كل مساء الساعة السادسة . حتى كان ذات صباح ، جاءتنا من بعيد

زلزلة طويلة مكتومة ، صعدت من الجدران . تصلب الجميع بلا حراك . وألصق البعض آذانهم : فالحجارة أصلح من الهواء في نقل الأصوات التي تصدر من الأرض . ومرت ساعة . ساعتان . ثم عادت الألعاب التي تشبه الألعاب ، وعادت السرحات الحالمة ، وعاد العدم .

وجاءت زلزلة أخرى أخف من الأولى . لم تكن من قصف المدافع . هل هي من أعمال التخريب التي تقوم بها المقاومة ؟ ولكن انفجار الجسور المنسوفة لا يختلف عن القنابل التي تلقيها الطائرات . هل هي غارة من الحلفاء لا ترد عليها المدافع المضادة ؟ لم يكن شيء مما سمعناه عام ١٩٤٠ ، ولكن لحظة من المعارك الطويلة الساكتة تنقلها الأرض ، هدير فردان الذي لم يكن أحد منا قد سمعه .

هذه الزلزلة التي امتنعت عن التفسير ، ولا تشبه عمليات القصف التي نزاولها ، كانت هي تقدم الحلفاء ـ ولو أن هديرها الثاني كان أبعد من الأول . لا صياح في الشارع . ولا بنادق تطلق . ان ما يجري كان يجري بعيداً جداً . ولم تتغير حياة السجن .

لكنها مقبلة على التغيير .

●

الساعة الثانية ، توقفت إحدى الدوريات في بعض الزنازين ، ثم فُتح باب عنبرنا . وقال رجل المالي يرتدي الثياب المدنية :

- مالرو ، الساعة السادسة .

هو استجواب الغستابو .

تنبهت إلى أني كنت أعتقد أنهم نسوني .

حاولت أن أطلع من زملائي على ما لديهم من معلومات دقيقة . أحاطتني ، منذ أن أغلق الباب ، اخوة مثل أخوة السهر في ليلة المأتم . حتى من المهربين في السوق السوداء . معظم رفاقي يقصدون بالغستابو الشرطة العسكرية التي صرعتهم بالضرب . أما السجين الذي مارس البانيو ، فهو يتحدث عن دراية وخبرة . ولكن الالمان استجوبوه ليكرهوه على البوح بالأماكن التي توجد فيها محطات الارسال التابعة لمجموعته . وقد عذب مرتين تفصل بينهما ثلاثة أيام . ومحطات الارسال تنقل من أماكنها كلما وقع أحد أفراد المجموعة . وقد صمد في المرة الأولى . وأعطاهم في المرة الثانية عنوان شقة أصبحت خالية .

عبثاً أحاول أن أستوضح معالم الأرض التي سيجري الصراع فوقها . قال أندريه : « ان ما يقصه الرفاق لا يجدي في شيء : الحالات تختلف دائماً . . . » . هل هو استجواب عن مواقع المقاومة ؟ لقد اعتقلت منذ وقت طويل . أهي مواجهة ؟ أم يريدون استخدامي طعماً ؟ لقد احتطنا من قبل . وكنا نملك في مونتينياك مغارات لا يستطيع الالمان أن يلاحقونا فيها . واتفقنا على أنه إذا اقترب أحد منا وهو يحك أنفه ، فمعناه أن الالمان يتبعونه . وعلى رجالنا قبل أن يفروا ، أن يطلقوا النار في رأسه ، لكي لا يقع تحت التعذيب مرة أخرى . وكان لي في هذه المغارات رفيقان من اسبانيا .

والمرجح أن إدارة الغستابو أطلعت على ملفي . ومعلوماتها أدق من الصحف ، فهي تعرف إذاً أني لم أكن في يوم من الأيام عضواً في الحزب الشيوعي ولا الفرق الدولية ، ولكنها تعرف أني كنت أحد رؤساء اللجنة العالمية المعادية للفاشية والرابطة ضد معاداة السامية ، وأني توليت قيادة الطيران الأحمر الذي كان يعمل في خدمة الجمهورية الاسبانية وقت كانت الأحزاب الشيوعية لا تعرف بعد ما تريد أن تفعل . للغستابو أكثر من عشرة أسباب تدعو إلى إعدامي . فعلام يستجوبني ؟ ليس هناك إنسان يسر بتوقع التعذيب . فكرت في أني كثيراً ما كتبت عن التعذيب ، ويوشك ما كتبته أن يصبح كالنذير .

الساعة السادسة . فتح الباب وقف المسجونون على جانبيه ، كل منهم يمد لي يده بالتحية .

المدني الذي جاء في الصباح . والحارسان . هبطنا الدرج . ظننت أني عائد إلى الفندق ولكننا انعطفنا من الجهة المقابلة للشارع . كان الفناء محاطاً بالقناطر . والحراس الألمان يلعبون . سقط أحدهم في قفزته وراح يسبني . ثم توقفنا أمام باب أقرب إلى الصغر ، مثل أبواب المكاتب في ثكناتنا . انفتح قبل أن يدقه الحارسان ، على جنديين يحملان رجلاً يبدو أنه اسرائيلي ، قد تورم وجهه ، ويسيل من طرف فمه خيط من الدم ، وما زال يحرك ذراعيه القصيرتين كمن يريد أن يتفادى الضربات .

دخلنا إلى مكان يشبه المخفر ، ضجة هوجاء : جندي يخبط الشاكوش على لوحة من الصفيح معلقة في سلسلة يمسكها بيده

اليسرى . ضجة تغطي عويلاً وعواء .

وسجينة زائغة العينين تحاول وهي تنتفض ، أن تدخل ملعقة شاي من بين أسنان سجين مغمى عليه ، وقد تغيرت ملامح وجهه بعد الضرب ، والمرأة تذرف الشاي على الأرض وتعاود محاولتها . أوثقت يداي من الخلف ، وأدخلت في الغرفة الثانية . على اليمين واليسار أبواب مفتوحة على رجال شدت أرجلهم إلى أيديهم وانهالت عليهم الجزمات وأنواع من الهراوات لم أكن أميزها . ورغم الضجيج ، تهيأ لي أنني أسمع وقع الضربات المكتومة على الأجساد العارية . وارتدت عنهم عيني لتنظر أمامي ، فلعلي شعرت بالخجل أكثر من الخوف . وكان وراء المكتب ، شاب أشقر يرمقني بنظرة لا تعبر عن شيء . وكنت أتوقع أن يبدأ الاستجواب بالتحقيق في شخصيتي .

ـ لا جدوى من الاجابات البلهاء : « غاليتزينا » تعمل الآن لحسابنا .

ماذا يقصد ؟ قد يفيدني أن يسلك طريق الخطأ . المهم أن أبقى على وعي ، رغم الجو والضجة وإحساسي بأني أكتع .

ـ هل أمضيت ثمانية عشر شهراً في روسيا السوفياتية ؟

ـ لم أتغيب أكثر من ثلاثة أشهر خارج فرنسا ، منذ عشر سنين ، ومن السهل أن تأمر بمراجعة أقوالي في مصلحة الجوازات .

ـ هل أمضيت سنة في بلادنا ؟

كان مضطراً أن يصبح ، وأنا بالمثل .

ـ لم أمض أكثر من خمسة عشر يوماً . وقد أعطيت تواريخ

وأماكن محاضراتي في جامعاتكم للشرطة العسكرية التي قامت باستجوابي .

كأنما تملكته نوبة عصبية (نوبة مفتعلة ؟) نهض وهو يصرخ في وجهي :

ـ أنت إذن بريء ؟

ـ مم ؟ لقد أعلنت منذ البداية ودون أي ضغط ، أني القائد العسكري لهذه المقاطعات .

عاود الجلوس . وقذفني بالنشافة ، فأخطأني ، ولم يلح . كان هناك أمر يحيره . وكان يتفحص سترتي الخالية من الشرائط والنياشين .

ـ هل قلت : منذ عشر سنين ؟

ـ نعم ؟

ـ وأنت الآن في الثالثة والثلاثين .

ـ في الثانية والأربعين .

كان الحلاق قد حضر إلى عنبرنا البارحة . اللحية الكثيفة قد تعالط في السن . ولكنني كنت حليقاً وكان من الواضح مع ذلك أني تجاوزت الثالثة والثلاثين .

دق الجرس ، فتوقف الخبط على الصفيح . وتحولت الصرخات إلى انات باكية ، راحت تبتعد . هل استمر العرض ما يكفي ؟ غير أني أحس بالخطر الذي يتهددني أشد مما كان أمام المدافع الرشاشة على طريق غرامات أو طابور الاعدام الكاذب . وكان قد استعاد صوته الطبيعي وكاد أن يتخلص من لكنته .

- هل تزعم أنك لست ابن فرنان مالرو وبرت لامي المتوفيين ؟

- بلى .

- بأي مرض مات والدك ؟

- انتحر .

كان يقلب صفحات الملف .

- في أي تاريخ ؟

- عام ١٩٣٠ أو ١٩٣١ . ولكن الخطأ مستحيل ، فلم يكن في عائلتنا من يدعى « فرنان » غيره .

نظر إليّ كأنه يريد أن يقول ، متهجماً : فسّر لي إذاً ماذا حدث ؟ فأرد عليه عندئذ بحركة تفصل بين يدي المفتوحتين وتعني : لا أدري أكثر مما تدري . ولكن يدي مقيدتان وراء ظهري . إلا أنني كنت أخمن ما حدث .

الثالثة والثلاثون من أخي رولان . وهو قد أمضى عاماً في المانيا قبل حكم هتلر ، وثمانية عشر شهراً في الاتحاد السوفياتي . والأميرة الرفيقة غاليتزينا كانت خليلته . وأرسلت باريس ملفه . فقد وقع رولان بين أيديهم . ولم يعثروا بعد على ملفي لأني أنسى دائماً أنني لا أدعى اندريه . فلم أناد بغير هذا الاسم قط . ولكنني في السجلات المدنية أدعى جورج . والمرجح أن الفرقة المصفحة لم ترسل كل التحقيقات التي أجرتها معي واكتفت بأن تطلب ملف أندريه مالرو الذي لم تتمكن مصلحة السجل المدني من العثور عليه وذلك لأنه لا وجود له . فاختاروا من بين الملفات التي تحمل اسم

مالرو ، أكثرها شبهاً (في منطقة دنكيرك اثنان وخمسون من أبناء أعمامي ، يحمل ثلاثون منهم لقبي) . ولكن الملف كان يحتوي على أشياء أخرى ، لأنهم لم يبدأوا بضربي .

- هل قلت ان الأسرى من رجالنا يلاقون معاملة طيبة ؟

التحقيقات التي أرسلتها الفرقة المصفحة أتم إذاً مما كنت أظن .

- كان في استطاعتكم منذئذ أن تتأكدوا عن طريق مخبري الميليشيا .

- لا داعي ، فقد استعدنا الأسرى .

أشك في أن يكونوا قد فعلوا .

- أنت برجيه ، أليس كذلك ؟

- نعم .

- تعترف إذاً بأنك مذنب ؟

- ان هذا ، من وجهة نظركم ، شيء لا نزاع فيه .

الموظف المدني يجلس ورائي ويسجل أقوالي . والمحقق لا يزال يقلب في الملف .

- كل هذا يجب أن يعاد ! . . .

ثم نظر إليّ ، مثلما يتحفز الكلب ، وصاح بلهجة الساخط المحنق من فرط حماقتي .

- ولكن بحق الله ما الذي دفع بك إلى الانزلاق في هذا كله ؟

ترددت ثانية قبل أن أقول :

- عقيدتي .

أجاب كأنه يبصق .

ـ عقيدتك ! سوف نرى ما يكون منها !

وترك مكتبه وانتقل إلى الغرفة المجاورة . فليكن ما يكون ، لقد أقدمت منذ حين ، كما أقدم الكثيرون من قبلي ، على أشجع ما استطعته في حياتي .

وأمامي خمس دقائق على الأقل . ثم يبدأ كل شيء ، أو ينتهي .

●

دق الجرس للاستدعاء .

لحق الموظف المدني بزميله في الغرفة المجاورة ، وعاد في الحال تقريباً ليأمر الحرس باصطحابي ، ثم ذهب .

وعدنا من حيث أتينا . وما زال الحرس تحت القناطر يواصلون ألعابهم .

وأخذت في « مشاهدة » الغرفة التي تم فيها استجوابي . كنت أظن أني لم أتطلع إليها . على الحائط ، فوق خزانة الملفات ، إعلان عن مشروب « بيرنو بونتارلييه » كان معلقاً في ما مضى على جدران كل المقاهي . وحشرات تجري . والرجل المربوط إلى اليمين والذي يرفعه جلاده بضربات من حذائه ، كان أشقر وكان ملطخاً بالدماء . وملامح المحقق الأشقر ـ العينان متقاربتان والأنف والفم صغيران ـ قد اجتمعت كلها في دائرة أصغر كثيراً من وجهه .

السلالم . العنبر . المصافحات . الدهشة تعم الجميع .

قلت :

ـ تأجلت الجولة فلم يكن لديهم الملف الصحيح .

اشتغل تليفون الحائط . وجاءتني التهاني من الزنزانات المجاورة . وبلغنا أننا استعدنا نانت وأورليان وتم استسلام الفرق الالمانية التي تحتل كوربيز . إذا صدق الخبر ، فقد استسلمت لخليفتي ، مما يفسر كثيراً من الأشياء . . . وكان زملائي يأملون في تلقي أنباء عما يسمونه « قذف المواقع » ، فقد سمعوا هزة تقل بعداً عما سبقها . وفي الليل سمعنا ثلاث هزات أخرى ـ ربما كان ذلك بسبب السكون .

وفي الغداة تقاربت الانفجارات واشتد عنفها حتى ظننا أن تولوز تُقصف بالقنابل . لكننا لم نسمع أزيز الطائرات . وحفر الدريه ثقباً في أسفل إحدى السقائف المقلوبة التي كانت تسد نوافذنا ، فلم نر خلاله غير قطعة من السماء تفرقها سحابات الدخان . من صنع مدافع بعيدة المدى ؟ أين تكون الجبهة إذاً ؟ بعض الانفجارات لا يمكن أن يُعزى إلى القنابل . « ألو ! ألو ! الالمان ينسفون ألعوباتهم ! » أية ألعوبات ؟ سواء كانت مخازن المانية أو مباني فرنسية فهي تنسف وفقاً لخطة المانية لا وفقاً لتقدم الحلفاء ، وهذا ما يفسر دنو الانفجارات منا ثم ابتعادها أحياناً أخرى . استمع ، انتظر ، افترض ، تلك هي حياة السجن . . .

قد كان يجري ما يأمل فيه معظمنا منذ أن جيء بنا إلى هذا المكان ، لقد تصدّعت الجبهة وقوات الاحتلال ترتد من الجنوب إلى باريس .

اصطففت جميع الأبواب وقد توالى فتحها واحداً بعد الآخر .
وصاح السجان بعنبرنا : « الكل ينزل إلى تحت بأمتعته » . وهرع إلى الزنزانة المجاورة . « بأمتعته » كانت تعني ، من حيث المبدأ ، الترحيل إلى المانيا . عندما اعتقلت كانت أغلب الخطوط الكبيرة مقطوعة . هل يتم نقلنا بالشاحنات ، عبر مراكز المقاومة في منطقة الجبال الوسطى ؟ أدخلنا في القاعة الكبيرة التي قضيت فيها ليلتي الأولى . هل جمع كل المسجونين ؟ كنا نحو الخمسمئة . خلدونا خلدون أبناء الأشغال الشاقة ، وصور الملابس إلى جانبنا يرثى لحالها . كلنا تقريباً من مفترشي الأرض . كمضارب المهزومين منذ الأزل . وتختفي الشائعات لتظهر مثل أطواق الحواة . بعد ثلاث ساعات قضيناها في الانتظار ، أعدنا إلى عنابرنا .

هل مضى وقت الترحيل إلى المانيا ؟ عليهم الآن اما أن يتركونا في سيلنا أو أن يعدمونا بالرصاص . لا يلزم كثير من الرشاشات لقتل ألف من البشر .

لم تأت الشوربة . خبط بعض السجناء بعنف على الأبواب . وانطلقت في هواء الممر بعض الأعيرة النارية من بنادق الحرس . وساد الصمت .

عبرت الخيوش طوال الليل . فواجهة السجن تطل على طرق رئيسية . وفي الصباح لم تأت الشوربة . ولكن عند الساعة العاشرة أعقبت صوت الشاحنات طرقات الدبابات المهرولة . أما أن الحرب تجري في شمال تولوز (ولو أننا لا نسمع المدافع ولا قذائف الطائرات) أو أن الالمان يتركون المدينة .

وتعلقت أنفاسنا فجأة : في فناء السجن ، أصوات نساء تهدر بنشيد المارسييز . لم يكن غناء المسجونين المهيب ساعة الرحيل إلى معسكرات الابادة ، ولكنه الهدير المدوي الذي ربما استمعته باريس عندما زحفت نساؤها على قبر فرساي . ليس هناك شك في أن الالمان قد ذهبوا . هل عثرن على بعض المفاتيح ؟ في ممر السجن رجال يركضون وهم يصيحون : « اخرجوا ! اخرجوا ! » وفي الدور الأرضي طبلة ماردة من الخشب دوت طويلاً ثم دمدمت . أدركنا جلية الأمر . كل عنبر لا يوجد فيه من الأثاث غير مائدة . هي مائدة السجون القديمة ، ربما كان يرجع عهدها إلى الامبراطورية الثانية ، وهي غليظة وثقيلة . هرعنا إليها جميعاً . فرفعناها وأقمناها واقفة تجاه الباب ، ثم رجعنا حتى النوافذ . وعد اندريه : « واحد ، اثنين ، ثلاثة ! » وزلزلت العنبر دقة ناقوس رهيبة . وتوتر الباب مثل القوس ، برغم أن مجهودنا لم يكن منسقاً . وسقط بياض الجبس والتقط أندريه قطعة منه ، ورسم على الباب علامة ، عند ارتفاع قامتنا ، وقال « الكل يسدد هنا ! » . عدنا إلى النوافذ ، وكانت أصوات الدك تصلنا من الدور الأرضي : « واحد ، اثنين ، ثلاثة ! » انبعج الباب كأنه يريد أن ينفجر . تقهقرنا . نال منا الجهد ولكن جنون الحماسة ما زال يشدنا . نسمع المدكات تعمل في كل الجهات ونسمع ما تحدثه من فرقعة . نحن ، من أسابيع ، نعيش على طرقات الأصوات والمخاطر . الاتصالات عبر الجدار ثم خطى التعذيب ثم بناية الصمت هذه التي تنهشها الأصوات الحذرة كما تنخر الديدان في عروق الخشب . ونحن دائماً

أبداً نصغي . وما زلنا حتى هذه اللحظة نعيش على الأذن . ما زلنا أسرى هذه البراكين العارمة من الأصوات تقرعها زلازل الدك العميقة . والسجن كله يرتج بالدبيب . ومن فوق دمدمات الموت (فما زال من الممكن أن يعود الالمان) استعادت المارسييز صيحاتها المتنبئة : « يوم المجد » هو التحرير الذي نحن في سبيله ، و « الطغيان » نحن نعرفه ، و « هل تسمعون في قرانا » تشير إلى احتمال أن تعود الدبابات ، و « إلى السلاح » تأمرنا بدك الأبواب . حاول البعض من هنا وهناك أن يغني المارسييز في الزنزانات وخابت محاولاتهم فالأبواب لا تدك على إيقاع الأناشيد . ولكن المدكات التي زاد عددها فتعاظمت دباتها المتتالية ، كانت تصاحب الهدير الساري ، وكأنها طبول هائلة تأذن للزحف من بطن الثرى . وفي الضربة الخامسة انفجر باب عنبرنا .

أصبح علينا أن نرفع المائدة . وفي الممر على اليمين ، كان المساجين يفرون من فجوات الأبواب المحطمة أو المنزوعة . وفوق الدرج من ناحية اليسار ، تطلع علينا ، شاهرة قبضاتها ، محاولة بغنائها هزيم الدك ، جماهير التمرد ، حشود أنبتها الدهر في كل العصور . وكانت في هذه المرة كأنما جعلت لتحلي صدر مجلة نسائية ، فالنساء اللاتي اختلطن بصعاليك النزلاء ، لم يرغبن عن المظهر الأنيق . وعلى رأس الجمع ، رجل يشرع في يده ربطة مفاتيح راح يفرج بها عن الأبواب التي لم تحطم بعد . توقف الغناء ، إلا المنشدون من فوقنا ، ولكن الحرية في كل مكان تدق طبلتها العنيدة . وهبطنا عكس التيار حتى وصلنا إلى الفناء فسمعنا هناك

بعض أنات الألم وباب السجن يغلق دفعة واحدة فيحدث ضجة هائلة تعلو على صوت الدبابات والمدافع الرشاشة التي أخذت في الابتعاد . عشرة من المساجين يعودون أدراجهم ملطخين بالدم أو يمسكون بطونهم قبل أن يقعوا . هنالك من فوقنا نشيد المارسييز البعيد والمدكات ، وتحتنا صمت لا تصدقه الأذن . وفي الخارج صيحات . وعدا الجرحى الذين سقطوا لجأ الجميع إلى القاعة الكبيرة ، وكان عددهم ما بين الثلاثمئة والأربعمئة .

- برجيه في القيادة ! برجيه ! برجيه !

لا بد أن هذه الصيحة صدرت من أصحاب الزنزانات المجاورة . الكل يريدون النجاة من هذه الحرية الشوهاء ويريدون العمل معاً . كانوا عزلاً من السلاح ، والدبابات الالمانية على الجانب الآخر من الباب . وأنا المسجون الوحيد الذي يرتدي زياً عسكرياً ، يضفي عليّ سلطاناً غريباً . قال الدريه : « هيا ! تدثر ! » .

صعدت فوق بعض الصناديق .

- انتظموا !

تكونت منهم صفوف .

- أريد الأطباء !

جاءني أربعة .

- هل بينكم ممرضون ؟

تقدم واحد . فلتأخذ أياً كان من المسجونين .

- العشرة الأوائل ، في خدمة الأطباء من أجل الجرحى - من

أصيب الآن ومن سوف يصاب .

قال الطبيب :

ـ ماذا أفعل بهم ؟

ـ افعل ما تشاء . انصراف .

« فليتقدم الثمانية الذين يعدهم » .

كانوا بالقرب مني ، لكنني ما زلت أصيح معلناً ما نفعله .

وكانت هناك في أركان السجن أربعة أبراج للمراقبة ، قلت :

ـ لكل برج اثنان . واحد يظل يراقب والآخر يأتي للافادة في الحال ، ويظل يعمل في الاتصال .

وقام اندريه بتعيين رجلين لكل برج . وأرسلته هو إلى برج من اثنين كانا يطلان على الطريق .

لا صوت الآن غير صياح الجرحى . لو أن الفرقة الالمانية كانت هنا لحاولت أن تحطم الباب ، ولو أن الدبابات كانت هنا لحطمته بالفعل . لن يجري شيء لبضع دقائق على الأقل . بعض المساجين يصلون من طرف الممر وبعضهم يذهب .

ـ أريد ضباط المقاومة والمسؤولين فيها !

تقدم ثلاثة .

ـ أريد من يعرف منكم سان ميشال ولو قليلاً .

جاءني نحو العشرين من الذين استخدموا في أعمال السخرة منذ أسابيع .

ـ من منكم يعرف مكان الأسلحة ؟

مسجونان بشوارب .

ـ لا يوجد فيها شيء بلا شك ، ولكن اذهبوا لتروا . من منكم يعرف أين توجد السلالم الخشبية .

لا أحد .

ـ الذين يعرفون أين كانت المعاول أو الشواكيش ؟

خمسة . لا بأس .

ـ اذهبوا لتروا !

ناديت جريحاً أصيب في ذراعه ، صنع له زميله مرقاة وأخذ يوثقها .

ـ ما الذي حدث ؟

ـ خرجنا متدفقين وكانت هناك دبابات قذفتنا بالنار .

ـ وبعد ؟

ـ عاد الذين تمكنوا من العودة .

ـ والدبابات ؟

ـ لا أعرف . . .

فلأعد إلى الصياح .

ـ أريد أن يأتيني جميع المصابين !

حضروا . أمرت الطبيب الثاني بمحاولة علاجهم .

ـ الدبابات التي قذفتكم ، هل اتخذت لها أماكن أم ذهبت ؟

الكثرة لا يعرفون . وقال أربعة أو خمسة ان الدبابات ذهبت . بينما قال واحد انها بقيت . وتذكرت أن الطرقات أخذت تخف تدريجياً . . .

ناديت إحدى النساء ، حالتها أقرب إلى الهدوء :

- كيف دخلتن السجن ؟

- عندما رحل أول الالمان ، انشغلت الكثيرات منا بالمراقبة لأن أزواجهن في السجن . وعندما أبصرن جنود سان ميشال يذهبون ، دخل بعضهن على طريقة التغابي وبحجج مختلفة . ولم يكن الباب مغلقاً . لم يكن هناك أحد . فتصايحن ودخلن جميعاً .

- لم يكن هناك دبابات ، بالطبع ؟

- لا شيء . والذين خرجوا أولاً ، لم يرتابوا .

عاد واحد من ذوي الشوارب .

- لم نعثر على السلاح ولكنا وجدنا قنابل يدوية .

- كم قنبلة ؟

- نحو الخمسين .

- جربوا إحداها ، أينما استطعتم . وخذوا معكم أربعة زملاء وهاتوا الباقي على جانبي مدخل القبو .

وعاد اندريه .

- تحررت باريس ! تحدثتُ من البرج مع رجل من جيراني . وقد شاهد كل شيء . في رأيه ان الالمان تركوا السجن ولم يعد لهم شأن به . ولكنهم لم ينتهوا بعد من الجلاء عن تولوز . ونحن في إحدى الطرق التي يتم منها جلاؤهم . بعض الدبابات التي كانت تهجر المدينة عرفت السجن وأدركت بسهولة ما يجري ، فأطلقت النار عشوائياً .

- ابعث بنفرين آخرين للاتصال .

وصل عامل الاتصال في البرج الثاني المطل على الطريق ،

ليؤكد معلومات اندريه .

صحت بما ينبغي أن نفعله واتجهت إلى باب السجن وأمرت بفتحه . كان الطريق خالياً . وثلاثة أجسام مرت عليها الدبابات ، تركت على الأرض دمها .

قلت لأحد الضباط الذين كانوا يرافقونني :

- خذوا الرمل من الفناء وافرشوه على الأرض لتغطية الدم . لا تتركوا شيئاً يمكن أن يلفت نظر الالمان . وإذا أخبركم البرج بقدومهم ، ارجعوا بلا عجلة ، كأنكم عائدون من بعض أعمال السخرة .

في مواجهة السجن بيوت فقيرة وحوانيت متواضعة ، كان الأهالي في ما مضى يشترون منها السلال للمسجونين ؛ ومن ورائها بساتين صغيرة .

أرسلت عدداً من الذين حولي ، ليقوموا بفتح كل الأبواب .

- وانطلقوا بعد ذلك من الباب الخلفي ، تاركين كل ما تستطيعونه مفتوحاً .

ساروا . وانطلق معهم الذين كانوا يفرشون الرمل . وقد أخذ المسجونون كلهم في التجمع وكل ثلة تضم عشرين . وانطلقت من البرج صفارة .

لا جدوى . فالدبابات على مسمع منا . ثبتنا في الباب قضبانه الضخمة .

الدبابات إما أن تهمل السجن وتتجاهله ، فيخرج المسجونون جماعات بعد مرورها ، أو ان تحاول تحطيم الباب .

ولكن القبو أضيق من أن يدخلوه مالئين ، فعليهم أن يناوروا ويعودوا إلى الوراء ، ولن يجدوا في هذه الحالة منطلقاً كافياً ، حتى لو قاموا بتحطيم حانوت أو اثنين . خلال ذلك نكسب بضع دقائق لتدبير أمرنا . إذا دخلوا تحت القبة أصبحوا هدفاً يمكن أن تصيبه القنابل اليدوية ، بينما تحمينا زاوية الجدار القائمة . وإذا شقوا لنفسهم طريقاً فسوف يجدوننا ، ولكن عليهم أن يشقوه . يكفي أن تشعل قنابلنا النار في الدبابة الأولى حتى تسد الممر . ولا يمكن عندئذ الدبابات التالية أن تضيع وقتها في ضرب الحصار . ولحق بي اثنان من الضباط كانا يعملان من قبل في المدافع المضادة للدبابات ، ومعهما اثنان من الأشداء ، متعودان القنابل اليدوية . ان القنابل ذات المقابض التي وضعت على جانبي الفجوة السوداء من القبو أسهل استخداماً من قنابلنا . ولم نكن نسمع إلا طرقات الدبابة (الخفيفة نوعاً ما) وهي تقترب . وأصبحت الحياة في السجن مرة أخرى هي السمع . ولم تكن الدبابة تستطيع أن تناور دون أن تبطىء سيرها ، ولم تكن تبطىء . ربما كتبت لنا النجاة . وحيّا المراقبون في أبراجهم . واخترقت بعض الطلقات أعالي الباب متتابعة مثل النمل الهائج . ونأت الدبابة عن السجن .

فعلت الدبابتان التاليتان بالمثل . وابل من الرصاص للوداع ، للمزاح الأخير . فقد انتهت القصة ، اما لأنهم لا يبالون أو لأنهم أصروا بالانسحاب دون توقف .

ثم مرت تسع دبابات أخرى . مرت من أمام جميع البيوت ومرت من أمام السجن . . . ومر ضجيجها .

هرعت إلى برج اليسار . والدبابة الأخيرة على المنحنى . جنزيرها مزج الدم والرمل ، ولم يعد ثمة بقع أمام السجن .

« افتحوا الباب » .

خرج أول الخارجين كالذاهبين إلى النزهة . ولكن سورة الحرية غلبت فطفر الآخرون مثل سيل جارف من الأطفال التلاميذ . قد تعود المذبحة إذا عادت الدبابات .

ولكنها لم تعد .

توقيع المؤلف اندريه مالرو

فهرست

أشجار التنبورغ ٢٧
المذكرات المضادة ١٢٧

انتهى الجزء الأول من المذكرات المضادة :
مرآة اليعبس

ويليه الجزء الثاني ومن مواضيعه :
تجربة الغرب
الطريق الملكي
الوضع البشري

منشورات عويدات ٨٣٧ / ١٩٨٣

Malraux Le Miroir des Limbes*
Antimémoires

•

Traduction arabe dirigée
par
Henri ZOGHAIB

MARIANNE / OUEIDAT
Beyrouth